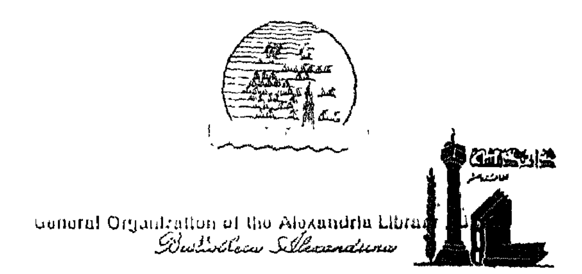


تأليف
برنار سيميوث

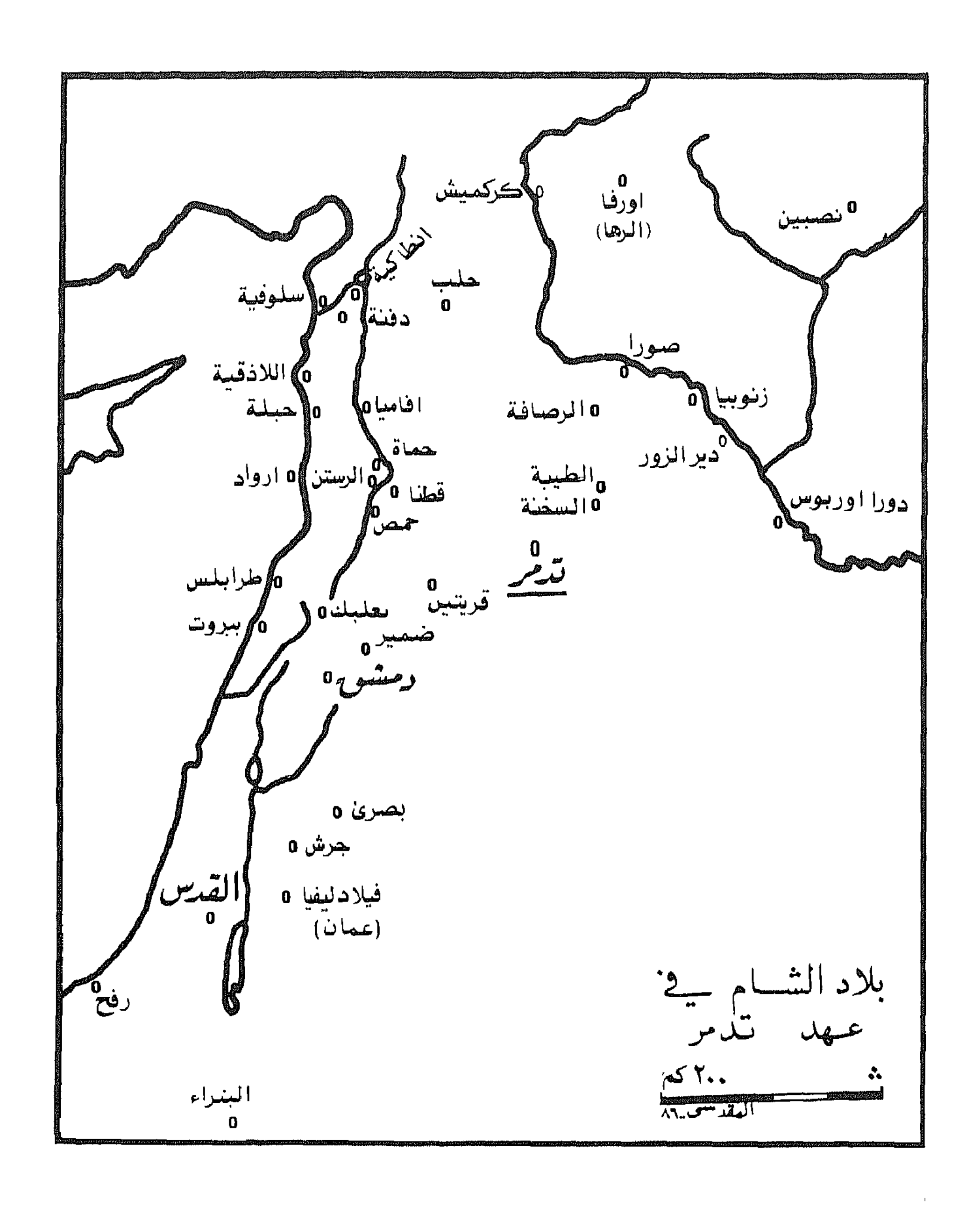
ترجمة
هيثم سرية




الأوراق السرية
للملكة زنوبيا

الطبعة الأولى ١٩٩١

★ الكتاب : الأوراق السرية للملكة زنوبيا .
★ المؤلف : برنار ـ سيميوت
★ ترجمة : هيثم سرية
★ المطبعة : الشـــام
★ عدد النسخ : ٢٠٠٠
★ الناشر : دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع ٢١١٠٢٢ ـ ٢١١٠٤٨
ص.ب ـ ٥٣٧٢ تلكس ـ ٤١١٩٥٦ TAWA
★ التنضيد الضوئي والاخراج ـ مؤسسة التنضيد التصويري [دبس]



كركميش
اورفا
(الرها)
نصيبين
انطاكية
حلب
سلوقية
دفنة
صورا
اللاذقية
زنوبيا
افاميا
الرصافة
جبلة
حماة
ديرالزور
ارواد
الرستن
الطيبة
قطنا
السخنة
دورا اوربوس
حمص
تدمر
طرابلس
قريتين
بعلبك
بيروت
ضمير
دمشق
بصرى
جرش
القدس
فيلادليفيا
(عمان)
بلاد الشام في
عهد تدمر
ش
٢٠٠ كم
رفح
البتراء
المقدسي ـ ٨٦

خارطة تدمر

مقدمة

إن مؤلف هذا الكتاب ، يتخيل بأن الملكة زنوبيا ، ملكة تدمر ، التي عاشت في القرن الثالث بعد الميلاد والتي غيرت الخارطة الجغرافية والتاريخية للعالم الروماني في الشرق ، قد تركت لنا مذكراتها .

تروي زنوبيا أولاً طفولتها ، وشبابها ، وزواجها من الأمير العربي أوذينة ، وكذلك ولادة إبنها «**وهب ـ اللات**» . وعندما يتسلم زوجها لقب «**أوغست**» ، يصبح فصاعداً ممثل الإمبراطورية والقدرة الرومانية ، وتؤازر «**روما**» نضاله وقتاله ضد الفرس الساسانيين ، وعلى رأسهم «**الملك سابور**» . ولكن يد القدر تمتد لزوجها أوذينة فتأخذ زنوبيا زمام أمور بلادها ، حتى لحظة غزو «**الامبراطور أورليان**» لمملكتها .

تؤخذ زنوبيا ، أسيرة إلى روما ، وتقيم في ڤيلا بالقرب من العاصمة في منطقة «**تيبور**» حتى ليقال إنه «نفي ـ ذهبي» . . .

تمتد إمبراطورية زنوبيا ، من حوض نهر النيل المصري غرباً ، حتى الفرات ومصباته في الخليج لبلاد الرافدين شرقاً ، ومن البوسفور وآسيا الصغرى شمالاً ، حتى الصحراء العربية جنوباً .

وإذا كانت المصادر التاريخية ، التي استقى منها الكاتب «**برنار ـ سيميوت**» موضوعه ، فإنه قد أكمل بعض الفترات الغامضة تاريخياً ، إستناداً إلى قاعدة السلسلة المكونة من حلقات متتابعة ومرتبطة فيما بينها ، بمنطق تاريخي .

وتتداخل الاعتبارات التاريخية ، والسياسية . لتتجلى لنا تلك الحقبة الفنية والغامضة قليلاً ، من منظور إبداعي للعالم الروماني الذي عرّبته زنوبيا ، عبر حكمها . ونرى بالتالي حياة تدمر الزاخرة ، بحركة تجارة القوافل ، وبداية حضارة أو بالأحرى ، تجدد الحضارة المشرقية ، وغلبتها بثقافتها وبتعاليمها للعالم الغربي ، وبفضل شخصية الملكة زنوبيا ، الاستثنائية التي فهمت المستقبل ، فعملت على عودة شعلة الحضارة إليه بعد ذلك لفترة طويلة في الشرق .

المترجم

الأوراق الخاصة للملكة زنوبيا

«الجزء الأول»

زبيداء

ما هو الميزان ، ذلك الذي يزن الأنانية ، والافتخار والذي يدخل في محراب الحب الأبوي ؟ لقد مضت سنة منذ أن أصبحت فيها زوجة «سبتيموس ـ أوذينة» . وأبلغ من العمر الآن عشرون عاماً . وعما قريب سيبلغ زوجي سن الستين ، ولكنه الشخصية الأولى في تدمر . حيث ترتجف أمامه جموع المواطنين ، وبالكاد يجرؤون على لفظ اسمه بصوت عال ، والشخص الوحيد الذي يستطيع السماح لنفسه برفع الصوت أمامه هو «والدي» ، عندما يخاطبه قائلاً : «يا صهري أوذينة» . وأما بالنسبة لي ، فلا أعرف حتى الساعة كيف أناديه فكلمة «يا سيدي» تلحن في فمي . وليس مرد ذلك لأنه الأول من بين الأباطرة السيڤيريين السوريين الذي منح إمتيازاً ولعائلته ، حتى أناديه بـ «سبتيموس» فإنني أكره كرهاً شديداً هؤلاء الرومان وما يمثلونه ولما فعلوه بنا حتى أسارع اليوم على هذا النوع من ألقاب الشرف الملّون للوجوه ، والمالىء للصناديق بالذهب ، لأولئك المتسولين على عتبات الجاه والسلطة . وبدون شك ، فإن القانون يلزمني الآن بلقبي الجديد : «سبتيما ـ زنوبيا» . ولكن ، كانوا ينادونني سابقاً بـ «زينب» . وجعله والدي قاضي



صورة زنوبيا

التجار ، ورئيس الشرطة ، هيلّينياً «إغريقياً» . عندما أصبح عضواً في مجلس شيوخ تدمر : فالبارحة كان والدي «عمرو» رئيس القوافل ، وسيصبح خلال بضعة أسابيع جدًّاً ، لأمير صغير .

الفتيات اللاتي شاركنني أولى ألعاب طفولتي ، تزوجن في سن الرابعة عشر ، لأنهن من أصل بدوي . وفي تدمر ، تسعى العائلات الثرية إلى تقليد نمط الحياة الرومانية . فليس من المستحب عندهم ، تزويج الفتاة في سن مبكرة .

وطالبيَّ الإقتران بي ، كثيرون ، ولكن عيوبهم كانت كمثل تقدّمهن في السن ، أو العكس ، أي أنه لا يزال شاباً صغيراً ، أو أنه غير ناهج بما فيه الكفاية لنمط الحياة الرومانية ، وجميع من طرقوا بابي ، لم أسأل عن رأي الخاص بهم . وحتى أنني لم أشاهدهم ، لكن مربيتي «مباركة» هي من كانت تنقل إلي الصور الحيّة لعملية المساومة على البضاعة التي كنت أنا موضوعها . ومباركة ، مربيتي ومرضعتي ، ذات شخصية تقليدية ، لكل أنواع التراجيديا ، فهي الأمة المستبدة ، والمتآمرة المضحية التي تمكث موجودة حاضرة عندما ينهار كل شيء وتنقذ درج المشنوقين ، كبقايا نيرون . لم أر قط ، غير وجهها ، ينحني فوق سريري . لقد كرهتها لبضعة أيام عندما علمت بأنها ليست أمي . ولم أستطع كبح جماح إضطهادي لها ، أو تجاوزها . ولحقت بي إلى منزل أوذينة . ولم تناديني بـ «زينب» أو بـ «زنوبيا» ، أو حتى بـ «سبتيما» . بل كانت تناديني دوماً بـ «زبيداء» . وتابعت اضطهادي لها وتعذيبي لها ، حتى تتخيل ، بإنني لم أعد أحبها . وأعلم اليوم ، بأن والدتي ، قد توفيت . في اليوم التالي لولادتي ، ولم يتزوج والدي مذ ذلك التاريخ . وفي تدمر يوجد الكثير من بنات الهوى ، للترفيه عن عجوز مجروح الفؤاد والذي آلى على نفسه ، بعدم تسليم قيادة منزله لامرأة ثانية بعد وفاة زوجته . لم أعاني من أية مضايقات مطلقاً إلا عندما تحيطني عماتي البدويات بالقبلات ودموعهن تنهمر منهن على وجنتي ، بحيث أنني إحتفظت بكراهيتي لهذا النوع من الشراهة . ولم أدر . فيما لو عرفت والدتي ، هل كنت مصبحة أقل إنطواءً على نفسي ، وأسراري ، وهل كنت سأصبح أقل فضولاً وإنتباهاً لتنهدات زوجات العبيد عندنا ؟ أما والدي ، فلم يسبق له أن رفع يده مطلقاً في وجهي ، ولكن لا بد لوالدتي ، لو قيدّ لها العيش بجانبي من أن تصفعني ، سواء أكنت

مستحقة لهذا النوع من التأديب أم لا ، لكنني لكنت غير غافرة لها فعلتها وبالإضافة لذلك ، فإنني جاهلة تماماً بأحوالها . وفهمت بسرعة ، بأنه من غير المستحب ، طرح الأسئلة بشأنها أكانت يافعة ، جميلة ، سمراء ، أم شقراء ؟ ولكن الشيء المؤكد أنها كانت سورية القلب واللسان . وعبثاً كنت أحاول استلهام أجوبة لأسئلتي الكثيرة حولها من القبور البُرجية المتناثرة حول مدينتنا . وحتى مرآتي لم تعطني أجوبة ، لأسئلتي التي كنت أطرحها عليها : وللحقيقة أقول : بأنهم لم يُقلقوا راحة طفولتي مطلقاً بالرغم من الأسئلة التي كانت تتزاحم في مخيلتي ، فمن أين نحن ؟ ومن أين أتينا ؟ وبالتأكيد ، فإن جميع سكان تدمر ، بإمكانهم طرح أسئلة مشابهة . ولقد أخبرني معلمّي يوماً : كورنيليوس وأوليموس ، بأن أبواب مدينتنا العظيمة ، وقصورنا ، ومعابدنا قد أنشأها يوماً ، الآراميون ، وليس كما تدعي اليهود بأن الملك سليمان هو من بنى مدينتنا . وجاء بعدهم الرومان الطغاة ليزرعوا نسرهم الذي سرقوه من أجدادنا السوريين .

وفي اليوم الذي سبق زواجي ، وضع والدي بين يدي كأساً مذهبة . وقال : «خذيها معك إلى منزلك الجديد ، كما حملتها أمك من قبلك إلى منزلها هذا» . كان ذلك كل شيء . ولاحظتُ يديه وقد إرتجفتا قليلاً ، ومن دون شك ، فمرد ذلك إلى فكرة رحيلي غداً . ونظرت إلى الكأس المذهبة ، المرصعة بالأحجار الكريمة النفيسة . ومن دون قصد لم تكن ترى عيناي إلا قسماً من الكأس وقد نقشت حوله الكلمات التالية : «كليوباترة ، ملكة مصر» . ورفعت الكأس . بيد غير ثابتة ولم يكن ذلك بسبب ذكرى سيدة متوفاة ، لم أرها ، ولم أتعرف إليها ، بل ولم أتخيّلها يوماً ، لكن ذلك كان منشأة شعور قوي دافق إعتراني لأول مرة في حياتي . وبدا لي ، وكأنني سمعت صوتاً هاتفاً غامضاً ، فلم أستطع تحويل ناظري عن هذه الهدية الثمينة ، حيث تراءت لي صورة إبتسامة آخر نسل ، من بطليموس «الذي هام في حب كليوباترة في سورية «كيليكية» وتزوجها عام ٤١ ق . م . والذي انتحر في نهاية الأمر ، وانتحرت بعده زوجته» .

وفي ذلك اليوم ، الذي قدم إلي فيه والدي تلك الهدية ، كانت عيوني مثبتة على تلك الكأس الذهبية ، وأعتقد بأنني رأيت إشارة آتية إلي هاتفة بإسمي من ذلك العالم غير المرئي ، والذي يدّعي فيه الكهنة ، والسحرة بأن لهم طريقاً فيه .

سهر الطبيب الإغريقي «تاليتاس» والعجوز مباركة ، على بطني ، بحرص شديد ، وأكدوا ، بأن عليّ البقاء مستلقية على ظهري ، دون حراك . حتى موعد المخاض . الطبيب ومباركة ، لم يرزقا بأطفال ، ولكن همساتهم ، ووشوشاتهم سمحت لي بسماع بعض الكلمات المتبادلة بينهما ، التي فهمت من خلالها ، أن ولادتي ستكون عسيرة ، لذلك كان وجودهم الدائم والمستمر بجانبي ضرورياً . ترى ، هل كانوا يخشون أن يؤول مصيري ، كما آل إليه مصير أمي ؟ أما صحتي ، فلم تكن يوماً بأفضل حال فقد أصبح جسدي ضخماً ، وعيوني بدون تعابير . وبدأت أشبه ، بقرة ضخمة تقاد إلى المسلخ . وكنت أطلب صباح كل يوم ، سلتين من المشمش ، التي كان يقوم والدي بجمعهم لي من بساتينه . وأقمت على هذه الحال لمدة شهرين . وبدا لي أن جنيني قد تشكل ، وأنه حي يرزق ، لأن الطبيب كان يستمع إلى نبضات قلبه . والذي كان يتحرك داخل بطني . بحيث أن عجائز البدو ، أكدّن لي أن حملي مذكر ، ووافقت مباركة على التأكيد بأنني أحمل بداخلي «هرقل صغير» . كانت مباركة ، تستشير يومياً الآلهة في المعابد ، وتنظر فيما لو طارت العصافير عن يمين أو يسار القصر ، وتخلط أنواعاً من البودرة الغريبة ، وتستخلص من كل هذه التجارب البريئة ، بأن مولودي سيكون ذكراً . وقد أعلنت أمامي ، هذا الصباح ، بأنه سيرتفع لوليدي يوماً ما ، تماثيل عظيمة تحت أبواب تدمر حيث سيصبح ملكاً ، عظيماً ، ذا شأن . ولكن هل يمكن القول بأن مصير الرجال يعتمد على طيران الغربان أم يتوافق مع إيمان مسيحيي إنطاكية أكثر من القدر الحاقد الذي حطم أحياناً كثيرة حياة الأبطال ؟ وإنه لمن الحكمة بمكان التفكير ، بأننا مسؤولين دائماً عن أفعالنا ، وأكثر مهارة في سرد الأبيات الثلاثة من شعر «أوڤيد» ، بصوت هامس ، حيث يقول :

«إنه لمن النافع لنا ، أن تكون الآلهة موجودة ،
لكي تخدمنا عندما نغلظ الأيمان ، وبإعتبار أن
هذا الفعل نافع ، فيجب علينا الأيمان بوجودهم» .

ولكن أيمكن تحقيق النبوءة في رفع تمثال لإبني ، لأنني سأبقى ممددة خلال شهرين ؟ وتبعاً لنصيحة معلمي «أوليموس« بدأت في خداع ضجري بطريقة سرد ذكريات طفولتي . وقد قيل لي بأنه في روما ، وممفيس والإسكندرية أو في بيرغام

تمضي معظم نساء الطبقة الموسورة أوقاتها في تخضيب وجوههن بالألوان أو في تأليف الشعر والتردد على الحفلات . ولم يختلف تعليمي عن تعليم بنات تلك الطبقات فمنذ سن السابعة كنت أعرف صبغ الأحجار بالحبر وتثليم نهايات الأقلام وأحببت النظر في المرآة ووضع الظلال على أجفاني بقليل من الرماد وتنوايع تصفيف شعري ورمي القرص وإمتطاء الجياد والجمال البيضاء ، وأعتقد بأني قد قرأت لجميع الكتاب الإغريق أو اللاتين الجيدين ، وفي هذه النقطة إدعى «أوليموس» بأنني قد أصبحت عالمة بالأمور أكثر من الإمبراطورة السورية العظيمة «جوليا دومنا» . لم أتخيل يوماً بأنني قادرة على كتابة الشعر إلا في ذلك النهار الذي استحممت فيه مع صديقتي عائشة فقد ألفت أغنية خفيفة لإنتصار الجسد الرائع غير المكتمل . ولكن سرعان ما مزّقت هذا الشعر السيء . وقد كتبت في السنة التي سبقت زواجي قصة إغريقية قصيرة حيث كانت تختصر في محتواها دروس العزيز «أوليموس» وحيث كانت الكتابة بالنسبة لي تمرين جيد على أسلوب الكتابة الذي لا أزال أحتفظ به في مكتبتي .

في مدينتنا الرائعة نستطيع سماع جميع أنواع اللغات علماً بأننا لا نعرف معظمها وإننا نستطيع التفاهم بشكل جيد مع سكان فلسطين كما نتفاهم مع سكان «شاراسن» وكذلك الحال بالنسبة لسكان أنطاكية كما هي الحال لسكان بترا وكذلك الحال بالنسبة لسكان شرقي النهر العظيم «الفرات» فليس هناك من اختلاف كبير ما بين الآرامي والسوري والعربي . وضمن عائلتنا ، وهذا ما يطلقه والدي على وسطنا ، فإننا نتفاخر بمعرفة اللغات الأجنبية كالأغريقية واللاتينية .

ولا يجب علي أن أنسى ، عندما بلغت الخامسة من عمري إذ جاءني مدرّس سوري يدعى «مولاق» ، وأعطاني الدروس الأولى للقراءة ، عندما جعلني ألعب بألواح من الطين المشوي الصغير رسمت عليها الأحرف بشكل نافر . وبإعتبار أن «مولاق» كان غير قادر على شرح ما يسميه الحرف الصامت المتبوع بحرف صوتي الذي يمكنه أن يشكل مقطعاً جديداً ، فقد أتلفت جميع الألواح . وحدث لي ، أن رميتها ذات مرة على رأسه ، فمنذ نعومة أظفاري ، لم أكن أصدق كل ما كان يقال لي ، قبل أن أفهمه وأقتنع به .

ولمعت فكرة في مخيلة عجوزي «مباركة» يوماً ، فصنعت لي الأحرف الأبجدية ، على شاكلة قطع من الحلوى كان عمل مباركة الجاهلة بالأحرف والقراءة ، قد ساعدني على إلتهام الأحرف والقراءة بسرعة كبيرة .

ولا أزال حتى اليوم ، أتذكر طعم الحلوى اللذيذة المصنوعة مع اللوز . والتي نسميها «قرون الغزال» وتحرض لدي شهية قوية لقراءات جديدة .

عندما رويت هذه الحادثة بعد عدة سنوات على مسامع أوليموس الذي أصبح معلمي في اللغة الإغريقية قال لي ضاحكاً بأننا لا نتعلم فقط من خلال الكتب ، فالعجوز مباركة الجاهلة في العلوم ، لهي عالمة بحق بفنون الحياة .

وقبل أن أتعلم الكتابة ، رسمت المنازل ، والأشخاص ، والعصافير ، وكنت أخطهم بشكل مقلوب ، فالرأس في الأسفل ونحو السابعة من عمري ، أعدتهم إلى وضعهم الطبيعي . ولم أفهم أبداً ، رسمي ذاك ، بتلك الحالة المقلوبة ، وإنني لأتساءل اليوم عن كنه أفضل معنىً لرسومي تلك ، أهي الحقيقة بعريها ! فالأطفال لهم نظرتهم إلى الحقيقة المجردة وإلى الأشياء ، والشخصيات العظيمة ، عندما يعبّرون برعونتهم وعدم مهارتهم . كانت دروسي في الكتابة ، عسيرة الإنجاز ، لأنه كان عليّ أن أتعلم ، إعادة إنتاج الشخصيات الإغريقية ، والآرامية ، واللاتينية ، بيد صغيرة مرتجفة يقودها العجوز السوري ، وهو ينفث في وجهي ، لهاثه غير المحتمل ، الذي تفوح منه رائحة البصل الأحمر الأنطاكي . والذي كان يمتعني هو قص ورق البردى ، وتقليم نهايات القصب ، ورميها في طبق مليء بكرات صمغية ممزوجة بالشحار الأسود .

وإعتدت أن أحضر بنفسي ، حبري ، وتشذيب أقلامي القصبية بعناية فائقة ، كالرسام الذي يخلط ألوانه أو النحات المشذّب لقطعته المرمرية ، هو قبل كل شيء ، فنان ، والأداة ما هي إلا امتداد لليد ، التي يسيل منها الفكر .

جاءنا ، أساتذة في قواعد اللغات ، من سورية ، ومن آسيا الصغرى ، وإفتتحوا مدارس لهم في تدمر . ولاقت مدارسهم إقبالاً كبيراً من الأولاد والفتيات ، وإنه لمن الضروري معرفة القراءة ، والكتابة ، والحساب ، في مدينة تعج بحركة تجارية نشطة كتدمر ، للظهور بمظهر العارف ، والتبادل التجاري الحارِ في المدينة يدفع الأهل ، لتسجيل أبنائهم في المدارس لأن كل فرد يحلم في أن

يصبح يوماً ثرياً جداً ، لبناء قصر له من الرخام ، وعمل تمثال لنفسه .

وغالباً ، ما لمت ذاتي ، لإضطراري إلى تحمل المعاناة وحيدة لدروس العجوز «مولاق» ، بينما يتعلم بقية الأطفال الذين هم في مثل عمري سوية العناصر الأساسية للعلوم ويغنون بإيقاع منتظم ، يصاحبهم الناي ، وأسماء الأحرف الأبجدية ، وأوضاع زوايا الانحراف . ولا شك بأنهم أضاعوا الكثير من الوقت ، وتلقوا العديد من ضربات العصي على أصابعهم ، ولكن لدى خروجهم من المدرسة ينقدفع الصبية والفتيات إلى اللعب بحجر القدم «وهو لعب الأولاد ، في قفزهم على قدم واحدة يدفعون بها حجراً لإدخاله ضمن أقسام مربع مرسوم على الأرض» : فيَ الشوارع ، ويتدافعون ضاحكين ، ويجرون ناحية الأبواب للتفرّج على ألعاب الكشتبان التي لا تنتهي بين العرب الأذكياء ، والأغريق ذوي الأيدي سريعة الحركة . لم يأمن والدي يوماً ، في تركي وحيدة لأمضي إلى هذه الألعاب ، لأنه كان يعتبر هذه الفئة من الناس ، أدنى مقاماً من عبيدة جيدي الصحة . وحيث أن طباعة وأخلاقة ، تختصر بهزة من الرأس ، التي تعني مقولات طويلة ، والحقيقة أن عضو مجلس الشيوخ «عمرو» كانت لديه الإمكانيات المادية لإحضار مدرّس إلى إبنته «زنوبيا» ولكن المعلم كانت تنقصه الشهرة والنبوغ .

لقد ربحت معرفة القراءة والكتابة بأسرع ممن هم في مثل سني ، الذين يعيشون في تدمر ، ولكني خسرت السباقات الجنونية مع أترابي ، واللعب ، والضحكات ، حيث كان صداها هو الشيء الوحيد الذي يصل عبر الأثير إلى مسامعي . وفي سن العاشرة ، كنت أحفظ فهرساً طويلاً للكلمات البذيئة ، وأعرف بالضبط ما يقابلها في اللغات الاغريقية ، واللاتينية ، والآرامية . ولم أكن بحاجة للتردد على المدارس لتعلمها ، فقد تكفلت الريح بذلك . وحيث يعيش الأهل في أوهامهم عن طفلهم ، تكون البراءة ، واليقين العظيم ، هما العنصرين الأساسيين لتوليد الفرح السري للطفل .

وعندما إنتهت مهمة العجوز «مولاق» ترك مكانه لمدرس اللاتينية «كورنيليوس» ، الذي جعلته كبش فدائي ومعلم آخر للاغريقية ، هو العزيز «أوليموس»

وبلغت الاثنتي عشرة سنة ، وهو السن الذي يسمح للمرء بتمييز أبطال

الملاحم والأساطير ، فتكون المشاركة في مغامراتهم ، لاعنين ، ساخطين على أعدائهم ، ومقاسميهم في حبهم ، وكنت أرتجف خوفاً على حياتهم ، بالرغم من علمي بأنهم خالدون ، ألم يكن أدونيس السوري ، وهرقل من الأموات الذين بعثوا أحياء ثانية ؟ وكذلك أوليس ، وتيزيه ، وإينيه ، وحتى المسيح عيسى أفلم يعودوا إلى الحياة ثانية بعد إقامة قصيرة في جهنم ؟ فالإلياذة والأوديسة ، والمتامورفوز «التحوّل» والتراجيديا الأغريقية ، والأناجيل ، أليست جميعها التي تروي لنا دائماً عن العجائب ؟

ومن هذه الأساطير ، فقد فضلت «الأينييد» وليس مرد ذلك إلى أنني أفضل الشعر اللاتيني الفيرجيلي ، ولكن لأن يأس «ديدون» ، كان يسرّع من دقات قلبي ، وأجد فيها الفرصة المناسبة لألهب فيها مزاج معلمي «كورنيليوس» . وكانت صورة «إينيه» وهو يحمل أبيه العجوز على كتفيه هارباً من طروادة المخرّبة ، تسحرني ، وتصبح متعتي في قمتها ، عندما ينزل البطل على شواطىء «قرطاجة» حيث تستقبله الملكة ، وهي إمبراطورة صور القديمة . إمرأة قاسية وجميلة ، وقد عرفت من خلال تجربتها معنى التعاسة ، حيث كنت أشعر بقربي منها وكأن في عروقي ، نبض دم «فينيقي» يسيل في شراييني . وفي إحدى ليالي القنص ، سقطت «ديدون» بين ذراعي إينيه ، وأعتقد العاشقان ، أنهما قد عرفا الحب فتبادلا القسم ، والهدايا ، وشربا النبيذ حتى الثمالة وأعلنا ، أن حياتهما قد أصبحت فصاعداً موّثقة . وبإعادتي لقراءتها عدة مرات ، فهمت نهايتها السخيفة ولكني أخذت في اللعبة ، فترك الإعتقاد ، بأن الكهنة قد كذبوا عندما ثبتوا في إيطاليا ، موعداً للسفر الطويل ، ليقوم به الطروادي وكنت أسعد . عندما أفكر بأن روما غير قابلة للدمار .

«ويسهر حلمي حتى لحظة تبخره فجأة عندما يقرر «إينيه» السفر ، ولكن لا الدموع ولا القبلات ولا التوسلات تثنيه عن عزمه ، فيصم أذنيه عن تضرعات حبيبته «ديدون» ، وينشر قلاع السفينة للإبحار» . ولطالما أدهشتني الشتائم ، والغضب المزبد الصادر عن ملكة «قرطاجة» ، فلم أكن أعلم بعد أن النساء ، سواسية أكن بنات عبيد أم بنات ملوك ، يصبحن مبتذلين ، عندما يتركهن محبوبهن . وكنت أستمع بشغف لمعلمي ، وهو يقّطع الشعر المقول ، من ديدون

الغاضبة ، ويستبق الأحداث معلناً أن الآلهة ستنتقم من الهارب بذبح نسله وغمرني فرح غامض ، طاف في أنحاء بطني . وأثناء ذلك ، عندما همت الملكة سيئة الحظ بالتقدم نحو المحرقة ، حيث وضعت فيها سرير أعراسها الناقصة ، كنت آمل ، أن تعدل عن فكرتها ، وكنت أرغب بجموح أن أمحي ما كتبه فرجيل ، وأرمي شعره المزوّر وأن أخنق صدى الهتافات ، لإعطاء التاريخ درساً جديداً . ولكن لم يكن في اليد حيلة . فقد كان مخطوطاً في الكتاب «فقد صعدت الملكة بكل كبرياء ، وعزة نفس إلى المحرقة التي أمرت بإعدادها ، وأشعلتها وبعد لحظات صمت أمام النيران المتزاحمة ، تطعن قلبها ، وتهوي وسط ألسنة اللهب الحمراء الجائعة». كنت صغيرة جداً لمعرفة أن الرجال ماهرين في الإحتماء خلف ما يسمونه «الواجب» ، وإختلاق الأعذار والأسباب البطولية ، لقطع علاقات حبهم المتعبة ولقد أعجبت بـ «إينيه» بقدر ما كرهته ، ولكنه باعتباره المنتصر في هذه المغامرة ، لم أذرف الدمع على رماد الساذجة كثيراً «ديدون» . لقد كنت أفضل الرحيل مع بطلي على الشواطىء الإيطالية ، وأن أصاحبه في هبوطه إلى جهنم . وهنا إستمعت إلى العجوز «أنكيز» الذي تنبأ لولده ، بنسله الذي سيزرع الرعب والخوف في العالم . ووجوه تترى : ملوك ، وقناصل ، وجنرالات مهزومين ومنتصرين ، قيصر ، بومبي ، وأوغست . . . ، كلها وجوه كريهة ، لأنها لم تكن تخبىء وراء أقنعتها الذهبية إلا النهب ، والمجازر ، والدخان ، والسرقة ، والجريمة ، فجميع هذه الحروب التي أرادها هؤلاء الرجال ، لم تكن إلا ستاراً ، للإغتناء وبما إصطلح عليه المؤرخون بعبارة : إفراغ الشرق من كنوزه .

وعند وصولي إلى هذا المقطع الشعري من «الإينييد» عرفت بأن نظرتي ستقسو ، وانضغطت شفتاي ولم يتنبه معلمي لما مرّ بي من مشاعر فأعلن بصوت مرتجف : «تذكر ، أيها الروماني ، بأن قدرك ، هو ثني الشعوب تحت قانونك» لقد كان هذا القول هو كل ما إستطاع كورنيليوس أن يستخلصه من «الإينييد» . ألا يدفع له والدي ، ليعلمني عظمة وفضائل الرومانيين كـ : فيرجيل ، الذي علفة «أوكتفا ـ أوغستا» بالذهب ، لكي يرسخ في ذاكرة الرومان القناعة بعظمتهم ؟

سلاح خفيف ، وخائن ، ذو رأس مدبب لا مثيل له ، لتنفيس المجد المؤكد ، الذي تحديته بنوع من التنظيم والترتيب الطبيعي • كانت وقاحة إبتسامتي

تقطع التشخيص : «وهو إضفاء للصفات البشرية على الحيوان والنبات والجماد» الذي يلتذ به معلمي . مسكين كورنيليوس ! فهو ينحدر من قطيع من العبيد الذين نقلوا منذ وقت من «بيتيني» ، على متن مراكب ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف إلى الامبراطورية ، وهو يشعر بأنه أكثر رومانية ، من أيّ وارث من أقدم سكان «لاتيوم» . وتختلط في عينيه الصور ، والأكاذيب المشوشة ، وتظهر جلية من خلال نظراته المرطبة بالفخار : فالذئاب ، وأوز الكابيتول ، وصخرة التاربيين ، وقانون الإثنتي عشرة طاولة ومحراث السينستناتوس ، والحروب الضروس ، وماريوس وسيلّلا ، وأم الأغريق ، وسفن كليوباترة الهاجرة لمعركة «أكتيوم» ، وتراجان الذي زج خيّالته النوميدين على ضفاف نهر الدانوب وعلى ضفاف نهر الفرات . . .

لم يكن يهتم إلا قليلاً بوالديه البعيدين ، المثقلين بالسلاسل المعانين من جلد السياط على أجسادهم العارية ، أثناء تعذيبهم في إدارة حجر الرحى ، فعذاباتهم لم تكن تعنيه شيئاً ، والـ «بيتيني» لم تكن تثير عنده إلا رجلاً في مركز القنصلية ، متنعم في حياته ، ومحب للحدائق والكافيار ، والكتب ، والشبان اليافعين .

يحفظ كورنيليوس بضعة آلاف من أبيات الشعر اللاتيني أو الأغريقي ، وهو مجار للناس بدون أن يشك ، بأنه من السهل جداً تقليد الذكاء ، بواسطة الذاكرة . وأعتقه نخاسه من العبودية ، فأصبح كورنيليوس أستاذ القواعد ، وبدأ في بيع معارفه المدرسية ، لآباء العائلات الغنية ، وأخذ على محمل الحقيقة كل ما تلقاه من معارف ، وأحتفظ بإعجاب لا يتزحزح لكل الرجالات المشهورين . وعدد هؤلاء كثير جداً ، بحيث أنني شككت بكورنيليوس الذي لا بد أنه حلم بإكتشاف خياله على الترس حين تخيّل السيكلوب في تاريخ روما المطبوع على السبيكة . وبالرغم من إنحداره إلى شروط العبيد ، فإن والديه لم يشاركا في أحداث عظام لتكليل هامات بعض القياصرة بالنصر . لم يتوجب على معلمي الإستزادة بالقول ، للإعلان عن مواطنية الرومانية ، وأفكاره حول الإمبراطورية . كان ذلك حقه . فمجد الانتصار ، لا يظهر على جلد المنتصر ، ولا على ذكرياته . وبالنسبة لي ، فإن روما ، لم تكن حماس «تيث ـ ليف» ،

ولا غنائية فيرجيل ، بل هي ظلال الجيوش ، السائرة لمسافات طويلة ، والرمح بالقبضة على أبواب المعسكرات المنشأة خلف أسوار تدمر .

هذا الشعور بالثورة ، حرصت عليه بعيداً عن أسماع والدي ، فقد كنت أعلم مقدار فخاره ، بكونه عضواً في مجتمعنا الصغير المحلي ، الذي نسميه مجلس الشيوخ ، وبممارسته في مدينتنا لقيادة يفتز بها ، ويعتز بكونه قد أصبح أحد معاوني الأمير . وأحببته كثيراً لدرجة الصفح عنه لكونه دعي لحضور أحد الاحتفالات التي لا تعنينا بشيء ، فكنت أصغي إليه بطريقة ظاهرية ، وهو يروي بإعتزاز القصص التي لا تنتهي ، بدون أن يسهو عن الإشارة إلى المكان الذي كان مخصصاً له . والشيء الوحيد الذي كان يدعوني إلى غفران زهوة الطفولي ، المتطابق تماماً مع إنشغاله في مهنته ، وحسه المرهف للنقود هو حاجتي الماسة إلى صورة البطل ، والإعجاب بها وكانت هذه الصورة تتبدل برفق في كل مرة كان يصحبني فيها معه إلى الصحراء على طريق القوافل الطويل .

ومع كورنيليوس . لم أكن بحاجة للعب دور كوميديا التسامح ولا مداهنات الإحترام . بل أعتقد بأني كنت أثأر لنفسي منه ، عندما يردد على مسامعي وبدون كلل أو ملل بأني قد ولدت رومانية ، بفضل رعاية المرسوم الذي أصدره الإمبراطور السوري «كركلاّ» . مانحاً فيه حق المواطنية لكل قاطن في حدود الامبراطورية .

وبإحاطتي لمعلم القواعد بسخرياتي وهزئي . كنت أثبت شروط الاستعباد . وشروط العتق من نير العبودية . وأما القادرين على دفع الضرائب . ودفع الهدايا لحاكم إنطاكية . فهم معفيين من التجنيد ، وأما الفقراء ، والمضطهدين . فيحظون بشرف الموت تحت جناح النسر الروماني . لقد أصبحت مواطناً رومانياً يا «بيتيني» ، وأنا أبقى عربية في نظر القواد الرومانيين اللذين يتباهون بسيوفهم الطويلة تحت أبوابنا ، وبالرغم من معارفك يا كورنيليوس ، وبالرغم من الألقاب التي يحملها والدي ، فإننا نظل في أعينهم برابرة .

ـ كان كورنيليوس ملماً أيضاً ، بتعليمي التاريخ . وهو أخرق بما فيه الكفاية ليفهم بأن الماضي ليس له من معنى آخر غير الذي نعطيه له ، كان يجتهد ، ليظهر لي روما بصورة خطيرة وعظيمة فـ«**هوراتيوس ـ كوكل**» دافع وحيداً عن مدخل

الجسر . وتراجع أصدقائه القهقرى ليحتموا وراءه ، و«موسيوس ـ سكافولا» وضع يده على الجمر القرمزي .

ـ ليعقابها ، لأنها أخطأت عدواً ، وعاد «روغيليوس» بإرادته الى قرطاجة التي كانت تنتظره لحكم صدر بحقه لأنه التزم بوعد أعطاه الى القاضي ، ولجأت السيدة «لوكريس» الى طعن نفسها أمام زوجها ووالدها لأنها إغتصبت على غير إرادة منها ، وعمدت إمرأة كاتون الى اعطاء ثديها الى طفل من طبقة العبيد ورفضت «كورنيلي» الزواج المقترح عليها من قبل أمير وعاهل ليبيا . وذلك لأنها فضلت بقائها أرملة روماني عن أن تصبح زوجة ملك فينيقي . وبالنسبة لمعلمي فإن الأباطرة ، ما هم إلا سلالة آلهة ، وأعضاء مجلس شيوخ روما ، هم دوماً قانونيين . لا يخطئون ، وكذلك جنرالات روما ، فإنهم دوماً أذكياء . ولا يحاول أحد من طبقة الأشراف أبداً ، الإنتصار بالدسيسة والخداع على الحاكم ، إلا للدفاع عن الجمهورية ، وأصبحت النساء تمثل ما دعي «بدون ضحك» الفضائل الرومانية ، ويحتسي جميع الفلاحين ، النبيذ . بصحة الآلهة .

ـ كانت شياطيني المألوفة لدي ، تمنعني من الوثوق ، وتصديق هذه الحكايا . وكم وددت في كثير من الأحيان نقد جميع ما أرادوه لي علْماً وعَلماً . عندمـا كانت تتناهى إلى مسامعي الأصوات الرتيبة الموزونة لكتيبة الخيالة ، عائدة من بعض أعمالها وماضيه من أمام منزلنا .

ـ كان الغضب يقفز الى قلبي ، لإلباسهم لعقلي اللبوس الروماني ، وبالتالي تحمل وقبول وجود جيش أجنبي ، يقوده رؤساء ، يجيدون لعب أدوار الكوميديا للنظام والعدالة والكياسة ، لكي يكتموا بشكل أفضل الإحتقار الذي يكنونة لنا من أعالي أوهام التفوق ، متقلدين القبعات المعدنية المزينة بالريش . ومهما حاول الكثيرون تزوير التاريخ فان معلمي قد أعطاني الكثير ، حتى أستطيع الثناء على الاغريق الذين جاؤونا يوماً . بعد وفاة الاسكندر الكبير . واستقروا في أرضنا ، فأخذوا منا علومنا ، كما أعطونا علومهم ، وكان تماذج عظيم في الثقافات . فأنشئت مدن جديدة ، ومعان جديدة ومسارح ، وأقواس نصر ، ووصلنا الى أبعد نقطة من الشرق بفضل هذا التمازج . ولم يطأ أرضنا الرومان إلا بعد ثلاثة قرون من ذلك التاريخ المجيد فوصلوا بجيوشهم وآلات حروبهم المعدة للدمار ، ومعهم

القناصل ، والحكام . والجمهوريين والسارقين للكنوز ، والقتلة ، ومتعهدي التماثيل ، ورعبهم الذي لا يزال يّعضهم في البطن ، عندما يرون فرسان «**البارت**» يجولون عند خط الافق وقت مغيب الشمس .

فهل يجب الاعتراف لهم بالفضل ، لأنهم أنشأوا تماثيلهم العظيمة ، عند مداخل مدينتنا ، وفتحهم داخل الصحراء لورشات طرق . ذاهبة الى المدن المقدسة دمشق ، وحمص ، وانطاكية ، ودورا ـ أوروبوس ؟ لقد أصبحت تدمر . الجسم الرئيس في عضد نظام دفاعهم وهذه الطرق ، لا تخدم إلا عربات حروبهم ، الذاهبة الى تموين مراكز جيوشهم ، على طول حدود النهر العظيم «**الفرات**» ـ ولاشك ، بأن عدداً كبيراً من الأباطرة قد كلف نفسه عناء ، إحضار المهندسين ، والنحاتين الى بلادنا ، لإنشاء معابد جديدة ، ولرفع عمود ضخم ، وتزيين ساحة من الساحات ؟ ولكن كل هذا ، لم يكن إلا حركة مسرحية ، حيث أعتاد الملوك والامراء هاجس فيهم حفر أسمائهم على الحجارة . وعندما يتبجح أحدهم أمامي عن مزايا «**هادريان**» أو «**مارك ـ أوريل**» فإنني لا أنسى ، تجنيدهم لآلاف من أبناء شعبنا لإرسالهم بعيداً على ضفاف نهر الدانوب . ليموتوا هناك على تخوم الإمبراطورية المهترئة ، والمهددة . فما هي الخدمات التي قدموها لنا ، وما هو كرمهم الذي فاضو به علينا بدون حساب ، إلا اذا كان تقييد الآلاف بالسلاسل من أبناء تدمر الشمس ، لخيلاء لقب نبيل أو لوهم قيادة أو لبلاهة وجهالة شرف رئيس بلدية ؟ فالجحود ، ما هو إلا الصيغة المحوّرة للإنحطاط . وإنني لألقيه بعيداً .

ـ لقد كنت جد صغيرة لمعرفة قيمة الصمت ، والصبر لحين الفرصة المناسبة ، وقوية الشكيمة بما فيه الكفاية لاسيطر على العنفوان الذي يهزني ، واكتشفت بأن عدم الاحترام في الثبات ، لهو أفضل سلاح للأطفال تجاه مشاهد الخنوع . وكان يحدث لي ، أن كثيراً ما حسدت الأبطال على مصيرهم المصعوق ، والرغبة والإرادة في توجيه خطى العجوز «**أوديب**» نحو معبد العمود ، لتهدأة القدر . لقد كان دوراً جميلاً ، للصغيرة «**أنتيغون**» العربية ، ذات الشعر الأسود الفاحم .

وأما اذا كانت الآلهة قد إلتهمت والدي في ظلمات العالم الآخر ، فإنه كان سيكون لدي ذات الشجاعة والإخلاص لتلك البطلة ، ولكن حتى الآلهة لم تعد موجودة في مخيلة الشعراء ، لقد إنتهى دور والدي في التجاوز على شخصيتي ، ولم أعد أستطيع ستر ابتسامتي الساخرة ، عندما أراه مزهواً بثوبه السيناتوري لاعضاء مجلس الشيوخ . فلقد إستنشقت الذل المفرح ، لإرضاء نصب الراية الارجوانية الملصقة بصدر الثوب الأبيض الطويل .

ـ «ذكية وحاذقة ، كما هم الأغريق في عيشهم» ، هكذا ضمنّي أوليموس منذ لقاؤنا الأول ، في إدعاءه العلم . وقبل وصوله الى تدمر ، كان قد تردد على المدارس الجيدة وعلّم فيها من بيرغام الى ممفيس ، والإسكندرية وحتى روما وأخيراً إستقربه المقام في انطاكية ، حيث وصلت شهرته الى مسامع والدي ، فأرسل في طلبه . طويل ، وعصبي وكأنه واحد من كلاب صيدنا ، أما وجهه فقد خطت عليه السنون آثارها ، فالجبهة عارية ، حيث تنعقد فوقها بعض من خصلات شعره التي لابد أنها كانت شقراء . كان يضع على البشرة ، نظراته الزرقاء ، الممتلئة ببعض القطع الكريستالية على هيئة علامة استفهام . وعلى نقيض كورنيليوس الذي يعلم كل شيء ، ولا يفقه شيئاً ، كان أوليموس يمسك بعلمه خلف شك أنيق ، ويفهم كل شيء ، ويجعل الآخرين يفهمون كل شيء ، ولكنه لا يحتقر لا تخفيض الصوت ، ولا سفاهة الصيغة الكلامية عندما يلقي محاضراته على الناس الأصعب إدراكاً .

والحقيقة أقول ، أنه لم يصطدم مع كورنيليوس على صعيد الخطابة ، حيث كان دائماً هو المهزوم ، ولم يهجو أحداً ، ولم يقلد أجوبة الكتّاب بإفراط ، وكان يعتبر أن الأمثال ما هي إلا حكمة البلهاء .

وكجميع الأطفال ، فقد كنت فتاة صغيرة رزينة ، تأخذ الأمور على محمل الجد ، كالآلهة ، ووالدي ، والشمس والنجوم . واللعُبْ ، والناس ذوي اللباس الموحد ، وكل ما هو مدون في بطون الكتب ، وما يتفوه به الرجال الكبار . إنني أدين **«لأوليموس»** . بفك العقد التي كانت تأسرني ، وتعليمه لي ، كيفية الإبتسام أو الشك في الآلهة والناس التي علموني تبجيلها واحترامها ، وبالتالي خشيتها ، هذه الجمل بقيت بالنسبة لي بذات المعنى حتى لحظة بلوغي سن الرشد .

ـ فمعلمي في الأغريقية ، لم يطفىء أمامي أشعة النجوم التي في السماء ، بل جعلني أكتشفها ، بابتسامة متواطئة وكذلك الاكتشاف الذي صوّرنا فيه الآلهة على هيئتنا وأن جبل «**الأولمب**» ما هو إلا ابتداع من مخيلة الشعراء لفتن مخيلة البشر ، ولاعطاء الذريعة للملوك . لزرع الرعب بين أتباعهم . لقد كنت كبيرة جداً لكي أعتقد بوجود مملكة تحت الأرض ، يخترقها نهر تعيش فيه ضفادع ضخمة ذات لون أسود ، والقبول بفكرة حارس مملكة الموت الذي ينقل على مركبة آلاف الموتى ، من ضفة النهر الى ضفته الأخرى .

وبرفقة أوليموس ، إجتزت ، بدون وهم عتبة الحدود الصعبة للطفولة المحمية ، وفي أحد الأيام . أركنت في زاوية مهملة الآلهة ، وألعابي . ولم أعد مذ ذلك الى لعبي . ولا الى اللعب بالكرات الفخارية الطرية ، ولكن ومع حلول الليل ، كانت العيون مثبتة على صفحة السماء «فأتخيل الدراما ، والكوميديا ، اللتان تلعبان من ما وراء النجوم» . وكنت أضحك وحيدة ، لفكرة أن إله الزمان «**ساتورن**» يقطع نسل «**أورانوس**» ويرميهم الى البحر ، حيث تولد الفورة ، وسط الزبد الدموعي . وعندما أهم بالنوم ، كنت أختلق الدسائس والشقاقات التي تقض مضاجع حياة «**زوس**» . الذي حكم عليه بالعيش مع عائلة ، غير محدودة العدد ، وحيث يمضي أعضائها ، جلّ وقتهم في الغيرة والحسد ، والتقاتل ، وخيانة بعضهم بعضاً ، وبالضرب ، وهم في مأمن من القصاص لأنهم خالدون ، وكل شيء كان حسناً بالنسبة لهذا الـ«**زوس**» فنسائه ، وبناته ، وأخواته ، والآلهة ، والحوريات أو بكل بساطة ، الفانين ، الذين كان يفاجئهم بتحوله الى ثور أو الى أوزة أو عنزة ، أو على هيئة مطر من ذهب وبإعتباره محب أيضاً للشبان ، فقد كان يتحول الى نسر ليحمل شاباً الى قبة السماء، التي يقطنها .

ـ ولقد رأيت «**أبولون**» . يخترق السماء . بعربته الذهبية وأفروديت وهي تبكي موت **أدونيس** . محوّلة كل دمعة من دموعها الى زهرة من شقائق النعمان ، وديونيزوس وهو يركض خلف الفتيات . نصف عار ، وعطارد وهو يزيّف أثقال الميزان ، و «**جونون**» وهو يزهو بمآثره ، والوليد الجديد هيراكليس وهو يعّض ثدي أمه «**جونون**» بشغف كبير لدرجة أن لبنها فاض في السماء ، وشكلّ المجرة .

ـ ولأن البشر ، تشكل آلهتها على هيئة صورتها ، فقد بحثت في تدمر عمن يمكن أن يخدم كموديل لهيئة إله ، وزوس ليس بإمكانه إلا أن يكون الحاكم الروماني الذي يسجد الجميع في حضرته .

وأما «دينيزوس» ، فليس إلا ذلك الأغريقي الذي جاء من انطاكية وافتتح خمارة في أحد أحياء تدمر ، حيث منعت من الاقتراب من الحي كله . والمريخ الجميل ليس إلا أولئك الجنود ، أو ليس الجنود جميلي الطلعة ؟ الذين ينظرون اليّ بعيون محتقنة بالدم ، وعطارد السوري ، الذي يدّعي دراسته للطب ، ويبيع مقابل الذهب ، بودرة للإجهاض . وأفروديت ، وجونون فهناك الكثير من النساء الجميلات في تدمر . ولكن الحظ لم يحالفني في الإلتقاء ، بتعيس الحظ أورانوس ، ولكني أعلم جيداً أن هناك الكثير من الجنود الرومان الذين عانوا من الجوع ، لأنهم أرادو نقل المعارك الى الضفة الأخرى لنهر الفرات . وكان هذا التفكير يمتعني ، فأين يكمن الواقع ، وأين يكمن الخيال ؟

فإذا كانت الآلهة ، لا توجد حقيقة إلا كما يبتدعها الناس ، فالآلهة إذاً غير حقيقية . ولكن هل السماء فارغة ؟ فبعد أن داعبت صدري التعب ، المرتجف ، ثقلت أجفاني وارتميت على الفراش والكرى يغلبني وأنا أقول ، بدون أن أعتقد ، بأن هناك خلف نجمة صغيرة تسهر «مينيرڤا» عليّ . وهي معتمرة خوذتها ، وتمسك بيدها رمحها الذهبي .

ـ كان «أوليموس» يقرىء لي ، مقاطع من الإلياذة والأوديسة ولكنه لم يجبرني يوماً على حفظها عن ظهر قلب . ولم يعد يؤكد . ويلحّ على النثر الهوميري .

وتجربته كمعلم قديم ، جعلته يشك بالطلاب الجيدين . وبالنسبة لي ، لم يكن لدي أي فارق ما بين أبطال هومير وقاطني الأولمب ، فهم لم يوجدوا قط إلا في خيال شاعر منشد . وكنت أسبغ عليهم كثيراً من الصلابة ، والحقيقة بأكثر من الأشخاص الذين يعيشون حولي ، ما عدا «أوليموس» الذي كان بصوته الموسيقي ، ويديه الماهرتان ، يعيدون خلق الكلمات في الفراغ ، مع حركات الشخصيات التي تخيّلها فيما مضى شاعر أعمى : فشخصية آشيل ، وآجاكس ، وهيكتور ، وباريس ، وأغامنون وباتروكل . . . . وهيلين الجميلة ، التي لم تشأ

حدوث ما حدث . وإنني ألاحظ اليوم ، بأن ما يشدّني ويمتعّني ، أولئك الأشخاص عديمي الشفقة ، والعنيفين ، ومشوبي العاطفة والماكرين .

لقد أحببت خيانة كاليبسو ، ومكائد أوليس ، وسخرت من إخلاص بينيلوب ، ومصيبة مينيلاس ، ودروس نيستور ، ذلك العجوز المتباة ، والثرثار ، ولقد فكرت بأنه كان لزاماً على «نوسيكا وتيليماك» أن يتزوجا ، لأجل أن يتركوا للشباب الناشيء ، مثالاً يحتذي في الأدب والأخلاق ، والبلاهات في حديقة الزواج الضيقة ، بدون عواصف .

وفي سن الرابعة عشر ، نضج صدري ، وإستدار كإمرأة وبدأت أتعب من الأبطال . فهومير ، أخذ يضجرني ، كفرجيل . وكانت الفتيات اللاتي تزوجن باكراً في مثل سني يأتينني ، ويروين لي ما يفعله رجالهن بهن . وبالرغم من أن العادات والتقاليد لا تزال سارية المفعول في تدمر ، وتطبّق بشكل حرفي فإن هؤلاء الفتيات لم يكن يمضين أيامهن في منازلهن ، جالسات ، بل منكبات على مهنة الحياكة وحولهن خادماتهن ، ويعملن بصمت ، بانتظار إستحقاقهن يوماً ما ، عندما يحفر على قبورهن الكلمات التالية :

«هنا ، ترقد إمرأة ، لم تعرف الثياب ، ولا الذهب . لقد أحبت فقط زوجها ، والفضيلة» . ونساء الشرق ، كله ، كن دائماً أحراراً ، فيخرجن لوحدهن ويلبسن كما يرغبن ، ويترددون على معاهد التعليم ، ويتحدثن إلى الصبية والفتيان ، ويشاركن أزواجهن بأفراحهم وأتراحهم ، وطموحاتهم . والوضع يختلف في الصحراء وبين قبائل البدو ، فعلى المرأة هناك أن تستر وجهها وتنجب الأطفال ، وتقوم بعمل طحن الحبوب وصنع الزبدة . وبالنسبة لـ : «سمبروينا» التي كانت روح المؤامرة لـ : «كاتلينا» أو «أغريين» التي قدمت لزوجها طبق العشاء ، المحضر من الفطر السام . وذلك لتأمـن لولدها ، إعتلائه عرش الإمبراطورية ، ولكن روما ، لم تعرف الملكة «سميرآميس» ولا «ديدون» ولا «كليوباترة» من السلالة السورية ، واللاتي إنحدرن من إنطاكية . أما صديقاتي ، فلم تكن في نيتهن تقليد هؤلاء الأميرات السوريات الشهيرات اللاتي لعبن أكبر دور في المدينة ولكن كونهن متزوجات ، كان يغضبهن ، لأنه عالم جديد . الذي كنت مطرودة منه ، وعندما يجتمعن ، كن يتغامزن ، فيخلق بينهن جو من

التآمر ، ويتهامسن بالأسرار الزوجية فينفجرن ضاحكات ، وكنت بالنسبة لهن ، أسعى لتبديد وقتي سدىً بين أساتذتي ، بينما يوجد الكثير من الرجال ، الذين يحلمون يوماً بأن أصبح سيدة قصورهم .

وسمع والدي ، بأنني بدأت في مطابقة كبرى العائلات الرومانية . وفي سن الرابعة عشر ، كان ذلك جيداً لفتاة بدوية ، أما بالنسبة لوالدها ، الذي يتألم لأنه لم يولد نبيلاً رومانياً ، ويحلم بصهر لابنته ، ليحمل له لقباً طالما حلم به ، فبدا له كل هذا صعب الإحتمال . وليس هناك من إمرء عديم الشفقة بقدر الطفل الذي يكتشف يوماً ، أن والديه لم يكونا أرفع من الإنتقاد ، والملامة ، حيث أعتقد بذلك بشكل أعمى . ويوماً ما ، لا بد أن يكون طفلي الذي أحمله في بطني ، سينظر لي يوماً ما في المستقبل نظرة ثبات ، وفي البداية سيكون دهشاً ، وبعد ذلك ، بغضب ، وأخيراً في تسامح . لقد عرفت هذه المراحل . وإذا عرفهم بدوره فذلك لأني لم أعرف كيف أحفظ وجهي الذي أنحنيت به على فراشه خلال سنواته الأولى . وكل ما كانت : رقية ، ومالكة ، وعائشة يروينه لي عن إبتلاهن بالعسل ، وصباغة أيديهن بالحنّة ، لم يثر إهتمامي كثيراً . فهؤلاء الزوجات بقين فتيات صغيرات وبالكاد غير بريئات عن ذلك العهد الذي كنا نغني فيه سوية ونصفق بالأيدي ، وقرارهم الذي إتخذوه بلا كلل «فليعطينا القدر ، زوجاً ، وبسرعة ، وبسرعة . وأن تكون له لحية ، كمكنسة» .

وأنا ، لا أملك زوجاً بعد ، ولهذا فأنا شخصية كبيرة . فالشعراء جعلوني أخمن المشاعر ، والمتع ، التي لم تظهر بتاتاً ، في أحاديث صديقاتي الثلاثة ، بحيث بقي الجسد جاهلاً كعقولهن .

وإغتنمت فرصة غياب «أوليموس» فدخلت غرفته لأفتش في صندوقه الذي يحتفظ فيه بكتب لا يفتحها أمامي مطلقاً . وبلمحة سريعة ، قرأت بعضاً من مئات أبيات الشعر ، لـ «كاتول» الذي يروي فيه لقاءاته الغرامية مع إمرأة متزوجة ، فالأشهر الأولى كانت مليئة بالسعادة ثم عدم الإخلاص ، والغيرة ، والغياب والأكاذيب ، والمشاحنات والدموع ، والإهانات ، ومحاولات إصلاح ذات البين ، بحيث تعلمت بأن الخيانة يمكنها بنفس الوقت التسبب في إضمحلال الحب ، ومضاعفة المتعة . وكان ذلك اكتشاف لعالم جديد . فحب باريس

وهيلين ، وإينيه وديدون ، لم يعد يثير إهتمامي وبدا لي مذ ذاك أنه من الصواب ، القيام بتأليفها كأغان لحاضنه . وبالرغم من عدم تجربتي ، إلا أنني شعرت بأن هذا «الكاتول» يقول الحقيقة .

وخمنت بأنه بالإمكان إهانة إمرىء لأننا لا نزال على حبه أيضاً ، ولم أختبر أياً من هذه الأشواق ، لكي أعاني هذه الأنواع من العبودية . وذاك الوقت الذي بكيت فيه على قدر ملكة قرطاجة ، كان قد ولّى وإنتهى . وآليت على نفسي مصاداً ، أن لا أجعل من الحب ، قضيتي الكبرى في هذه الحياة .

لم أكن بهذا القدر من البراءة . فإني أعلم علم اليقين بأنني جميلة . وكانت سعـ .وز «مباركة» تردده على مسامعي في آناء الليل ، وأطراف النهار ، وكل يوم . بـ تد هدهدتني ، وأطعمتني ، وإعتنت بي ، وكانت تزيد من إطراءاتها لي على مرّ الأيا ، والسنين .

ولدي ثقة أكثر بمرآتي الفضية التي أحضرنا لي والدي من الإسكندرية ، في ذلك اليوم الذي لاحظ فيه بأنني قد أصبحت فتاة ناضجة . وكان المعدن المصقول ، يعكس لي صورة ، لم تعجبني مطلقاً ، الوجه ضيّق ، وذو خطوط ـابة ، والأنف مستقيم ، فلم هو كذلك ، كأنوف الإغريق ؟ الذقن صلبة . لعيون العسلية ، الناظرة إلى شعري الفاحم الأسود ، الذي كنت أتفنن في تغيير تعابيره ، لأجعله ينسدل أخيراً حراً على كتفي . وكنت أنظر أيضاً في عيون الناس ، الذين يلعبون لعبة التظاهر بأكثر يفاعة من الشباب ، لكي يحظوا بالفتيات الصغيرات ، للطاعنين في السن ، وإنه لمراءآة سوقية ، غالباً ما تصيب هدفها . فالرجال عطوبين أمام الفخاخ الأكثر بساطة ، ولكنها أيضاً هي الخيلاء ، ، زهو الشرف ، وذوق المال ، والمسرة من الذات ، التي طالما غيّرت حياة الكثيرين .

ـ ولطالما ، إعتبرت «كورينليوس» كرجل ، ومع ذلك ، فقد رقصت أمامه ، أولى خطواتي في الإغراء . لقد كان ينقصني الفعل العملي . وكان من أولئك الناس الذين لا يهتمون بأحد إلا بقدر إهتمامهم وإنصاتهم له بقدسية مكللة بالإعجاب . وكنت أغتنم الفرص وأسعى إليها لكي أرتدي الثياب القصيرة أمامه ، وأنحني تحت أنفه بحجة عقد رباط حذائي ، ولكنه لم يتعثر أبداً . وكنت

راغبة بجموح لكي أريه فخذي ، ولكني كنت عفيفة للغاية لكي أتصنّع أقل إعجاب ، تجاه خطيب مضجر وفيما لو تجرأ ، على القيام بأية حركة ، لكنت شكوته لوالدي لكي يؤدبه ، جلداً بالسياط ، ولربما أمر بذبحه ، وهذا ما سوف يحرمني من رفيق عجوز ، ترك أثره على طفولتي . وقمت بالتصنيف النهائي لكورينليوس مع تلك النوعيات . التي إن أخطأ مستمعوها في الإنصات إليهم ، فإنهم يلجأون لإختبار بعض السعادة في الغرغرة لأنفسهم . ومع أوليموس ، فالوضع مختلف ، فجسده الممتلىء بالعضلات ، وبليونة تامة . يكشف تحت قناع سرعة العطب الظاهرية ، تجربة عملية طويلة من التمارين الرياضية التي أدت نتائجها في الاحتفاظ بنفسه جميلاً بالرغم من سنيه المتقدمة ، فكان شبيهاً بتلك التماثيل الرخامية ، التي يلمعّها الزمن ، ولا يصيبها التلف أبداً . وكانت نظرته تتباطىء إرادياً على وجهي أو على سيقاني الطويلة ولكنه كان يعاملني كشاب يافع ، ولا يألوا جهداً في حضّي على ممارسة تمارين الركض ، كما يجهد في إفهامي لمسرحيات «إسكيل» . كانت ثيابه قصيرة ، ويظهر جسده عارياً تحت غلالة شفافة من الثياب . وكم من مرة سارعت للإرتماء بين ذراعيه ، بقلب يخفق بقوة ، بعد إنتهائي من تمارين الركض ، وكم من مرة رميت القرص ، ولفرحتي بانتصاري ، طوقته بذراعي ، ولكنه أكان هو المسؤول ؟

ولفخاره بي ، كان يعتصرني على صدره . لقد كنت سعيدة . لقد أحببت أوليموس ، دون أن أدرك كنه هذا الشعور ولكن بدون أن أجهل بأن حبي له يختلف عن حبي لوالدي . وعندما بدأت أشبه إمرأة ، شعرت بأن معلمي بدأ يصبح أقل رقة ، وحناناً ، وأقل تواطئاً . ومنذ تلك اللحظة من يفاعتي ، لم أعد أشك في صعوبة قيادته ، ولهذا قمت بمحاولات رمي شباكي الطفولية عليه . ولمعرفتي بكونه شكوكاً للغاية ، وذكي جداً ، ومغرم بالمديح الأدبي فقد زينت وجهي ، وكشفت عن أكتافي ، وكانت نظراتي الملتهبة ، تواجهه مباشرة في عينيه ، ولكن دون أن أجرؤ على إعادة لعب عقد رباط حذائي . وذهبت إلى أبعد من ذلك ، عندما سألته يوماً ، أن يقوم بإلقاء بعض من أشعار «كاتول» أمامي . فومضت في عينيه الشاحبتين . شعلة صغيرة ساخرة ، وولدت على شفتيه ، إبتسامة خفيفة من القرف ، وكانت تلك هي نتائج أفعالي السخيفة . ومع صفاء

بشرتي ، وإستدارة نهداي بسرعة وإكتمالهم ، ومع لهاثي الذي أصبح أشد قوة ، ونفسيتي الهادئة ، لم أعد أشبه بتاتاً تلك المراهقة . وأصبحت على يقين من أن أوليموس غير حساس تجاه كيل المديح والثناء عليه ، ولكني لم أفهم كرهه الشديد لرائحة النساء .

ـ ثلاث مرات ، في السنة ، يقوم والدي بتنظيم رحلات القوافل الكبيرة الرابطة ، ما بين تدمر ، وڤولو جيزياد وهي مدينة كبيرة على ضفاف النهر العظيم «الفرات» حيث استطاع التجار التدمريون الاحتفاظ بسلعهم . بالرغم من الحرب المعلنة ضد الرومان ، من قبل الملك الساساني «سابور» . ومنذ حقبة الإمبراطور «هادريان» ، فإننا مقوقعون ضمن النظام الإمبراطوري ، وأعداء حماتنا ، أصبحوا أعدائنا، ولكن هل أوقفت الحروب يوماً الأعمال ؟

وإستلقى خليفة «تراجان» ، على أريكته ، مطمئناً معتقداً بأنه حاذق ، في ترك بلاد الرافدين . وإستخدامنا ، لدعم تيار التبادلات التجارية مع الهند ، ولم يشك مطلقاً ، بأنه خلال ثلاثة أجيال ، ستقع هذه الخطوط التجارية بين أيدينا نحن فقط : نحن المنحدرون من ذلك العرق الخليط ، فنصفنا من البدو ، ونصفنا الآخر ، شعب مقاتل ، وتجهل يمنانا ، ما تحمل يسرانا ، وأصبحنا بذلك حكام التجارة . وحتى لو تطلب الأمر منا ، حشد مبالغ ضخمة ، ودفع الأتاوات والغرامات ، لتأمين مرور قوافلنا عبر الصحراء ، فإنه سيكون هناك دائماً مشترون كثر ، في الطرف الآخر من بحر اللاتين ، ومستعدون لدفع مئة ضعف ما نطلبه من ثمن للحرير الدمشقي واللؤلؤة اللاوديسي لنسائهم . وهناك الخزف ، والتوابل لموائدهم ، والراتنج المعطر ، لآلهتهم .

ـ وهذا العمل ، ليس بالسهل في قيادة القوافل ، حتى الخليج الرافدي ، أو حتى لـ«ڤولوجيزياد» على ضفاف الفرات وإعادة القافلة الى تدمر ، مع حمولتها من البضائع الثمينة والباهظة التكاليف ، القادمة من الشرق الأقصى . وفي شبابه ، كان والدي ، يتم هذه الرحلة القاسية ، وعندما أصبح وزيراً للأمير ، كان سروره عظيماً لامكانه تمويل هذا النوع من الاعمال ، وهو الذي انعكس غناً ، وسروراً على مدينتنا . وكان من عادتي الركض بحرية في المنزل ، فيمسكني والدي

بيديه ويجلسني بقربه ، عندما يستقبل شركائه في العمل استمع لما يقوله ، وأعجب ، وأقدر ، كل التقدير ، سلطوية صوته السريع ، وكنت أسُر ، لرؤية الآخرين ، يهزّون الرأس علامة الموافقة على كل كلمة ينطق بها . وأما الآخرين ، فلم يكونوا إلا تجار تدمر ، المشاركين معه في شراء البضائع ونقلها ، وإعادة بيعها في إنطاكية ، وبيرغام ، وبيزنطة ، وروما ، أوفي مرسيليا ، فقد إتخذوه طواعية رئيساً عليهم . وكان هناك أيضاً الوكلاء التجاريون المقيمون في «**شاراكس**» ، و«**ڤولوجيزياد**» ، وحتى في «**الاسكندرية**» أو«**طيسفون**» «**كيتزيفون**» اللذين لم يألوا جهداً في قطع المسافات الشاسعة ، بالرغم من هشاشة ، ما اصطلح على تسميته بـ«السلام الروماني» ، وقد جاؤوا لمناقشة الأمور المالية وغيرها ، التي خمّنت أنها جد هامة . وكانت هذه الزيارات ، قد عززت قناعتي ، وغذت حاجتي الإعجابية ، لكوني إبنة أب ، يعتبر الشخصية النافذة والقادرة ، والأكثر شجاعة ، والأغنى في كل مدينة تدمر .

وبالرغم من عدم فهمي لكثير من الكلمات التي كانت تتردد أثناء هذه الاجتماعات كالصيد ، والتبادل والتالان «وهي وحدة وزن يونانية تساوي من ٢٠ الى ٢٧ كيلو غرام» ، والدينار ، والدراخمة والمين «وهي مئة دراخمة لدى قدماء الأغريق» .

★ كنت أعجب ، لرؤية أصابع والدي على قصبة معدنية ذات كرات صغيرة متعددة الألوان ، ليقوم بحساباته . وعندما اتفق التجار على ميعاد الرحيل ، عقب نقاش طويل ، علت فيه الأصوات ، تفرّق الجميع بإشارة منه عندما وضع اليد اليمنى على الشفاه ، بهيئة غامضة .

وقام والدي ، عقب ذلك بمناداة رئيس القافلة ، الذي إختاره وكلفه بجمع ما ينوف عن الفي جمل ، بعناية فائقة ، بالإضافة الى سائقيهم ، والتزود بالماء والغذاء الضروري لقطع المنحدرات الصحراوية الفاصلة ما بين تدمر والفرات . وحملت الريح ، والثرثرة ، الخبر الى المدينة . وتلقاه البدو المعسكرين على مسيرة يومين أو ثلاثة أيام من تدمر بسرعة كبيرة ، وكأن عطارد قد طار إليهم بأجنحته ، فكأنه المراسل .

ـ ولد ، تحت سقف ، واحدة ، من تلك الخيم السوداء الكبيرة ، التي لا تستقر بمكان . بغية البحث عن غابات الجم . والكلأ الشوكي ، الضروري للماشية ذلك هو مكان ولادة والدي .

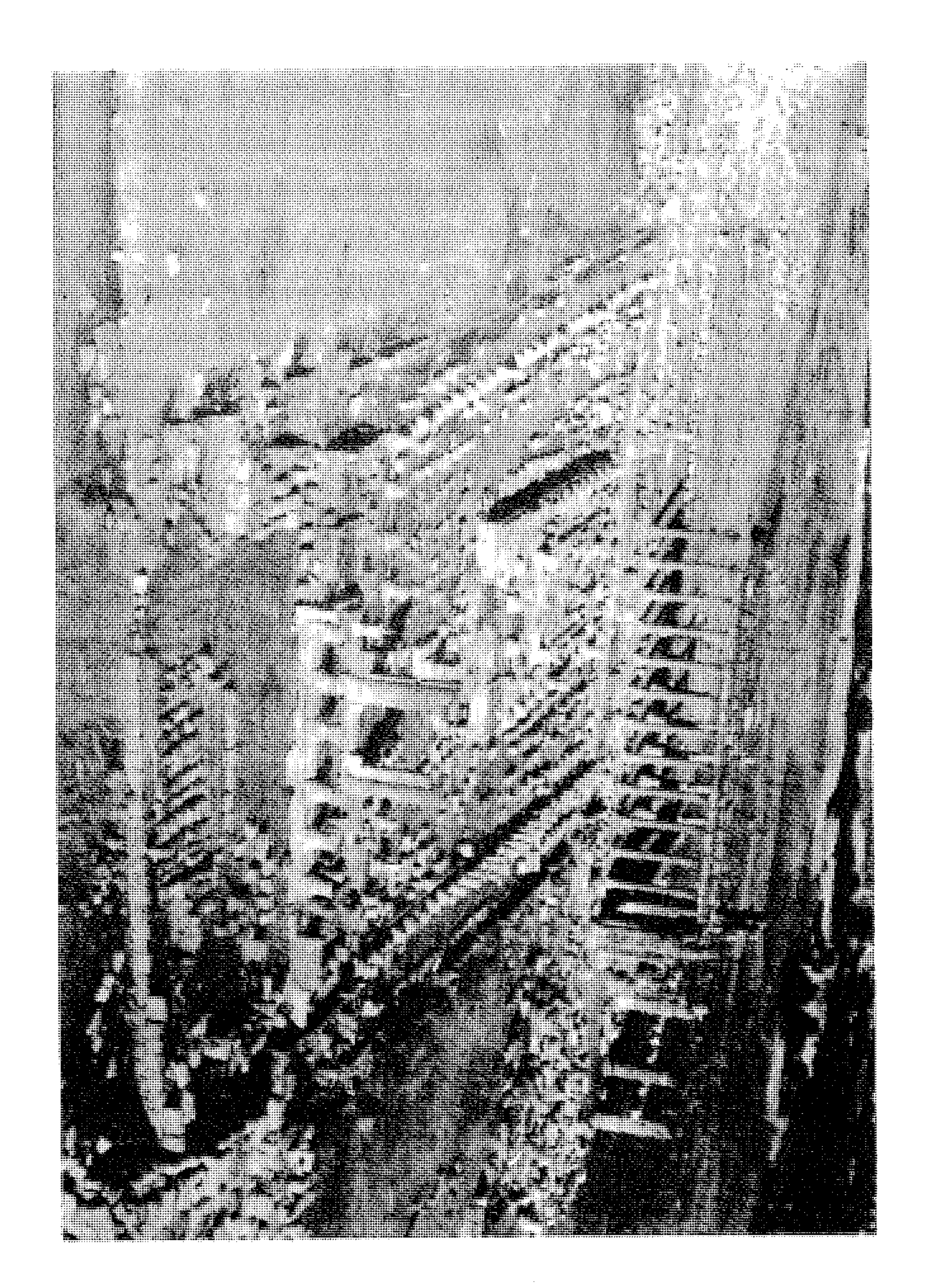
★ الذي لم تعد تربطه بتلك الحياة البدوية ، وعائلته الكبيرة . أي رابط ، منذ أن أصبح حضري العيش، غني الجيب ، وعضواً في مجلس شيوخ تدمر . ولكنه لم يقلل يوماً من تقديره لتلك المجتمعات الصحراوية التي تتمتع بالشجاعة والبأس والجرأة ، والاقدام ، وحضور البديهة وقدرة تحملهم للمشاق ، وحمل مشاعل الثأر . وهو يعلم علم اليقين ، بأنه بإشارة من أحد مشايخ العشائر ، يمكن إرسال غدة قبائل ، لتغير على المدينة ، فتسلب التجار متاعهم ، وتسبي نسائهم ، وتحرق معابدهم ولهذا لم يتقاعص والدي عن تجنيدهم لمرافقة القوافل الكبرى لحراستها . فقليل من الذهب ، ليشتري به سلاحاً جديداً ، ونفس ذوّاقة للمغامرة ، وخطر الإشتباك ليدفع به أي سوء عن القوافل .

ـ وكغيره من رؤوساء عشائر البدو ، حط رحالة يوماً في تدمر ، وإنتهى به الأمر الى الحصول على منصب أو لقب من ألقاب الشرف ، التي كان يغدق بها الحاكم الروماني ، بدون بخل .

ولقد احتفظ والدي في قبيلته ، مسقط رأسه برجال ، وأغنام ، وشجر نخيل ، وعائلة لا تحصى من الأخوة والأخوات والأعمام والخالات ، وأبناء العمومة . اللذين كانوا يتعثرون ، ليهبو بسرعة للقائه عندما يسعى لزيارتهم ، ولكنهم ما إن يدير لهم ظهره ، حتى يسرعوا للبصق على الرمال .

وكثيراً ما رافقته في ذهابه الى المرعى ، حيث يتم الجمع والحشد ، قبل الرحيل الى «**ڤولوجيزياد**» ورأيت النوق ، معقودة الفكين بالحبال ، ولعابها الدبق يسيل من شفريتها وتهش بمشفريها الذباب الذي يطن على اسنانها الصفراء ، وكانت الجمال تدور بشكل دائري ، مصدرة لصرخات ، أجفلتني .

وكان والدي يتفحصهم ، ويتحقق من حالتهم الصحية ، ويتحسس عرقوبهم «ما بين الساق والوظيف» بأصبع دقيقة ، ويتأكد من إستدارة حدبتهم ويتأمل عظامهم . مبعداً ما بدا له ، أن به عرج ويشير بسوطه الى الجروح النازفة



تدمر وواحتها

في الحارك «ما بين العنق والصهوة» ، فيستدعي الحارس المذنب ، لإهماله ، ليقوم بصفعة على وجهه بحركة عنيفة ، كثيراً ما فتنتني ، لقد كان رئيساً بحق . وكنت أصرخ . كصراخ الأطفال الحاد ، وكأن الفتيات الصغيرات هن الوحيدات القادرات على إصدارها ، فأضغط بكل قوتي على فخذي والدي ، وكأنه يريد ان يثبت لي سلطته ، وبأسه ، فيعيد صفع السائس مرات ومرات . وكأننا نحن الإثنان نثأر لمذلتنا فهو ينتقم من ذلة ، المسحوق في كواليس الحاكم الروماني ، لكي يقبل بوظيفة القاضي في مجلس الأعيان وأنا التي رأيته ، وكنت شاهدة على علامات الإحترام التي أبداها لقائد المئة الروماني ، والتي أثارتني .

ـ كان يحدث في بعض الأحيان ، أن تمنعنا الريح الصرصر والزوابع من العودة الى تدمر ، فنضطر الى تمديد مدة إقامتنا عند البدو . والضيافة المقدمة لنا ، لا تقارن ، بالبذخ وإسراف مائدتنا في تدمر . وهكذا يبدو كرمهم متواضعاً جداً ، لما نحن فيه في منزلنا وهنا ، علينا أن نُسرّ من الحليب المخثر المقدم لنا ، والزبدة الدسمة ، وعجينة الشعير ، وفي بعض الأحيان ، من غزال مشوّي ، فوق الجمر ، حتى لحظة إمكاننا ، إنتزاع قطع من جلده الذهبي المتقلّص والمعفر بالرمال ، الذي يقرقش تحت الأسنان .

وعند مجيء الليل ، يحتضن منا الواحد الأخر ، ملتحفين بأردية محاكة من شعر الجمال ، ونخلد الى النوم تحت سقف الخيمة السوداء الكبيرة ، التي تهزّها الريح بدون كلل ودون أن تتمكن من طرد الروائح الحامضية ، التي لقحّها الصوف ، وفي اليوم التالي ، صحوت عند الفجر على أصوات الحيوانات ، فخرجنا الى الخلاء والهواء الطلق وحملوا لنا الحليب المستخلص من بعض التمور القاسية وكأنها الحجر . وتقبل والدي ولاءهم بنفس متعالية ، ولقد فكرت أحياناً ، بأنه يكتم سعادة سرية ، عندما يبلل سفتيه بلعابه الرطب النتن ، حيث طفولته المغدورة بها . الماء كان نادراً ، ولهذا كان سرورنا بالغاً عند قيامنا بالإغتسال صباحاً ، فكنا نعمد الى تمريغ وجوهنا بقليل من الرمل .

وجاءت بعد ذلك العائلة بأكملها لتوديعنا ، فبعضهم بدت عليهم المذّلة المصطنعة أما الآخرون . فبدا عليّ من الصعب تحديد مظهرهم فهل كانت تحيتهم ووداعهم لنا فيه إستخفاف أم غطرسة وكبرياء ؟

وبعد اتمام فحصهم في الليلة السابقة ، إتخذت الجمال طريقها نحو تدمر ، لكي تلتحق ببقية أعداد منها تعّد بالمئات ، كانت قد استؤجرت من بقية القبائل البدوية . وبقي الآن ، الاهتمام بإنتقاء بعض الرجال المنتخبين من قبل الشيخ ، لتأمين سلامة القافلة . وفي تلك الفترة تحديداً ، كان الجنود الرومان يطوّعون أعداداً كبيرة من المتطوعين لتشكيل مجموعات قتالية جديدة ، يقودها ، رؤوساء رومان . ولهذا كان من العسير جداً ، إيجاد بضعة مئات من «راكضي الرمال» وكان على كل تاجر مساهم ، أن يقدم خمسين رجلاً من رماة النبال ، وكان فخارة وشرفه ، يملي عليه إنتقاء الأفضل منهم . وكان والدي يتفحص المقدمين إليه ، بعيون من نار ، ويمتحنهم ، برمي النبل على مرأى منه ، بالتصويب أولاً على ثعالب الصحراء العجوزة ، التي يستخدمها لهذه الغاية ، ولا ينتخب الشباب منهم الا بعد التحقق بعناية تامة منهم ، مع الأخذ بعين الاعتبار إنتقاء الرماة من كل العائلات ، حتى لا يتكاتف البعض منهم ضده ، وفي خلال إحدى هذه الرحلات ، إضطربت للمرة الأولى في حياتي لدى التقائي برجل .

★ كان عمري آنذاك أثنتا عشرة سنة ، وكان والدي يرفض ، أن يعهد بي الى إحدى أخواته منذ أن نصحته إحداهن ، بوجوب صباغة شعري بالحنة ، كذلك راحتي يدي ، والأقدام ولهذا فقد حضرت عملية إلتحاق النّبالة .

ـ وعندما حضر «زبّاي» للمثول أمام والدي ، فقد تذكره والدي ، عندما إصطحبه معه على طريق «**ڤولوجيزياد**» فأشار له بعلامة الصداقة . كان يرتدي سروالاً قصيراً من الصوف البني اللون ، المحزّم على مقاسه . وواقية للساق على الطريقة الفارسية ، وكان يعتمر قبعة مدببة برقة في الرأس . بينما كان حبل قوسه يَشدُّ صدره ، وخنجران يتدليان من حزامه المساري ، المطعم بدبابيس غليظة ، وزبّاي هو إبن العمة الكبرى في العائلة ، ومرافق متطوع للقوافل ، لأن هذا النوع من العمل يقدم له متعة المخاطرة ، في مجابهة عصابات الصحراء المتهنة للسلب والنهب . وهو لم يوافق أبداً على الإنخراط في صفوف الكتائب الرومانية ، في فترة كان فيها بإمكان أي طامح لإرتداء اللباس الأرجواني الامبراطوري أن يناله ، منذ

أن إرتداه واحد من أبنائنا واعتلى فيه عرش الإمبراطورية الرومانية وهو «**فيليب العربي**» .

ولكن زبّاي ، لم يولد لأعمال السخرة ، ولا للإنصياع للشروط العسكرية . وعندما رأيته يمتطي صهوة جواده السوري السريع ، الذي شب عن الارض بضغطة بسيطة من ركبتي فارسه ، فوتّر قوسه فجأة ، وأطلق نبلته التي لم تخطىء أبداً في الإنغراز بوتد التمرين ، وبوصوله الى نهاية حرفته ، قام بعمل نصف دائرة ، وعدى نحونا ، وأطلق نبلة أخرى ، بذات الدقة ، والتصميم ، وعاد فاختفى تحت بطن جواده ، وكأنه أصيب في مقتله من قبل أعدائه ، ولم يعد الى وضعيته الصحيحة إلا وقد رشق نبلته الثالثة ، التي إنطلقت تصفر في الهواء لتستقر في بطن الوتد ، مهتزة ، بجانب شقيقتيها الإثنتين . وهكذا فهمت بشكل أفضل أنه خلق للقتال ، وخوض غمار الحروب ، وللقتال الفردي ، ولم يخلق للمعسكرات ، أو لخوض غمار قتال ليوم واحد فقط ، كاؤلئك الذين يمضون حياتهم في الحديث عنه ، وكالعسكريين الذين ، ينسجون وجودهم ، بالثرثرة ، والإستعراضات وحيث يكونون ، هم الوحيدين الذين يحملونها على محمل الجد والرصانة .

ـ ففي سن الثانية عشر ، خمّنت كل ذلك ، والذي تأكد مذ ذلك الحدث ، صورة حفرت في داخل مقلتيّ ، هي لشاب ، بقوسه الذي لا يخطىء ذو وجه ضيق ، لوحت الشمس بشرته ، ومؤطر بلحية سوداء دقيقة ، فارس أملس البطن ، إنه العربي الحقيقي ، نحيل القوام ، بيدين حاذقتين ، سريعتين ، فهما جيدتان للعب كما هما أداتان ممتازتان للقتل ، وزبّاي لم يُعر نظراتي المبهورة أي انتباه ، والتي كانت تتوسل إليه لإختطافي على جواده ، وحملي الى أبعد مكان في الوجود ، ليعتصرني بقوة الى صدره . فمن هي الفتاة التي لا تحلم بالتعرف الى هذه المعجزة ؟

ـ وفي السنة التالية ، عندما قرر والدي قيادة القافلة الكبرى رجوته أن يصطحبني معه . فأشار بالرفض ليفسح المجال أمامي لبضعة أيام أخرى ، حتى يسعدني بقبوله . ولقد نسيت «**زبّاي**» منذ وقت طويل ، ولم يسعدني إلا خوض مجاهل الصحراء ، ولأعيش الحكايا المغناة المعشعشة في ثنايا ذكريات طفولتي .

ـ ولإعانة سيد تجار تدمر ، على ترك مكان إقامته المريح ، والجميل ـ ، لمدة ثلاثة أشهر ، وجعله يتقاسم حياة التقشف القاسية مع البدو ، كان لابد من حدوث ظروف خطيرة لإجباره على ذلك ، وكي لا يتمكن من الانسحاب أو التملص . ومنذ بعض الوقت ، أصبحت المحادثات المعقودة بين والدي وشركائه تصبح أكثر طولاً وأكثر تكراراً . وحدث أيضاً ، أن شارك في هذه الاجتماعات الممثل المالي للمبعوث الإنطاكي ، وحاكم القوات الرومانية المعسكرة تحت أسوارنا . فالبحث كان هاماً للغاية .

فمنذ سحق ملك الساسانيين الملك سابور للجيش الروماني في بلاد الرافدين ، لم تعد جرأتهم وتعدياتهم تعرف الحدود ، وعلى طول نهر الفرات ، أقاموا مراكز لهم بغية السطو على بضائعنا القادمة من الصين أو الهند ، وإعادة بيعها لصالحهم الشخصي ، ويبدى التجار التدمريون ، أنهم على غير استعداد لدفع الضرائب الى ممثلي الحكومة الرومانية التي بدأ نسرها يبدي ضعفه شيئاً فشيئاً أمام الساسانيين .

ومن جهة ممثلي الامبراطور الروماني . فقد كانوا غير مستعدين لفقدان أفضل مصادرهم المالية والضريبية والتي هي من تجارة تدمر . ولهذا إرتأوا على تجار تدمر ، فتح باب المفاوضات السلمية مع الفرس ، لبقاء طريق القوافل سالكاً ، وبالتالي فمعنى ذلك ، دفع ضرائب ثقيلة الى أعداء الرومانيين ، وبيعهم السلاح أو المعادن لصناعتة .

وعندما تحدد ميعاد الرحيل الكبير ، تجمّع ما ينوف عن الألفي ناقة ، ومن النوق البيض «**الميهاريس**» والجياد في منطقة الواحة الكبرى «**واحة التمور**» ، تحت حراسة الرعيان . وتوافد التدمريون لرؤية هذا الحشد ، حيث تعالى الصياح ، واختلطت الألوان . وتعددت الإيماءات ، كان يسمع صهيل الجياد وتشتم الروائح القوية ، وتتمازج بفوضىٰ جذلة ، ووحشية . وشحنت المؤن ، لتكون ذخيرة السير الطويل ، وكذلك البضائع الموجهة إلى الفرس . وكل جمّال ، عليه تأمين غذائه الشخصي ، وغذاء دابته الموكولة إليه : كالقمح ، والشعير ، والتمر ، والقرع المجفف ، وقطع اللحم المدخنة ، والماء ، والكلأ . ومن جهة أخرى ،

أحجار الملح ، المقطعة الحمراء ، المقسومة بيد السجناء المحكومين بالعمل في المناجم ، ونحن لا ننتج شيئاً منه يمكن أن يغوي جيراننا في بلاد الرافدين ، ولكن التجار التدمريون ، كانوا منذ وقت طويل قد استعدوا في تجميع ، وتكديس الفحم الخشبي ، من جبل اللبن والحديد من جبال طوروس ، والنبيذ من انطاكية أو الزيت المعّطر من اليمن أو من لاوديسة ، وكل ذلك بانتظار شحنة الى خليج بلاد الرافدين . وبالنسبة إلي فقد استعديت ، ورتبت في صندوقي ، عباءات ، وملاءات ، وأغطية الرأس والأحذية الجلدية ، وعقودي اللؤلؤية ، وأساوري وثيابي الداخلية ، لأرضي فقط عجوزتي «مباركة» التي كانت سترافقني خلال هذه الرحلة .

وقد طلبت مني ، أن أحمل معي جميع ثيابي ، لأكون ملكة سبأ ، لهذه القافلة الكبرىٰ ، وكنت سعيدة ببعض من ثيابي . لقد أحببت مباركة حباً كبيراً ، فقد عرفت دائماً وجهها الذي يشبه التين المجفف ، وكانت جد نافعة لي ، ولكن في الثالثة عشر ، من الصعب على الفتاة تحمّل المشاعر المدمعة ، والإطراءات الرنانة أو الملامة المقذعة ، التي تتفوه بها العجائز ، ولطالما جعلتها تعاني من تصرفاتي في بعض الأحيان .

ـ وفي أحد الأيام ، كان الوقت عصراً ، حضر فارسان من الحرس ، لاستدعائنا نحن الاثنين ، وللسير بنا الى واحة النخيل ، حيث ينتظرنا والدي ، الذي كان هناك منذ الصباح . ولقد صعدنا إلى هودج كان ينتظرنا عند مدخل المنزل . وعندما استقامت الناقة التي تحملنا فجأة ، أطلقت مباركة صرخة ، بعثت فينا الضحك ، وحتى الخدم الذين كانوا بانتظار أوامرها .

كان المشهد حقاً رائعاً وبشكل يفوق الوصف ، فقد اجتمع أكثر من ألفي جمل وناقة محملين بأكياس ضخمة وسلال ، وكتل هائلة من الملح ، وقطع من خشب الأشجار .

وكانت النوق تبدو للناظر اليها غير مهتمة بما يجري حولها من هرج ومرج وبدت وكأنها استقالت من مهامها ، فبعضها كان مسروراً لنهوضه البطيء بأعناقها الطويلة بدون حدود أو أنها كانت تخفض أجفانها الثقيلة على عيونها الجميلة التي يتكاثر حولها الذباب ، وبعضها الآخر ، كان متوتراً من الجمع المحتشد والأصوات

المتعالية ، والصخب الصادح ومن دوران الناس حولها منذ عدة أيام بدون هوادة ، فكانت ترسل صرخاتها المرعبة ، فاتحة فيها ، مهددة بأسنانها ، ومحاولة التدحرج على الأرض بغية التخلص من أحمالها بينما عمد قوادها الى سوطها بضربات قوية فعادت الى الجلوس على ركبها النحيلة .

وأما التفكير ، بأنني سأذهب لمدة ثلاثة أشهر لأعيش خلالها وسط هذه الوحوش وهؤلاء الرجال ، كان يبعث في نفسي قشعريرة من الرعب .

ولكن النظر إلى وجه مباركة ، كان يوطد شجاعتي : وجبن الآخرين هو ما صلبّ، قلبي .

وحقيقة القول ، فإن الشيء الوحيد الذي كان يطمأنني هو رؤيتي لوالدي وسط نبلاء تدمر الذين حضروا خصيصاً لوداع والدي ، وتقديم تمنياتهم برحلة موفقة ، وتجارة رابحة . لقد كان الرئيس والزعيم الذي لا يقارن ، وبالنسبة لي فقد كان بطلاً ، بطل القوافل الكبرى . وكان يظهر أمام الملأ على أنه الأكبر ، والأقوى ، فيلقي أوامره الى البعض ، ويحتضن شركائه ، كان وجهه ينم عن عزم جنرال في الجيش ، أخذ على عاتقه قيادة قواته وكان يمسك بقبضة يده اليمنى قبضة سيف ضخم دمشقي الصنعة ، وإنهارت سعادتي فجأة عندما رأيته وهو يفّض جمع الدائرة المحيطة به من حاشيته ليسرع الى رئيس فرقة الخيالة التي كانت تتقدم نحونا ، وبأيدي جنودها الرماح .

وأعلن الضابط الروماني بأن مفرزة جنود الحراسة من راكبي الجمال «موضوعة تحت أمرتنا ، وذلك لاستطلاع سير طريق القافلة ، وأضاف بأن إشارة الرحيل قد أعطيت للمفرزة وأنها في حالة جاهزية تامة . هذا الروماني المزركش بدرع برّاق ، والذي يلقي الأوامر على والدي وكأنه يتكلم الى أحد جنوده ، لكم تمنيت أن أغرز أظافري في وجهه . لم نعد منذ اللحظة بين بعضنا بعضاً بين العرب من راكبي الرمال الى عرب جوّالين برحيل طويل . الى عرب مغرمين بسفر المغامرة ، حيث أن البدء برحلة يتطلب أنظمة لها جذورها العميقة من العادات والتقاليد ، وهي لوائح طويلة بلا نهاية والغاية منها إبعاد القدر السيء . بينما غلّف الوجود الروماني عاداتنا ، وهوائنا بغلاف غير مرئي أو بالأحرى فقد أصابنا

بالعمىٰ . فهو يقود جميع أفعال وسكنات حياتنا . فهو يتبعنا الى الصحراء ، أمنا الحنون . لقد شعرت بغصة في الحلق ، وضيق في الصدر عندما انحنى والدي بإحترام أمام الحاكم الروماني ، الذي كان يقف بشكل أخرق بسبب سيفه الكبير .

لقد كنت لا أزال صغيرة جداً ، حتى أفهم بأن المواطنية الرومانية التي منحها الإمبراطور الى جميع سكان المناطق المستعمرة لم تكن إلا سراباً ، بحيث أننا أخذنا في شبكة الخداع ومنذ تلك اللحظة ، بدأت كراهيتي للرومان .

ـ ولوّح والدي ، بحركة من يده ، فأجابته صيحة طويلة وصعدت فرقة النبّالة على نوقها البيض ، ومرت من أمامنا : كانت هي المرشدة ، فهم رجال الصحراء القادرين على معرفة مسالك الصحراء التي مسحتها ريح الرمال ، والعالمين بطرق قبة السماء ، وحركة النجوم وكانت حركتهم وكأنهم مربوطين بحبل الى بعضهم البعض ، فمرّوا ، اثنين ، اثنين ، ولحقت بهم ، دواب الأثقال ، . . الخ ، كان المشهد يبدو وكأنه نهر متعرج ، حيث تطفو ، جذوع الأشجار بين أكياس ضخمة ، أو كآلة نسج الصوف حين تتشعب منها ، كتل غريبة معكوفة تتلوى وتلتف كأنها ثعابين ، تنتهي برأس ضخم ، كرأس الخروف . كانت الجمال تتقدم بخطى ممطوطة وثقيلة ، يحثها الحداة الذين يسيرون على الأقدام وبيدهم السوط ، والخنجر في الحزام ، ويحملون على ظهورهم الخوابي المصنوعة من التراب المشوي أوجلود الغزلان ، والحبال ، وجلود الماعز المنتفخة بالماء ، والدربكة . وكان منهم من يحمل صواني عريضة من النحاس ، بحيث أن انعكاس أشعة شمس المغيب عليها ، يؤجج نيرانها وكأنها شموس حمراء متوهجة . وهكذا اجتازت آلاف الحيوانات المكان ثم تبع ذلك حوالي مئة فارس من الخفراء كان في وسطهم الناقة البيضاء التي كنت بداخل هودجها . جاثمة مع مباركة ، يسحبونها ، بينما كان والدي ، يحث جواده إلى جانبنا .

وكانت بقية حيوانات البردعة تتبعنا عن قرب ، متبوعة بفرقة ثالثة من رماة النبّالة يحثون الخطى للحاق بنا . وعند أسوار تدمر ، وعبر غيمة من الغبار التي سبق وأن جففت حلقي ، إجتمع عدد كبير من الرجال والنساء يلوحون لنا بمناديلهم ، البيضاء ، والخضراء والحمراء أو الصفراء . ولم يعد صوتهم يصل الى

مسامعنا وبالرغم من كل شيء فقد سمعتهم يصرخون : «خذوا الطريق الصحيحة !» «وليكن الحظ الى جانبكم !» «ولترعاكم الآلهة !» .

لقد انطلق موكب القافلة ، وإختفى اللغط ولم يعد يسمع إلا صوت الحيوانات وصرير ريح الصحراء .

ـ وفي الصحراء . لم يعد بإمكاننا القول أننا لا نزال على الأرض ، بل كنا تحت السماء ، سماء واسعة الأرجاء بلا حدود ، تتلألأ كحد السيف . وحتى هذه اللحظات ، لم أكن قد ابتعدت عن تدمر إلا لمسافة يومين أو ثلاثة أيام من السير ، وكنت قد أمضيت الليل في معسكر للبدو ، حيث استقبلنا بوجوه بشوشة . وهي في حد ذاتها مغامرة تختلف كل الإختلاف عن مغامرة العبور حتى الفرات ، وخلال مدة مسير أكثر من نصف ـ الهلال ، طالعتنا مساحات شاسعة من الرمل المغربل بحصى صغيرة ذات أضلاع قاطعة وحادة ، وذات ألوان تتغير من الأخضر الى الأرجواني . تحيط وحدها بمساحات الرؤية أينما نظرت . وعلى مسافة أكثر من ألفي غلوة «وهي وحدة قديمة من وحدات الطول» ، كانت القافلة تتمدد على أرض صلبة قاسية ، وتتقدم بخطى منتظمة حتى لحظة صدوح قرن النغم ، معطياً الأمر بتخفيف سرعة المسير . وخلال هذه اللحظات سارعت عجوزي «مباركة» الى أمتعتنا الكثيرة بحثاً عن التعويذات التي كانت قد جلبتها معها للحماية من السوء ، حيث كان يهيمن عليها الإعتقاد بأننا قد هوجمنا من قبل عصابات الصحراء . وإرتسمت علامات الذعر والخوف على تقاطيع وجهها ، وقلب الرعب بطنها ، فسارعت لإغتنام فرصتي لشتمها ، وتقييدها بكلماتي النابية ، التي نعرفها دائماً دون أن يلقننا إياها أحد .

وكان جلّ ما حدث ، هو عبورٌ ، لمضيق رملي صعب وذو أرضية هشة من الرمل المتعفن . ولكن أخطر ما تتعرض له القافلة من صعاب يكمن عندما تفقد الدواب ثقة وأمان قواعدها ومستقراتها أو في هروب ناقة ، في قطعها للرباط الذي يربطها بأخواتها ، فتلوي عنقها مستديرة بإتجاه مراعي وينابيع تدمر ، لا تلوي على شيء .

● لم نتوقف إلا عندما هبطت الشمس عن يميننا من الطرف الآخر للأرض ، وأحمرت السماء بلون قرمزي وكأن أصبغة فينيقيا الحمراء ، استعملت كلها في

صبغة السماء . وعمد الرجال إلى تبريك الدواب ، وتخفيف الأثقال عن بعضها ، وتوزيع بضعة قبضات من الشعير عليها . أما والدي الذي أمضى نهاره ، متنقلاً بين مختلف مجموعات القافلة ، فقد لحق بي . . ونصبت خيمة لنا ، نحن الاثنين فقط، حيث عمد أحد النبّالين من رامي السهام إلى غرز رمح في الأرض أمام خيمتنا وعلّق في أعلاه كرة من الذهب تدلّى منها ذنب حصان . وكانت تلك الشارة علامة الرئاسة . وتذوق والدي هذا التقدير بسعادة بالغة ، بحيث أنه لم يخفِ ما كان يشعر به من فخر وإعتزاز الذي لم يكن أبداً فضيلة السيد الحقيقي . وعندما حلَّ المساء ، لجأ الحدّاوؤن الى الحفر التي قاموا بحفرها لنومهم ، وأثناء ذلك وصل إلى خيمتنا قائد المئة الروماني لفرقة «بريما ـ أولبيا» وكان محاطاً بكوكبة من جنود فرقته المسلحين تسليحاً كاملاً ، وبعجرفة الضابط الروماني وتحقيراً لوالدي ، لم يكلف نفسه عناء النزول عن ناقته البيضاء ، وطلب من والدي رفع المعسكر حالاً ، وضربه في ناحية الجنوب أبعد قليلاً من مكانه الحالي ، أي أن المكان كان يبعد حوالي ساعتين من المسير .

ولمدة لحظات بدت بدون نهاية ، كان الرجلان ينظران الى بعضهما البعض دون أن ينبس أحدهما بكلمة وكنت أنا أراقبهما عن كثب . وكان قائد المئة الروماني يحمل بيده اليمنى سوطاً ذو سيور مزين بالمسامير الفضية ، وذو عينين فارغتين من أي معنى ، وبجبهة ضيّقة ، وبذقن مبتذلة تنم عن شخصيته ، المكملة بزيه العسكري ، لممارسة أفضل الوسائل في تأكيد سلطته ، الكافية في إقتناص الفرص لتنغيص حياة حتى أضعف الخلق ولإملاء ذات الأوامر وتكرارها بحماقة تفوق غباء مرؤوسيه الذين أرسلوها له بالأمس . تجاهد في شق ثغرة عن ابتسامة باهتة صفراء ، لعله كان يقصد كسب المزيد من الوقت ، أو لربما ، لبدء مباحثات في أفضل الشروط الممكنة ، وذلك لأنه في حقل المحادثات ، يعتبر الأقوى ، وأجابه والدي أخيراً ، بأن رئيس القافلة هو الذي ارتأى هذا المكان ووجده مناسباً جداً لراحة الرجال والدواب المنهكين . ولكن الآخر قاطعه فجأة ، على إعتبار أنه المسؤول عن سلامة القافلة ، وتقع على عاتقه وحده مسؤولية تحديد المراحل ، وهو بالتالي المنفذ لأوامر رئيس فرقة المشاة . وهرع عدد من الحداوؤن ، ورماة

السهام ، لسماع ما يدور بيننا . وكان من بينهم والذي وقف الى جانب والدي ، زبّاي ، الذي رمى قائد المئة الروماني بنظرة كلها تحدٍ ، جعلتني أشعر بحرارة في وجنتي ، ترى ، هل سيطلب إلى أعواننا من البدو ، بالإنقضاض على هذا الروماني الوقح ، الفاقد لكل أساليب اللباقة والدبلوماسية .

لقد كنا أكثر عدد منهم ، ولهذا السبب كان بإمكاننا محاصرتهم وذبحهم ، ثم دفن جثثهم في الرمال . ولن يخمن أحد ما الذي حدث لهم . وبدى قائد المئة ، غير مبال أو قلق .

كان هذا الرئيس الصغير مغفلاً ، فقد كان يحتقرنا ، ليزرع فينا الخشية والخوف ، وهو عارف بأنه يمثل قوة عظمى ، تهيمن على نصف العالم ، ولكن إزدياد عدد المتطفلين من البدو ، والحدائين والنبّالة التدمريين ، بدأ يقلقه ، وبدت يده القابضة على لجام ناقته ترتعش . ولا بد أنه خمّن ما يجول بخاطرالبدو ، فبدت عليه الحيرة ، ومرّ بيده على جبهته كحركة تنم عن قدح تفكيره للخلاص من هذا المأزق ، والنجاة بحياته ، وتعلقت بالأمل ، الذي سرعان ما إنهار ، عندما التفت والدي الى الجموع ، وصرخ آمراً برفع المعسكر . وبدت ملامح الإرتياح على قائد المئة ، وبحركة سريعة ومضطربة من يده أشار الى جهة الجنوب ، وإبتعد ، يخفره حراسّه من راكبي الجمال ، ولإتقاء إندلاع ثورة من البدو ، ضد هؤلاء المغفلين الحمقى الجاهلين لتركيبة نفسية ومجتمع البدو ، أعلن والدي أمام الجموع أنه المسؤول مسؤولية مباشرة عما حدث ، وعلّل ذلك بأن المكان غير آمن ، وعلينا بلوغ النهر ، فمن سيدفع عنا الأذى في حال تعرضنا للهجوم من عصابات الصحراء ؟ أليسوا هم هؤلاء الذين ندفع لهم أجورهم ، ونحشو أكبادهم بما لذ وطاب من أطايب اللحم والفاكهة ، لقاء هكذا لحظات وتابع ، أنهم كالكلاب التي تدفع الذئاب الغازية عن قطعان الماشية ، فهم كلابنا المدافعون عن ممتلكاتنا ، وحياتنا أثناء الغزو ، فإن ذبحناهم فمن سيدفع عنا أذى الصعاليك فيما لو هوجمنا ؟ وأجابه صوت هادر :

ـ «أنا» أجاب زبّاي .

وبدأ الناس في تحميل البضائع والأحمال على ظهور الجمال والدواب وإنطلقنا . في تلك الليلة غط والدي في سبات عميق ، وشخّر ، بينما كنت لا أزال مستيقظة أبكي .

● كان الرمل الرمادي ، يمتد حتى خط الأفق ، ولكن الأفق ، كان في تراجع يوماً بعد يوم . وبدأت طبيعة الأرض في التغيّر ، فمن كتل صخرية سوداء ، متناثرة هنا وهناك ، مدرعة بالشمس اللمّاعة . إلى وهج الحرّ المتراقص على ذرىٰ سطح الأرض ، فكان الضياء يحرّق مقلتي ، بينما الهواء يشقق شفتي الجافتين . وكنت أنتزع من وجهي المتقشر قطعاً صغيرة من الجلد الذي كنت ألفلفه بأصبعي وكأنه طرف وشاح . ومع ذلك ، لم أبدِ أي تذمر أو سخط ، وكنت أرفض تغطية رأسي كما كانت تفعل «مباركة» ، وكأنها قطعة من القماش ، يخرج منها الأسف ويتعالىٰ التذمر ، وطلبات موجهة إلى جن غامضة ، كانت تناديهم بأسمائهم . وقد حدث لنا أن لاحظنا هيكلاً عظمياً ، برّاقاً ، وكأنه قطعة منحوتة من العاج الكبير . لناقة ، كانت قد ولّت الأدبار من أحد القوافل المشابهة لقافلتنا . وقد انتهى بها الأمر الى الفناء ، بعد ان انفجر قلبها . وأثناء ذلك كان القياديون يعملون على شد الحبال على الأحمال ، ويحرضون الدواب ، بأصواتهم العالية ، ويسوطون المتباطىء منها ، والتي جرحت من شفارة حجارة الصوان الحادة .

ـ بدىٰ لي والدي ، أنه قد نسي الحادث الذي تعرض له مع قائد المئة الروماني . وبدون شك فإن الإهانة التي تعرض لها ، قد أهال عليها التراب ، حتى مجيء اللحظة المناسبة لنبشها من القبر . وبالرغم من سوط الشمس لوالدي على عنقه ، وفي عينيه ، إلا أنه كان يتجالد ويظهر البشاشة ، والمعاملة الحسنة للجميع وكانت فضوليتي ، هي الشيء الوحيد الذي استطاع فرز الشك من اليقين ، والوصول الى التنبؤ بوجود الحمّىٰ تحت جلده النحاسي الذي تغيّر لونه ولقد تمنيت أن أراه ، أقل ألماً ومعاناة من الظمأ وأشد امتعاضاً وألماً من حادثة قائد المئة الروماني . وإذا ما طلب ماءً ، يزيد عن حصته ، فإن أحداً لن يهمس في الخفاء . لرؤية قائد القافلة الأكبر يشرب زيادة من الماء عن الآخرين ، ولكنه لم يتجاهل أبداً بأن حياة الصحراء ، تتطلب قانوناً يجب تطبيقه على الجميع سواسية

دون تفريق بين حادي عيس ، أو قائد القافلة الأكبر . وبالرغم من انعكاس الشمس عن سجادة سرجه اللامعة والمتميزة عن بقية الركب فإن عضو مجلس شيوخ تدمر كان يقاسم ذات المصير للآخرين من الحدائين أو الخدم . وقد عاد إفتخاري به ، عندما دققت النظر إليه ، فرأيت في وجهه ، وجه كهل ذو عينين جاحظتين ، فرققت له ، عندما أدركت حجم وخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقه . وبدون شك ، إن استطاع قيادة القافلة حتى مدينة «**ڤولوجيزياد**» ، والعودة إلى تدمر ، بأحمال وبضائع ثمينة ، فإن تمثالاً سينصب له على أكبر ساحة ، كما تم ذات الفعل بالنسبة لتجار عظام آخرين سبقوه بعبقرية القيادة ، وأخذوا على أنفسهم إتمام المهمة الخطرة ، والوصول الصعب حتى حدود الخليج الجنوبي ، لبلاد بابل . ومما استرعى إنتباهي أن والدي ، لم يعد يعطي الأمر بالمبيت ، إلا بعد استشارة ذلك القائد الروماني الصغير حرصاً منه على القافلة ، وراحة من يرافقونها وكي لا ينصرف الاهتمام إلى معارك جانبية مع كتيبة الحراسة الرومانية ، علماً أن خبرتنا في مسالك ومجاهل الصحراء تتفوق بكثير عن هؤلاء غير المعروفة أنسابهم أو أمهاتهم . فهم بلا جذور حضارية أو عائلية منسوبة .

وكانت محطة الاستراحة المسائية ، هي أفضل الليالي ، توقفنا على مقربة من بعض حفر المياه المغطاة بطبقة رقيقة من الرمال وقد علّمت بعلامات من قبل رجال القوافل فأسرع كل شخص الى الينبوع وأصواتهم تملأ المكان : «الماء !» . وبعد أن ملئت قُرَب المياه ، داست الدواب لمدة طويلة على الرمل الوحلي ، وبفضل جذور النباتات الشوكية ، المجموعة خلال النهار أشعلت النيران لطهي قطع كبيرة من اللحم المقدد من جملين كانا على وشك النفوق ، جراء الدوار الذي أصابهم ، وحرصاً على عدم تركهم يعانون سكرات الموت . كان لزاماً على قائد القافلة إعطاء الأمر بالإجهاز عليهم للاستفادة من لحمهما في الطعام .

والتهم الرجال اللحم المشوي ، بصمت ، وبعدها أوى كلٍ منهم الى حفرته الرملية . وفجأة . شق صمت الليل قرقعة طبول ، بإيقاع كان يتعالىٰ شيئاً فشيئاً وكأنه صوت هبوب العاصفة ، وتصادف صوت القرع مع رائحة دهن ، ودخان . وسرعان ما دخل أدلائنا المعسكر ، معلنين بصوت عالٍ بأن ، مدينة

«هيت» سنصلها غداً وهي عبارة عن مرقد على ضفاف الفرات بحيث سننطلق منها مرافقين مجرى النهر حتى مدينة «ڤولو جيزياد» ، وكان هذا النبأ ، عيداً ، واحتفالاً حقيقياً للجميع .

ـ غالباً ، ما تكون ليالي الصحراء باردة ، فمن لحظة غياب الشمس ، تصفر الريح بقوة ، وتصقل الزوابع الرمال ، وتعض السماء على صدوعك وشقوقك .

وهذا المساء ، كان الهواء ، رطباً للغاية ، بحيث أن مشاعري دفعتني للراحة والاسترخاء خارج خيمتنا . واستلقيت على الأرض الرملية ، بإنتظار النعاس . وكانت مباركة قد داعبت وجهي ببعض المراهم المصنوعة من حليب الجمال المعطرة ، برائحة الزهر . وخفت ضجيج الطبول بينما كانت النجوم متناثرة في السماء ، كالبودرة البيضاء . كنت جاهلة بعلوم الفلك ، ولكني كنت عالمة بأن بعض النجوم كانت تحمل أسماء آلهة بابل ، وآشور . وعندما كنت فتاة صغيرة ، كانت العجوز مباركة تحكي لي بأن هذه الأعداد اللامتناهية من الأضواء ماهي في حقيقة الأمر ، إلا نوافذ ، يراقب الأموات من خلالها الأطفال . وألم بي دوار جرّني إلى قعر بئر عظيم ، أزرق ، منقط بأضواء صغيرة . ولمدة لحظات شعرت بأنني سأقع ، وأغيب في أعماق السماء . وكان علي أن أركع على الأرض . بينما كان حراس ، فرقة «بريما ـ أولبيا» يطلقون صيحات إستقبال ، أو إحتجاج بشكل منتظم ومتقطّع ، بحيث كان الحراس الآخرون في الجهة الأخرى من المعسكر يرّدون على صيحاتهم ، محيطين بالمعسكر الغافي في هذا الليل . كان الطقس بديعاً وكأن إله الينابيع كان يرسل إلينا تحياته ، للترحيب بنا ، بحلولٍ أهل ، ووطء سهل .

● عندما أصبحت زوجة أوذينة ، كان وريثه ونسله قد أصبح أكيداً ، منذ ثلاثين سنة ، بواسطة ابنه الأكبر «هيروديان» الذي كان يكرهني ، لأنني أصغر منه سناً ، وينظر إلي ، على أنني السارقة لإرثه من أبيه . وكان يحاول دائماً أن يحصل على النصيب الأكبر من التقدير الذي يغدقه الأب على العائلة بشكل عام . وكنت أنا الوحيدة القادرة على معرفة سبب قبولي بزواجي بهذا الرجل ، الذي قبل أن

يكون اليد اليمنى للرومان ، والإنضواء تحت أوامر حاكم إنطاكية ، ويقوم بمساعدة الفرق الرومانية على استيعاب ، وإمتصاص الهجومات الفارسية الساسانية . وكلّلت جهوده بألقاب الشرف ، وحيط عنقه بميداليات الذهب وهكذا سعى أوذينة على تتويج جهوده بالحصول على لقب أمير تدمر . ولقد كان حسب اعتقادي أكثر تقرباً للرومان ، مما كان عليه والده المرحوم . وهكذا كان زوجي يمثل في نظري كل ما أكره وأبغض في هذا العالم . لأن سوءته كانت في خضوعه لأوامر الرومان ، أكثر من تفاخره بالحصول على السلطة ، التي ما هي إلا إنعكاس لألقاب الشرف التي حاز عليها . وأما إنتساب عائلتي فيعود إلى أمراء وملكات ، إعتلين السلطة السياسية ، بينما كانت عائلة أوذينة ، من مهندسي العمارات والقصور ، كالذي أعيش فيه كسيدة . وكان عشق زوجي للصيد عظيماً ، بحيث أنه كان كثيراً ما يغيب عن تدمر لعدة أيام ، ولا يستقر فيها إلا عندما يشعر بتحرك الفرس ، أو شعوره بالتعب ، فيؤثر الراحة لمدة وجيزة . وأما الاحتلال النبيل ، فإنه لم يثنه أو يشغل تفكيره عن التجارة وتنظيم القوافل ، والذي كان له الفضل الأول في غنى مدينتنا ، ولم يقصّر يوماً في إستدعاء والدي ، لمقابلته ، في منزلنا . وكان يستقبل بالترحاب كبقية رؤوساء عشائر العرب .

وفي رحلات الصيد ، كان أوذينة ينبطح أرضاً ، لمراقبة ثعالب الصحراء ، ولكنه في ذات الوقت ، كان مثّمناً ، ومقدّراً لنعومة الأقمشة ، والسجاد ، والبورسلين ، وأواني الذهب وصحون الفضة ، وكل ما هو فاخر وغالٍ ، عندما يجده عند ضيف أو مسؤول .

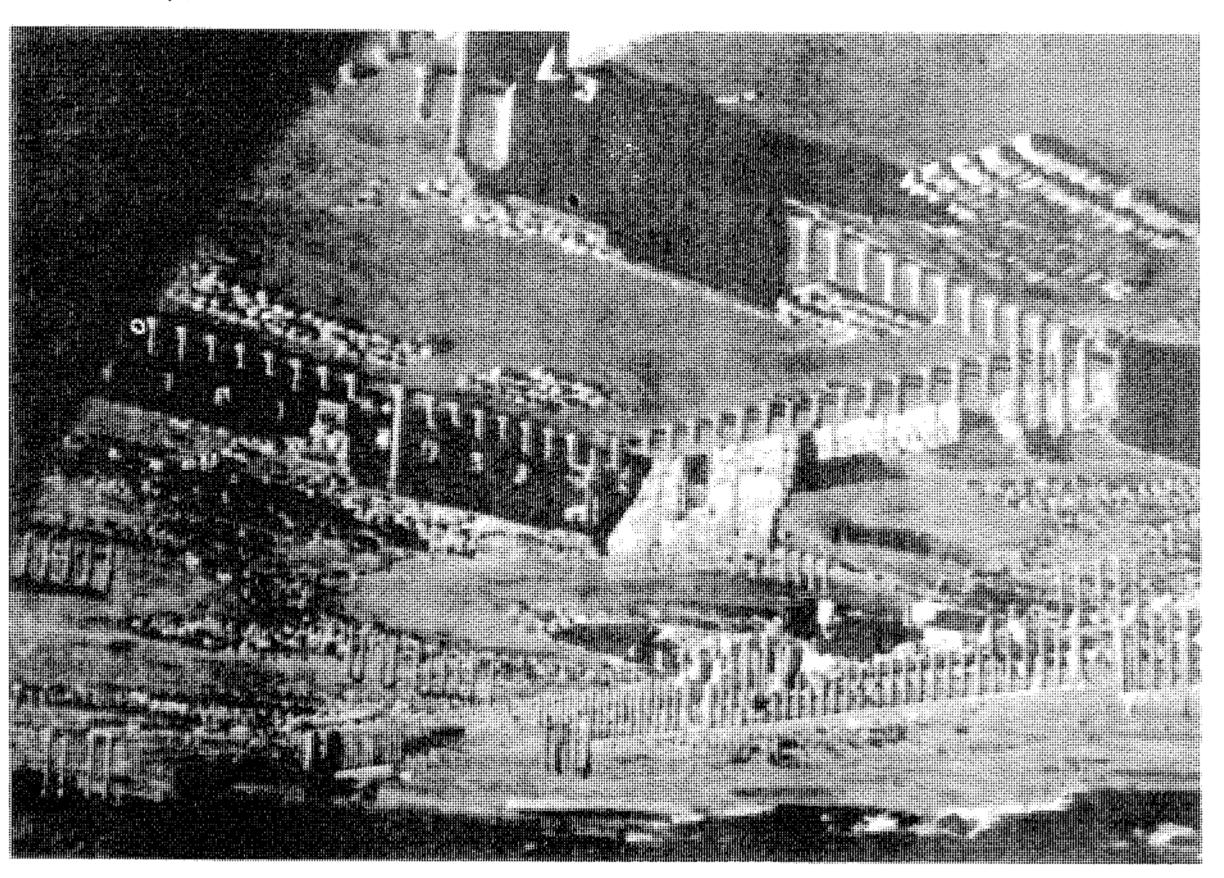
وأما قصص الصيد ، فهي كقصص الحروب تتشابه بمظهرها الطفولي ، ولا تمّتع أي شخص آخر إطلاقاً إلا رواتها . لم أعر أي اهتمام لهذه القصص ولأبطالها الذين يمنّون علينا بحضورهم . بل كنت أفضّل عليها أساطير «**فيرجيل**» . المنشودة بفخم الكلام من المعلم «**كورنيليوس**» . وأما تحفظي ، فلم يمنع «**أوذينة**» ، من أن يتملقني بهذه العذوبة المرعبة عن العملاق الطيب الذي يقوم على إنجازه عن طيب خاطر الكهول من الرجال ، الذين يتملّقون الفتيات الصغيرات . وكان «**أوذينة**» معدوم الثقافة إلا أنه ، كثيراً ما كان يثني على والدي ، ما أنفقه علي من مال ووقت للتعلّم . أما هداياه ، فكنت أحتقرها ، وكثيراً ما رميتها أرضاً ، وإنني

لغير واثقة من أنني كنت أعير إطنابه لي أي إهتمام : ففي سن الثانية عشرة ، لا نزال يافعات ، ولكننا نساء صغيرات منذ وقت طويل . ومنذ عدة أسابيع مضت في تدمر ، إختفى فجأة ، ولقد خمنت أن حاكم إنطاكية قد استدعاه لأحد الأسباب التالية :

فإما أنه قد أوكل إليه قيادة مجموعات من جنود الإحتياط للقتال في منطقة ما بين النهرين ضد الفرس . وإما أنه قد أومأ إليه بمكان تجمع بعض العناصر أو المجموعات الخارجة على القانون الروماني بقصد سحقها والقضاء عليها . وإن إدارة البلاد لم يطرأ عليها أي تغيير ، لأن روما قد عهدت بتصريف أمور البلاد والعباد ليدين جشعتين لحاكم أخرق بما فيه الكفاية . بإعتبار أنه لا يوقّع على أي مرسوم صادر إلا باسم «أوذينة» ولا يطلب من أعضاء مجلس الشيوخ للإجتماع إلا لإستشارتهم حول أمور بغير ذات أهمية تذكر من الناحية السياسية .

وعندما عاد أمير تدمر مكللاً بالغار أقام والدي حفلاً على شرفه . بينما قام «أوذينة» بتقديم جلود من الحيوانات الفاخرة ، حيث بيعت بأسعار من الذهب . وقد قدم لي عدداً من الأقراط ، والعقود ، والأساور ، المرصعة بشتى الأنواع من الأحجار الكريمة ، وقد قبلتهم بوجه مقطب وعابس ، بحيث أن هيئتي بعثت في نفسه القهقهة والضحك .

● لم أمضِ وقتاً طويلاً ، في فهم العلاقة ، والمصير الذي إحتفظا لي به هذين المتواطئين . وللحقيقة أقول ، بأنني أعتقد أن والدي كان يفضل عدم طرح الاستفهامات حول المظاهر غير السارة لعلاقة كان يتمناها سراً في نفسه . وفي هذا المجال ، كثيراً ما كانت «مباركة» تهمس في أذني ، بأنه وإن كان الكهول من الرجال أكثر شكاً وريبة من الشبان ، فإنهم أيضاً أكثر سخاء وأوسع حلماً ، وغالباً ، ما يكونون أثرياء . وهم ما يكادون يبدأون أعمالهم حتى يتركوها ليلهوا في لعب «العظيمات الرقمية» ، وسرعان ما يتركوا ورائهم بعد وقت قصير ، أرملة شابة ، سعيدة في عيشها ، وبالطريقة التي تختارها ومهيئة بشكل أفضل من غيرها في مزايا وأسرار الحب . وأتسائل كثيراً ، من أين لهذه المباركة هذه المعلومات ؟ ولقد فكرت دائماً ، بأنها ولدت عجوزاً ، وقد هيأها القدره لتكون في خدمتي ،



وتحت تصرفي . ولم أستطع يوماً تخيلها شابة ، لربما جميلة نعم ، ومتبوعة بنظرات بعض الرجال . وأما رؤيتها الأساسية والمبدئية للحياة اليومية ، فلم تكن ، خلّاقة ، ولا حديثة ، وبدون خطأ . ولقد درجنا على هذه العادات في تدمر ، وفي إنطاكية ، وسلوقية ، وبابل ، وفي جميع الوطن الشرقي العظيم ، حيث ان كل فرد ، يعلم ما خلفّه الأقدمون وخاصة جدّنا الأكبر «إبراهيم الخليل» «ع» .

ـ منذ اثني عشرة سنة قبل ولادتي ، استطاع الفرس دفع البارثيين نحو تخوم الشمال ، وكان ذلك العمل شيئاً جديداً وخلّاقاً . وهكذا استطاعوا التخلص من أعدائهم القدامى ، ولكن الرومان ، لم يرعوا شيئاً من هؤلاء القادمين الجدد «الفرس» ، لأنهم سرعان ما احتلوا الأراضي التي كانت تحت أُمرة القوانين الرومانية . وقد غمر اللاجؤون آسيا ، وبلاد ما بين النهرين حيث اكتسحت بالجيوش الجرارة . أما طيسفون فكانت محاصرة ، وهكذا اشتعلت النيران في الشرق ، جراء العصيان ، الذي انتشر انتشار النار في الهشيم في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وكانت هذه الحوادث قد أضرّت بسمعة السلام الروماني . وتوصل قواد الجيوش إلى إعادة انشاء مواقعهم الحصينة ، برفع مستوى الأرض من الرواسب ، وسد الثغرات التي فتحت على حدود الدانوب والراين ، والفرات أو حتى على حدود نهر العاصي ، وحشدوا لذلك جيوشاً جمعوها من الجيوش الاحتياطية المرابطة في بلاد الغال ، واسبانيا وموريتانيا ، وسورية وبقية بلادنا العربية ، ومن سنة إلى أخرى ، أتلف هذا الوضع المضطرب تجارة القوافل وانتهى الأمر بالفرس إلىٰ الإقامة على نهر الفرات حتى مصباته في الخليج لبلاد ما بين النهرين ، ولهذا كان لا بد من التفاوض مع ملكهم «سابور» بغية تأمين سلامة الطريق التجاري للقوافل حتى نهر الفرات وخاصة وان تجارة القوافل هي ثروة تدمر .

أما جرأة الفرس فلم تعرف الحدود ، فوصلوا حتى إنطاكية ، ووصلوا إلى ضواحيها ولم يخرجوا منها إلا بعد تدخل الفرق الخفيفة التدمرية من رماة السهام .

شغلت الحرب أوذينة الآن أكثر من الصيد وبدا مزاجه عكراً ، وخاصة في كل مرة كان يعود فيها إلى تدمر .

أما والدي ، فكان كثيراً ما يستدعىٰ إلى قصر «أوذينة» لتدور في غرفه المقفلة الأحاديث عن الحرب والتجارة والسلام . وكان القلق يساور أوذينة من تخلل وتضعضع الفرق الرومانية من الصداقات التي تجري مع الفرسان البارثيين المدرعين بالحديد والذين انضموا إلى الجيش الفارسي .

ومن المعروف أن فرسان تدمر من النبّالة ، هم من أكثر الفرق معرفة بأساليب الكرّ والفرّ ، والإنتشار والتجمع ، فهي فرق خفيفة ، وأفضل بكثير من الجيوش النظامية ثقيلة الحركة . فكانت فرقنا بعد تدخلها ضد الفرس في انطاكية ، لم تصب بأية خسائر تذكر ، بينما الخسائر الجسيمة فقد مني بها الجيش الروماني ، ولم يجد النجاة إلا في الفرار ، والتيه شتاتاً في الأراضي الضائعة المجهولة .

ـ وبدأ القلق يساور تجار تدمر ، حيث كان وقع المعارك ثقيلاً عليهم : فالملك «**سابور**» كان قد أرسل إلى مجلس شيوخنا قراراً بمنع سلوك الطريق التجاري نحو الفرات ، وذلك يعني أن تجارة قوافل تدمر قد توقفت عن التصريح لها بالعبور حتى الفرات . وهذا يعني أيضاً الأمير «**أوذينة**» الذي يملك حصة كبيرة من هذه التجارة . وهكذا أصبحنا مهددين في عقر دارنا ، خشية اجتياح الفرس لنا في أية لحظة لسلب ثروات مدينتنا وكنوزها . فالذهب الذي كنا ندفعه لهم ، كان يعود بالفائدة على زبائننا ، أما الآن ، فإن جشع سابور قد تجاوز حتى هذا الأمر . وكانت هذه الأحاديث عن الحرب والسلام تمتعني أكثر من الشعر أو الخطابة ، أو حتى دروس التاريخ . أما دروس الخطابة ، فكانت تسمح لي الآن وقد بلغت سن الثامنة عشرة من التعبير عن أي موضوع أشاء بسهولة ويسر .

وسمحت لي هذه الأحداث بالتعرف على أمور العامة . فالكراهية ليست عمياء ، فهي تجر إلى دراسة نقاط الضعف في الخصم ، للإجهاز عليه بأفضل الوسائل وبقوة . ولقد وعيت على كل هذه العلاقات المتشابكة اليومية السياسية والتجارية التي تنظم حياتنا في تدمر . وقد قدرت عزلة والدي ، فهو كان يحسب قيمة الهدايا من البضائع المرسلة للقبائل المقاتلة ، وجنود سابور ، ووزرائه كهدايا للتعبير عن حسن النية . ولقد شبهت دوران القافلة بدوران الناعورة التي تحمل

الماء والحياة إلى بساتين وحدائق تدمر . فالقافلة تحمل الخير والحياة للجميع . وأما في الوقت الراهن ، فالخشية من مفاجآت الأوضاع العسكرية يهدد تاريخ وحياة القوافل ، وبدى في الأفق أن عهد القوافل قد قارب على الإنتهاء والتلاشي .

ـ كان أوذينة متردداً بشكل دائم ، وكان يوازي ما بين الفريقين ، فهو قد أركن ثقته في النصر الروماني لأنه مستعبد لهذا النصر أكثر من الامبراطور ڤاليريان المشغول في حروبه على نهر الراين والدانوب . وكان أوذينة في مواجهة السيل الفارسي ، الذي لا تستطيع فرقنا التدمرية الخفيفة من النبّالة الرد عليه بشكل حاسم . أما إذا انتقل إلى معسكر سابور ، وانتصرت روما فإن هذا سيفقده ألقاب الشرف والمزايا التي أغدقها عليه الامبراطور . وهذا يعني نهاية حياته السياسية والتجارية .

وأما بالنسبة إلى التجار ، فلم يعد بالإمكان تنظيم قوافل جديدة إلى «ڤولو جيزياد» للتفاوض مع جنود سابور ووسائطه .

ـ أنا زينب ابنة عمرو ، أفكر بأن قدر تدمر يجب أن لا يعتمد على مصير مكتوب بولائها لأحد هذين القطبين .

ـ لقد حانت اللحظة التي يجب أن نعتمد فيها على أنفسنا وذاتنا ، والقيام بمحاولة طرد الرومان ، أو على الأقل التخلص من وصايتهم علينا . ولقد أفهمني كتاب تاريخ الأغريق واللاتين ، حول كيفية ولادة الامبراطوريات ولماذا تندثر ، ولماذا تقام التماثيل للمواطنين المشهورين ، ولماذا نرميهم أرضاً وكيف تتكاثر الآلهة في المعابد ولماذا تختفي الأساطير فجأة .

وعوضاً عن أن ننغلق في قوقعة من الآجر الهش ونخشى الإختيار الذي لن يرضي أحداً ، لروما أو طيسفون ، فلماذا لا نختار تدمر وأوذينة ؟

ولقد أسريت بهذا القول لوالدي . وعندما فكر والدي بإحتمالية العصيان ضد روما ، فقد توقف قلبه عن الخفقان . ولقد رأى نفسه مجرداً من كل ما حققه من ألقاب الشرف ، والسيناتورية ، ومحروماً من المنافع المادية ، ومحطماً ، بلا قوة ، ومتوضعاً في عدم إحتمالية الانطلاق ثانية لهذين المحركين اللذين قاداه إلى عتبة الكهولة الذهبية . فتذوق ألقاب الشرف بالنسبة له لهي أهم من النقود .

ولقد أصابته نوبة من الألم الداخلي ، فرفع يده إلى خاصرته ليسّكن الألم . ولقد آثر عدم الزواج ثانية وتحمل العيش أرملاً ، بغية تربية طفلته وكأنها فتاة رومانية من عائلة كبيرة ، ألهذا عانى الأمرين خلال حياته لتنطلق الآن بهذه الأقوال ؟ فيوماً ما ، سينفض جميع الأولياء ، ذكرى تضحياتهم وسيندبون جحود أطفالهم ، وكأن هؤلاء يدينون لهم ببعض الإحسان ، لأنهم أعطوهم الحياة .

لم أغادر مكاني أبداً ، ولمدة عدة أيام لم يخاطبني والدي ، ولكن صمته كان يخيم علينا نحن الاثنين ويربض على تفكيرنا ، وكأنه كمثل قارب ، يصطرع فيه الحنان والقلق ، وانتهى به الأمر أخيراً لأشرح له بماذا قصدت بقولي لكلمتي «أوذنية ، وتدمر» لقد كان هذا التفسير هو الذي يؤرقه ، ولقد حدثت حوادث غير متوقعة ، لم تكن في الحسبان ، بحيث أنها سهلت لي تطور نقاشي . فلقد أتى رسول من حاكم انطاكية ، وصل إلى المدينة ليعلن لحاكم تدمر ، بأن الفرس قد غزوا ثانية أعالي نهر العاصي ، وهم يسيرون الآن باتجاه انطاكية . فعلى جميع القوات الرومانية المرابطة إذاً في تدمر أن تتوجه دون تأخير نحو العاصمة السورية ولم يخف والدي أبداً ما يقلقه ، فقد أعلن أمامي هذا الخبر ، بصوت يخلو من أي لحن . وبخبث فقد سخرت من هيئته المضطربة ، وأمسكت بيده لأقوده إلى سطح منزلنا الذي كان يشرف على أسوار المدينة ، حيث يمكننا كشف الإنشاءات العسكرية للفرقة السادسة عشر ، فلافيا ـ فيرما . وخيم على المكان جلبة وضوضاء كبيرتين ، فبعض الجنود في لباس الحرب يركضون هنا ، ويتجمعون هناك ، وعربات تحمّل بأدوات القتال وبغال يشدّ عليها ماكينات الحرب . ولقد سمعت صوت البوق الحاد ، وسرعان ما إجتازت المجموعة الأولى ، بوابة المعسكر . جنود يعتمرون القبعات المعدنية ، ويحيطون صدورهم بألبسة من الجلد ، المطرز عند الأكتاف بمسامير فولاذية . وسيف في وسط نطاق المحارب ، ولقد إختفت القوات العسكرية في سحابة عظيمة من الغبار ، بحيث كان ما يزال يصل إلى أسماعنا صوت عجلات عرباتهم وصراخ رؤوساء المجموعات الصغيرة ، ومشيتهم الموزونة . وبعد ساعتين كان المعسكر الروماني خاوياً ولم يبق في المدينة إلا بضعة جنود لتأمين الحراسة الشخصية للحاكم . ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الصراخ

فرحاً ، بينما لجأ والدي إلى محاولات تهدئة حماستي ، فلقد قال لي بصوت يحمل في طياته الوعيد ، بأن تدمر ستكون من الآن وصاعداً تحت رحمة الفرس . ولقد هززت كتفي بغير مبالاة . فمجرد مغادرة القوات لثكناتهم ، لا يعني أن الرومان أرادوا إعطاء الفرصة لأوذينة غير المرغوبة للإتحاد ثانية مع الملك سابور ، لمساعدته ليغادر انطاكية ، وبالتالي السماح لقوافلنا ، بأخذ الطريق ثانية لخليج بلاد ما بين النهرين .

كل هذا غير ممكن ، ولم يكن ممكناً . ولكن يحصل في حياة الإنسان ، أو في تاريخ شعب لحظة ، يكون فيها كل شيء ممكناً .

فأي عرّاف كان في استطاعته أيام «تراجان العظيم» أو «هادريان» التنبؤ بإمكانية سقوط الحكومة الرومانية قريباً بين يدي أفريقي .

وتبعه بعد ذلك السلالة السورية ، وهل استطاع أحد التهكن بوصول ضابط صغير عربي من جنوب سورية ، حيث ولد في قرية نائية من الجنوب السوري «**شهبا**» ليحتفل بالعيد الألف ، لتأسيس روما ، بعد أن ارتدى اللباس الإمبراطوري ؟

فالقدر ليس إلا سباقاً للأحداث الواجب القبض عليها أو المعاناة منها . ولقد كنت متأكدة من أن أوذينة لن يعير فرسانه من النبّالة إلى الحاكم ، وسيفهم بأن حامٍ بدون قوة عسكرية ليس إلا كلباً أضاع أنيابه الجيدة للقتل . ولوسف يعلن استقلال تدمر أنا وهو ، ويمكننا خلق دولة جديدة على أنقاض الامبراطوية الرومانية المنهارة . كان والدي ينظر إلي بدون أن يبدو أنه يعرفني فهو لم يفهم الغضب أبداً ، أو الاحتقار ، أو غضب طفولتي ، وعندما رأيته يخر ساجداً أمام الرجال الذين هم أكثر حقارة له والمؤطرين للقوة الرومانية .

كان دوري في الرغبة بطمأنته ، فأحنيت رأسي في ابتسامة ، سترتها بشكل طفولي ، وقلت له بأنه لما يسعدني طواعية أن أصبح زوجة أوذينة فيما لو فكر صدفة أنه يريد الزواج مني .

فاعتلت صبغة قرمزية وجهه ، ثم بدى سعيداً فجأة . ففتح والدي ذراعيه على مداهما ، وسارعت إليه كما يتطلب الموقف بحركة مسرحية كوميدية عائلية إلى

صدره فاعتصرني حباً ، وعوضاً من أن يلهج ببضعة كلمان من الحنان ، التي كنت بحاجة إليها وكنت أتمناها ، همس بصوت خافت باسم المقطعين اللذين أحملهما اليوم .

«سبتيما - زنوبيا» .

- وبعد أن رافق رحيل الفرقة السادسة عشرة ، عاد أوذينة إلى قصره ، وارتأى أن لا يجيب على رسالة الحاكم التي طلب فيها منه إرسال خيالته للدفاع عن إنطاكية التي تتعرض للغزو ثانية من قبل الفرس . كـان أوذينة محاصراً بالتجار الذين كانوا يضغطون عليه للبقاء حيادياً حتى اللحظة التي يمكن فيها الإسراع إلى نجدة المنتصر بدون أية عواقب وخيمة وخطيرة . فالسلاح هو الذي يقرر من هو المنتصر . وجاء إلى والدي ليسر له بتردده ، وليبحث بدون شك بالقرب من رجل إنتشرت سمعته وأُشتهر عنه حذره وحيطته ، وليجد عنده بعض المبررات لصمت لا يجرؤ على تسميته بأنه رفض . وعندما إجتاز عتبة باب منزلنا ، كان يجهل أن مضيفه كان يتحـرّق شوقاً ليعلمه بالأخبار الحسنة عن قبولي بالزواج منه . أما مباحثاتهم فكانت طويلة ، وسمحت لي بالتالي بالانعزال في غرفتي ، والتمحيص في مشروعي ، وتخيله ، ولكي أحّضر المبررات . وعندما استدعاني والدي كنت قد توصلت إلى تشكيل وجهي على هيئة الشخصيات التراجيدية .

وبالكاد ألقيت التحية على أوذينة ، بحيث أن والدي سارع لإعلامي بالخبر الذي لم أكن لأشك فيه ، وعلى أن أمير تدمر له الشرف في أن يتقرب من عائلة التاجر عمرو ويطلب يد زنوبيا للزواج .

خفضت رأسي بحركة إستحياء ، وصبغت وجنتي بلون أحمر ، ولعبت دوري كما يجب ، فأسلمت جبيني لوالدي ليقوم بتقبيله ، وهمس بأني كنت على استعداد للإنصياع لإرادته كما هي الرغبة المعبر عنها من قبل سيدنا أوذينة . وهذا الأخير ، كان قد عرفني عندما كنت لا أزال بين يدي مرضعتي ، وكثيراً ما قام بمداعبتي على ركبتيه ، قبل أن ينظر إلي نظرة رجل إلى امرأة . فكان ينظر إلى نظرة حرج وخجل ، بينما قدم له والدي خابية من النبيذ وأكواب من الفضة ، وقام بدوره بتقبيلي ، بشفاه منتصرة بعض الشيء ، إلا أنني لم أعر ذلك أي إعتبار .

إنني أحب نبيذ إنطاكية ، هذا السائل الأحمر الثمين ، المعطر ، وهو أفضل من طعم نبيذ تدمر المصنوع من البلح .

وكجندي احتسيت عدة أكواب ، تحت الأنظار القلقة والمندهشة لتصرفي ، ولكنهما سرعان ما إنشغلا ببحث المهر ، وتاريخ موعد الزفاف .

ـ إذاً ربحت الجزء الأول من عملي ، والآن علي أن انتقل إلى المرحلة الأكثر صعوبة ، فأعلنت أمام أوذينة ، بأن موعد زفافنا ، سيكون من الأفضل في يوم عودة الغائبين . حيث أن إحدى قوافلنا ، كانت قد علقت في شاراسين ، عندما أصدر الملك سابور إرادته في منعنا عن طريق القوافل التجاري . وهذا معناه ، قيام أوذينة بعقد تحالف بصيغة ما ، مع الملك سابور لإطلاق سراح التجار التدمريين . ولم يكن أوذينة بأقل حذاقة حتى يقع في فخاخي ، فارتسمت على شفتيه إبتسامة صغيرة ، وقطبّ ما بين حاجبيه . وفهمت أنه يفكر في الآثار الجانبية لقطع علاقته مع روما . وكما يقول الكهول من العسكريين . إن اللحظة المناسبة قد حانت للكشف عن جناح الخيالة لإطلاقه في خضم المعركة وبسرعة كبيرة ، وسرعان ما أعلنت ، أمام أوذينة ، من أن أفضل ما يقوم به ، هو إنقاذ حرية التجارة ، وإنقاذ سيادة تدمر ، وأن روما قد تلقت ضربة جديدة ورهيبة من قبل الفرس الساسانيين ، الذين يسيرون على خطى الفرسان البارثيين .

ـ وبدون شك ، فإن روما قد عانت في تاريخها من إخفاقات أشد من هذه المعركة التي تعاني منها منذ البارحة على ضفاف شمالي العاصي .

ـ فروما تعتقد بالقدر الذي ترسمه الآلهة ، وأن الامبراطورية لا تعتمد مطلقاً على جرأة جندي مرابض على الحدود .

ولذا يجب الإسراع في تعجيل إسقاط جميع هؤلاء الأباطرة مع قناصلهم وجنرالاتهم وأعيانهم في مجلس الشيوخ الذين يفرضون ضريبة الألم والمعاناة على الشعوب ، ويجبرونهم على التعرف على حدود يرسمونها ويسرقون منتجات الأرض ، ويسلبون المعابر وينزهون روما عبر العالم في جعبة سيف وأن الرومان ليجدون في نبّالتنا عناصر ممتازة في الدفاع الجيد عن حصونهم المتقدمة .

إن تجار تدمر لهم أفضل نقاشا أثناء إنعقاد جلسات المباحثات مع أمثالهم من الأغريق ، ألم يؤسسوا «بترا» ، ويبعثوا القلق في تجار الإسكندرية ؟ فما الذي يهمنا فيما لو أضعنا السوق الروماني أو المرسيلي «نسبة إلى مدينة مرسيليا الساحلية» في حين ستصبح طيسفون وإنطاكية ، أعظم عاصمتين على سطح الأرض ؟

فالإسكندر المقدوني ، عندما بدأ يوّسع من إمبراطوريته ، ترى أكان يمتلك كنوزاً ، لتمويل حملاته العسكرية ، وقد أسس أوسع امبراطورية بجنوده الثلاثين ألفاً ؟ فبعد قتالنا إلى جانب الملك سابور ، سنصبح يوماً ما أقوياء بما فيه الكفاية للتحدث مع الساسانيين كالند للند ، ولا شيء يمنعنا من الهجوم على ثكناتهم ، وإجبارهم على الإتحاد معنا ، للسير نحو روما . وأضيف بأن معاهدات التحالف ، هي دائماً مؤقتة ، فليس هناك من صديق أو عدو ، أبدي ، ومعركة تقاد شراكة . ستحمل في نهاية المطاف المنفعة للمنتصر ، وذلك لأن النصر لا يقبل التجزئة . ترى ، هل ينتظر أوذينة ، ذبح أفضل أبناء تدمر ، بالمعارك الطاحنة الجارية الآن ، عند ضفاف نهر الراين ، ومصبات الدانوب ؟

- ألم يؤسس الامبراطور ، «سبتم - سيڤير» عرش الامبراطورية للسلالة السورية التي عدّت بأربعة أباطرة ؟ إن الحظ لم يبتسم أبداً إلا لاولئك الذين عرفوا كيف يوقعونه ، أم هل نبقى متأرجحين في عبوديتنا ، بين حثالات البشر - الرومان أو الفرس ؟

وعندما أفكر بأنه فيما لو سمع مقالي هذا أستاذي في اللاتينية ومعلمي «كورنيليوس» فأنهم سيصعقون بلا شك . لقد كانت قصص : «سيبيون ، وماريوس ، وسيزار» أقل إمتاعاً لي من قصص وأخبار البطل السوري «هانيبال أو جوكارتا ، أو ڤيرسين - جيتوريكس» . فعلى الأقل استفدت من دروس وعبر تجاربهم ، ولكني بنفس الوقت لا أشك بأن قوة اللغة الممزوجة بتأرجح العصور ، يعطي قوة سحرية تهيمن على البشر من أبناء شعبنا . ولكن التأثير تجاوز آمالي . فمنذ الغد ، سيرسل أوذينة ، إلى الملك سابور رسولاً ، يخبره فيها بأنه أخذ عهداً أمام الآلهة بأن جيوش تدمر ، وذاته شخصياً لن يحملا السلاح مطلقاً في وجه الفرس .

وهكذا ستتحرر القافلة المتوقفة في «شاراسين» لتعود إلى طرق طريق الصحراء وكان موعد رجوعها ، هو ذات موعد يوم زفافنا .

وقبل بضعة أيام من وصول قافلة الجمال ، بحيث أن موعد وصولها قد حمله إلينا رسول منها ، إحتفل الجميع بخطبتنا حسب العادت والتقاليد المتبعة في مدينتنا . وقد توجه أوذينة بالكلام إلى والدي ، سائلاً إياه ، فيما إذا كان يسمح له بإعطائه إبنته للزواج منها ، فأجابه والدي ، كما تتطلبه العادات :

«إنني أعطيك إبنتي الغالية ، فإن هذا لمما يسعدني ، ويسعدك ويسعدها» .

فأخذ أوذينة خاتماً من الذهب ، فمرره في أصبع يدي اليسرى ، وذلك حسب القول الشائع لبعض الجراحين ، من أن هناك عصباً يربط ما بين البنصر ، والقلب ، وقدم لي بعد ذلك عقداً من الزمرد والمجوهرات . لقد أصبحت رسمياً ، خطيبة أمير البلاد ـ تدمر . .

ـ كان هناك اسبوعان ، لا يزالان يفصلان موعد زفافي . ولقد إغتمنت فرصتي ، فأمضيتها في الأسواق ، المقامة تحت الأبواب الرئيسية لمدينتنا ، حيث يعرض فيها التجار ، من نفيس البضائع الشيء الكثير . ولقد أحببت كثيراً التنزه وحيدة ، بملء حريتي ، في مدينة الشمس هذه ، المرصعة بكتل الرخام الملون ، من السماقي ، إلى الأعمدة ذات اللون الذهبي إلى المعابد المزينة بألواح البرونز ، إلى طرقاتها الواسعة الممتدة حتى واحاتها ، وبساتينها الصغيرة حيث كنا نذهب إليها كل مساء ، لإبتياع مؤونتنا منها من الدراق حتى المشمش ، ومن الباذنجان حتى القرع واليقطين ، ونبترد بالقرب من ينابيعها متأملين ألوان الجبال الزرقاء التي تغلق الأفق فوق الأسوار .

ومنذ وقت طويل ، كففت عن النظر إلى التماثيل ، وأنصاف التماثيل ، والنحوتات البارزة من جدران المعابد . تناسيت أقوالي لأوذينة ، وأغرقت يدي في الحرير الصيني ، والحلي الفارسية ، والأقمشة الهندية ، والأثواب الإسكندرانية ، والحرير الدامسكي ، وتأخرت في المحال حيث كانت تعرض المجوهرات البابلية ، وعقود اللؤلؤ ، والأكواب المنقوشة ، ومزهريات بألوان قوس قزح ، وولجت إلى داخل محلات الأقباط ، حيث كانت تبيع علب للمراهم مصنوعة من الخنفساء

ذات أشكال سحرية ، وكرات من العقيق ، وتبر الذهب ، والبخور . ولقد أردت شراء كل شيء ، وحمل كل شيء ، من الصندل إلى أحزمة الخصر . لقد وجدت نفسي غير قادرة على مقاومة كل هذه الإغراءات . وكان غالبية هؤلاء التجار يعرفونني منذ أن كنت صغيرة ، ولكني لم أعد في نظرهم إبنة سيد التجار : بل أصبحت أميرة المستقبل لتدمر ، فأحاطوني بالهدايا الكثيرة والجميلة .

وذهبت للتنزه أيضاً في داخل الأحياء الأكثر شعبية ، هنا ، حيث تعرض سلاسل من غصون الصفصاف . تنوء بأحمالها من الفليفلة الحمراء ، إلى اليقطين ، والتين ، والبلح . ويعبق الجو بالدخان الأزرق المنبعث من قطع اللحم المشوي ، المزوج برائحة الكون ، وعطور السكر من الزلابية المقلي بالزيت الحامي . وقابلت موزعي الماء بأرجلهم النحيلة ، وعبيد سود البشرة من سواحل البحر الأحمر ، يدفعون أمامهم النعام ، ومصريين ، يقبعون في بعض الزوايا ، ليقوموا بألعابهم السحرية ، وبداوة ، ويافعين يعملون في قص الشعر ، وآخرين يقومون بالوشم على البطن ، برسوم شتى ، ورواة الحكايات ، وسحرة الأفاعي ، وفتيات الهوى بعيونهم الكحيلة ، ورأيت بعض الجباة ، يمتطون بغالهم فاتحة الألوان ، وبذقونهم الطويلة المعتنى بها جيداً ، حيث دهشوا لدى التعرّف عليّ فكانت نظراتهم شرهة ، ونادوني بـ«غزالة» . وعلى مبعدة من ذلك ، رأين حوانيت الحدادين الذين يطرقون مختلف الأدوات المعدنية المتوهجة الذين يطرقون مختلف الأدوات المعدنية المتوهجة بالألوان القرمزية ، ثم يضعونها بأوعية الماء الذي يصفر وأمضيت قرابة ما بعد الظهيرة ، بأكمله في التسكع بأحياء الصوّافين ، حيث يغسلون الصوف بعد جزّه ، ويصبغونه بصوفه وجلده بعد إخراجه من دنان الألوان ، فيمدوه ليجف بعد أن يكون مبللاً بسوائل الأصبغة المختلفة . وقبل عودتي إلى منزلي ، إختلطت للمرة الأخيرة بمرتادي الشارع المستقيم ، وكان عليّ إجيتاز عدة أزقة ، تتميز كل منها بروائحها وعطورها المختلفة ، وجدرانها الطويلة البيضاء . حيث شاهدت بعض المارة الصامتين أو الأطفال اللاهين ، الذين يحملون على رؤوسهم سلال الخبز لمنازلهم . هذه المنازل المطرزة بالعيون الوحيدة لرؤوس مسامير ضخمة في أوابها . كان الوقت وقت التسكع ، فالجو يعبق بالحرارة

الثقيلة فكانت المدينة بأجمعها تتمازج في رنينها فمن أحاديث خبيثة لثرثارة هنا ، إلى نقاشات حادة هناك ، إلى ضحك وقهقهة وشجارات ، سرعان ما تخفت . فشعبنا يعرف متعة الشوارع ، ويتمتع بحب المناقشات ، حيث أن كل فرد فينا قد ورث تركة أجداده الآراميين ، بحبهم للمداولة في أسعار السلع ، ونشط هذا الحب عن أبناء عمومته من الفينيقيين ، ملوك التجارة ، وأمراء البحار ، حيث أنه ينفعل بذات الحدة للدفاع عن شرف مرضعته . وتختلط الأعراق ، والألوان واللغات في مدينتنا فمن هيللينيين إلى أغريق ، وآسيويين ، يختلطون بنا ، نحن العرب ، القادمين من نجد ، ومن حوران ، والأرمن يختلطون بالفرس ، والأحباش بالمصريين . إنها تدمر ، بدون قادة الرومان وجيوشهم ، إنها كدينتي الحبيبة كما حلمت بها في ثورات طفولتي .

●بحصار إنطاكية ، من جميع الجهات ، لم يعد بإمكانها المقاومة أمام هجمات الفرس ، فخشينا على القوات من أن لا تستطيع في النهاية من تحرير المدينة . وهذا الإحتمال ، يخشى على أوذينة من فقدانه لموظفيه ، وربما حياته ، ولم تفت الملك سابور إستعماله لعدة طرق ملتوية قصد إفهام الرومان بأن تحالفهم أصبح جاهزاً للنقض .

ولإنقاذ رأسه ، لم يبق على أوذينة إلّا الدخول في المعركة ، بقواته الإضافية التي إلتحمت ، في اللحظة المناسبة ، فتجعل على الغالب من جنرال مهزوم ، جندي منتصر . ولقد عزم على فعل ذلك .

ثلاثون ألف فارس ، من النبّالة المشهود لهم ، بكامل عتادتهم ، إعتلوا نوقهم ، ورأس بنفسه قيادتهم ، بعد زواجنا ، وكان الأمر الملقى عليهم ، مؤازرة الجيش الفارسي ، وسحق العدو المغتصب روما . كانت هذه أجمل هدية زواج لي ، استطاع أن يقدمها إلي حبيبي . ولم أشك مطلقاً بدخولنا إلى إنطاكية ، وهروب اروماني بأرواحهم إلى البحر . وسيكون لنا متسع من الوقت ، لتصفية حساباتنا مع الفرس ، ومع ملكهم سابور .

أُسلمت الساحة الكبرىٰ في تدمر ، للمهندسين ، والرّسامين ومتعهدي مختلف أنواع السجاد ، فتزينت بالأقمشة الثقيلة من اللون الأحمر والذهب

ورسومات من الشمع المنحوت ، تمثل في مختلف جوانبها المشهورين من أجدادنا ، وزينت الحديقة الكبيرة بالجرار الضخمة المصنوعة من البرونز المتوهج بعناقيد أزهار الجيرانيوم حول نبع ماء . وكان السجاد يغطي حجرة الطعام ذات الأسرة الثلاث كما عند الرومان ، كان والدي منشغلاً ، وبرقته المعهودة ، كان يضرب كفاً بكف ، معطياً الأوامر ، ومتأملاً تمثاله النصفي المصنوع من الرخام السماقي ، الذي انتهى العمل منه للتو ، وكان يستعلم من البستاني ، والطباخ ، عن ما تم إنجازه من أوامره . ولم يكن فطناً في إخفاء سروره واعتزازه عن كونه أصبح عم أمير تدمر . ولكن لاح على وجهه أن شيئاً ما يقلقه ، فتشنج وجهه ولكنه كان سيكون أقل انفعالاً بالتأكيد ، فيما لو كانت كل هذه التحضيرات محمية بالتواجد ولو غير المرئي للفرقة السادسة عشرة «فلاڤيا ـ فيرما» وكنت أعتقد بأن والدي سيندم سراً ، لأنه في غير مستطاعه الاعتماد على أعداد مدعووينا ولا قائد الجيش ، ولا حتى الحاكم ، ولا حتى رؤوساء القوافل ، حيث أن لباسهم الرسمي سيعطي الاحتفال هالة أكثر سطوعاً وأشد بريقاً . وكان عليه احتمال وجود جميع الاخوة ، والأعمام ، والأحفاد وأبناء العمومة ، وجميع البدو ، الذين جاؤوا للتخييم في محيط المدينة ، بهذه المناسبة ليتجوّلوا تحت أروقتها ، ويرحبون بالزائرين وكأنهم السادة ، منتظرين بذلك مفيض كرم الأب السعيد للعائلة . فالأهل سواء أكانوا مفلسين ، أم في وضع مادي جيد ، يكونون دائماً زبائن ذلك الذي تبتسم له الثروة ، ويحفظون له في داخلهم احتقاراً أصم .

ـ وفي اليوم الذي سبق موعد احتفالات زواجي فقد أحرقت جميع ألعابي ، حسب عادة قديمة تفرض على الفتيات اليافعات . لفظ كلمة الوداع بدون عودة الى طفولتهم . ومنذ عدة سنوات ، لم ألمس ألعابي . فقد تهشم بعضها وفقد أُخر ، مفاصلهم ، منذ أن وعيت بأن الهيمنة على الناس الكبار ، أشد متعة من ألعابي : فهنا تكمن اللعبة الحقيقية .

وفي اليوم التالي ، أيقظتني مرضعتي في الصباح الباكر ، وأعلنت إلي ، بأن العصافير قد حلّقت في الإتجاه الصحيح . فأصدقائي الثلاثة «مالكة ، ورقية ، وعائشة ، سيصلون قريباً ليحطيونني بعنايتهم والاهتمام بتفاصيل زينتي ، وكن

حريصات جداً بهذه الأمور لكونهن متزوجات منذ بضعة سنوات . أما عجوزي «مباركة» فقد حرصت على تركنا لوحدنا ، من أجل الحمّام الطقسي ، ولكن عندما يعيش الحانوتي بدوره مع أوانيه الخزفية وزجاجاته وملاقطه فإنه يطمس أمام تلك التي جعلت منه شهيراً ذائع الصيت عندما يجدد شباب الوجوه المتعبة من مرور الزمن عليها في تدمر الأبدية ، بالأقنعة الفخارية الممزوجة بالسبيداج ، ويخضب وجنات حديثي الزواج ولم يقتصدوا في زينتي لا في الطبشور على جبيني ، ولا في الصبغة الحمراء على وجنتي ، ولا من أصبغة البحر ، الخاصة بالشفاة ، ولا حتى في صراخ الإعجاب . ولقد ألبسوني ثوباً طويلاً أبيض اللون ، تاركين عنقي وذراعاي عاريتان ، بينما أحيط عنقي بضفيرة غليظة من الذهب وثبّت بنفسي قلادة من الزمرد ، والياقوت كان أوذينة قد قدمها إلي في يوم خطبتنا ، بينما ركعت «مباركة» لعقد رباط حذائي ، وأضاف المزيّن وشاحاً على شعري ، انعقد طرفاه بمشبك من الذهب ، ووضع تاجاً على رأسي من زهور البرتقال . وكنت كأني مهيأة للأضحية بدون مقارنة مع «**إيفيجيني**» فأوذينة لم يكن «**آشيل**» ، كما لم يكن أبي «**أغاممنون**» ، فلقد انتهى عصر الأبطال ، أما بالنسبة لأميرات العرب فلم يكن كذلك .

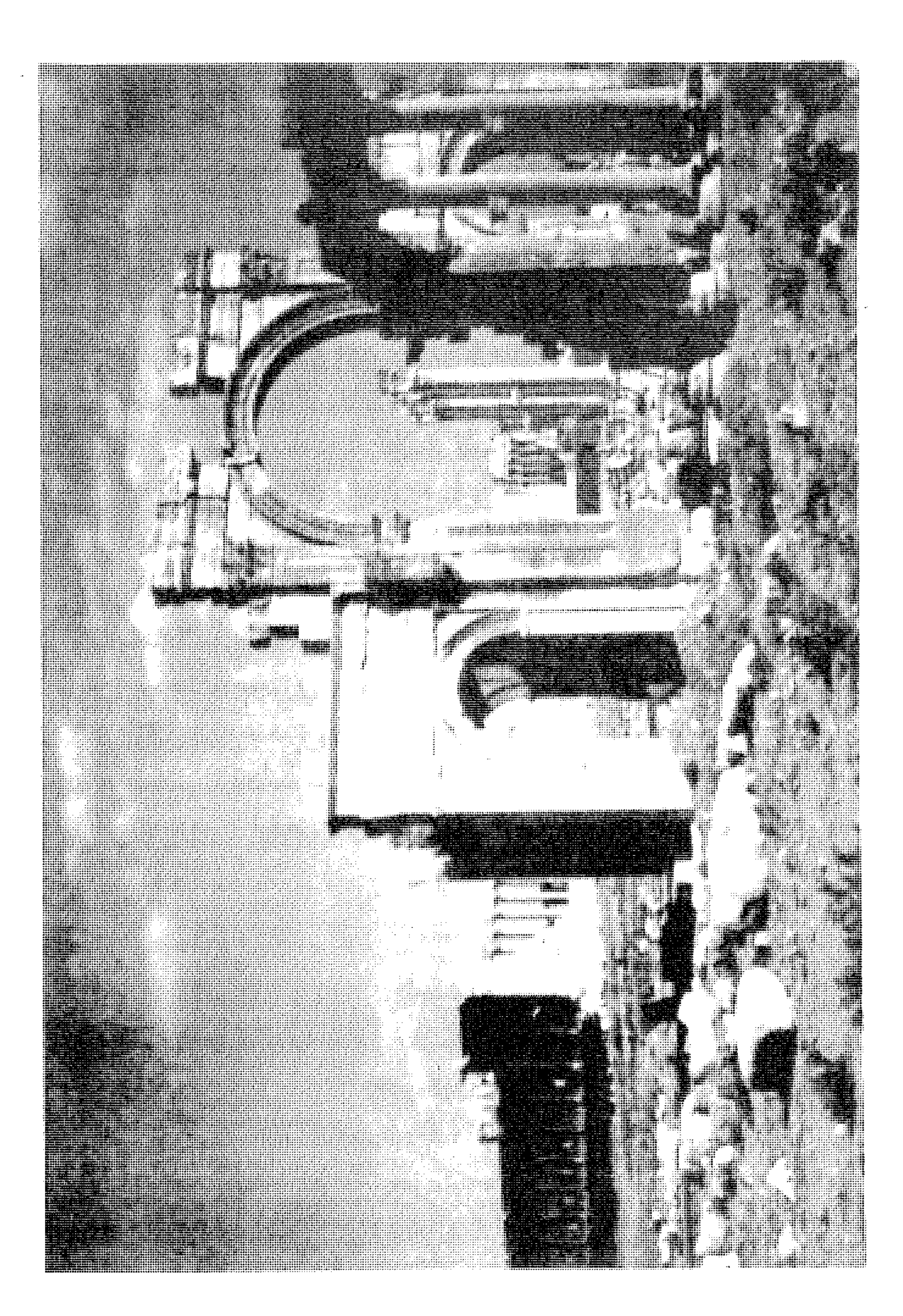
ـ وفي الساحة الداخلية حيث سارعت الجموع ، ومدعوونا ، استقبلني أوذينة . كان مرتدياً نوعاً من اللباس الحربي ، فبدا كأن نصفه روماني ، ونصفه الآخر فارسي . فبدا أكثر يفاعة . أما مقعدينا فكانا بجانب بعضهما البعض وكان لزاماً علي متابعة التضحية بخروف ليتقدم بعدها العرّاف ، لينبش في أحشاء الأضحية عن تأكيدات لاستمرارية سعادتنا ، ورابطتنا .

ولم ألحظ أي شخص به رغبة للضحك ، حتى العرّاف بذاته كان جدياً إلى درجة الكمال ، فالأساطير القديمة لا تزال تقطن بقوة في بلدنا ، حيث تعداد الآلهة يتجاوز تعداد أعراق البشر . وأخذ أوذينة بيدي ، ونظر إليه مباشرة في العينين ، وطرح السؤال التقليدي : «من أنت ؟» فأجبته بجملة وحيدة ، لا تزال منذ قرون تربط كل زوجين في الإمبراطورية «حيثما تكون يا بعلي أكون بعلتك» وتزوجنا . وصرخ الأهل والأصدقاء : تهانينا ! وأحاطوا بنا ، ونادوني «**دومنا ـ سبتيما**» .

● وبقي الترحيب والاحتفاء بنا حتى هبوط الليل ، وحانت لحظة ذهابي الى قصر أوذينة ، فاعتصرني والدي بين ذراعيه ، ورافقنا موكب من حملة المشاعل ، وعازفي الأبواق ، وضاربي الطبول فعبرنا المدينة ، المزدحمة بالأهازيج والأغاني وأثناء مرورنا كانت الجموع الغفيرة تصفق لنا بأيديها ، وكنا نرمي قطعا من النقود واللوز إلى الأطفال .

كان في انتظارنا عند مدخل القصر ، العديد من الخدم ، وعازفي الأبواق ، وحملة المشاعل . وحملني زوجي بين ذراعيه ، كي لا تلمس قدماي عتبة البهو الرئيسي ، وقدم لي طبقاً من الفضة منقوشاً على الطريقة العربية ، وعليه مفتاح ، وبضع قطع من الذهب ، وكان مشعل صغير يتوهج في المكان ، فحملت كأساً من الماء الطهور ، قدمّه إليَّ أوذينة لأسكبه على الملابس ، لإبعاد الأرواح الشريرة ، هذه الأرواح التي لاأؤمن بها ، ولكن من الأفضل عدم تحريضها . وتبعتني ، مالكة ، وعائشة ورقية الى غرفة عرسي ، لنزع وشاحي وتحرير نطاقي ، وتمنوا لي بهمهمة كأنها البقبقة «ليلة سعيدة» .

وبعدها دخل أوذينة ، فقام بما يتوجب عليه الموقف ، وتركني بعدما إنتهى وخرج ، ودخلت عجوزتي «مباركة» لتهدهد رأسي ، كما كانت تفعل بي عندما كنت لا أزال طفلة صغيرة ، وغنت لي ذات الأغنية «أيها النعاس ، تعال تعال ، تعال ، النعاس اللطيف سيأتي ، وستنام زبيدة» . وبعد ثمانية أيام من العرس غادر أوذينة تدمر ، ليلحق بفرقة النبّالة ، الذين كانوا بإنتظاره في معسكر الملك سابور .



قوس الشارع الرئيسي في تدمر

القسم الثاني

أوذينة

لم ترتجف مباركة عندما أعلنت بشكل قاطع بأنني سأضع للعالم طفلاً ذكراً ، فكانت تقود النساء المحيطين بي حيث إختلط نحيبهم بعويلي . فأعطتني يدها ، وأغرزت فيها أظافري ، فمسحت لي العرق المتصبب من وجهي ، وكانت تشجعني على الصراخ بذات الطريقة التي يتم فيها الأمر مع العبيد وذلك لدوزنة طاقاتهم عندما يتوقفون من ثقل الأحمال . وإغتنمت الفرصة لألعن من خلالها أوذينة . وعندما انتهى كل شيء ، إنتشرت النسوة في كافة أرجاء القصر ، لإطلاق زغاريدهن . بينما أرتني مباركة ، والإبتسامة تعلو وجهها ، كرة صغيرة من اللحم الدامي ، الذي كان ولدي ، ولفتّه بالأغطية . ولشدة إنهاكي ، لم أفكر إلا بالنوم ، ولكن عزفاً بعيداً من الطبل ، والأبواق ، منعني من ذلك . وتركت وحيدة في غرفتي ، ممددة على السرير ، حيث لم يعد يلتفت إلى أحد . لقد أتممت واجبي ، فقد ولد أمير صغير لتدمر . ولكن من الذي تنبأ أن عملي بالكاد قد بدأ ؟

ـ أُخطر أوذينة ، برسول يمتطي ناقة بيضاء ووصل تدمر بعد عدة أيام من ولادتي ، فأخذ طفله بين ذراعيه ، ورفعه بيديه فوق رأسه ، ليؤكد حسب العادات

والتقاليد : بأن هذا الطفل الرضيع هو ولده ، ويعترف به إبناً أمام مجمع الآلهة التدمرية ، والسماء وما تحتها ، وأنه قد دعاه بأسمه : «**وهب ـ اللات**» .

وهو إسم عربي ، يعني أنه هبة من الله الجليل . واللات هي أقدم آلهة تدمرية ، فهي بمثابة «**أثينا**» للأغريق ، كما الإله «**بل**» يقابله عند الإغريق «**زوس**» والآلهة هي الأساس في حياة البدو الرُّحل حيث يقدرون فيها قدرتها الخارقة الحامية . والعادة قديمة وغريبة ، في خلط الأعمال العظيمة بالآلهة وبالحيوانات .

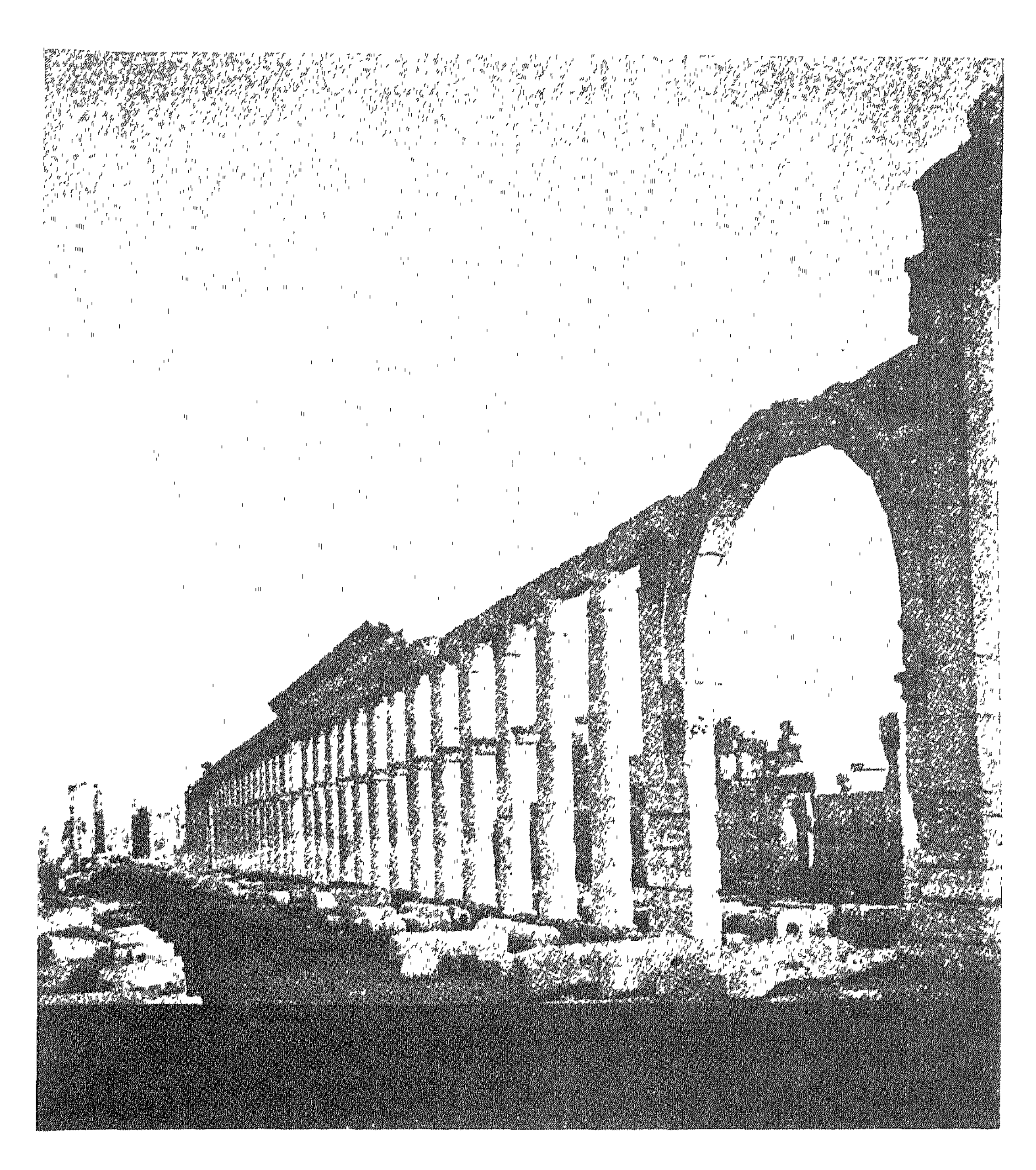
ـ قالت لي مباركة بعد ستة أشهر من ولادتي ، بأنني أم طالحة ، لأنني لا أقلق وأضطرب لصراخ ولدي ، وأصبح في مزاج عكر لدى سماع بكائه . ولم يخطر علي بالي مطلقاً ، بأنه من الضروري أن أكون بذاك الغباء ، لدى سماع صراخ رضيع مشاكس . ففي العائلات ، هناك دائماً الكثير من الجدّات ، والخالات ، والعمات أو العبيد . ليهرعوا ، لدى سماع بكاء طفل ، فيهدهدونه ويمسحون دموعه المتساقطة ، ويحاولون تهدأته ، أو تغيير أغطيته . فالأم لا تحب طفلها ، لأنها حملت به تسعة أشهر في بطنها ، ولكن لأنها تعطيه ثديها ، دمها المختلط بلحمها ، ذلك الثدي ، الذي يربط سرَّ العشق ما بين الطفل وأمه ، وهو يطلبه في كل ساعة ، وتهرع إليه أمه ، لتعطيه إليه في أقل من ذلك .

أما اليوم ، فالأم الحقيقة لـ«**وهب ـ اللات**» مرضعته ، وهي البدوية ذات الأقدام العريضة ، تجرُّ خلفها رائحة نضح عرق إبطها الحامية ، ورائحة اللبن الرائب . وبقي صدري كما هو لفتاة شابة ، لينّ ، ومنتصب ، وكم أحببت النظر إليه ، ولكنه قاحل من العشب .

ـ كانت صديقاتي يأتين لزيارتي من آونة لأخرى كـ«عائشة ، ومالكة ، ورقية» وأخريات كثر . فكانت الأحاديث غالباً ما تدور حول المديح ، فكن يثنين على أثاث قصري ، وبريق عيني ، ونضوج طفلي ، وحسن هندامي ، ولم يخلصني من هذه التفاهات إلا حضور شعرائي ، حيث يروين لهن قصصاً من الحب ، أو حديثاً عن أصول بعض المنسوجات ، فأعمد بدوري إلى تقديم الحلويات لهن ، مع عدة أنواع من الشراب البارد ، فيتثائبن ، وأسرع بعد ذلك إلى إرسالهن لمنازلهن وأنا أودعهم كأميرة .

تحت ضغط الأعداد الكبيرة الهاربة ، نحو فلسطين ، أو الباحثة عن ملجأ على شواطىء البحر الداخلي ، ترك الرومان أخيراً إنطاكية بعد أن يأسوا من عقم دخولها عنوة ، ودخلها الملك سابور بجيوشه منتصراً ، وهو الآن يتربع في سدة الحكم فيها منتشياً كسيد . وعندما رجع أوذينة إلى تدمر ، إستمعت إليه بدون روية ، وهو يقصّ عليّ ، ما جناه ، من مكاسب ، عندما إختار القتال إلى جانب الملك سابور ، كـان أوذينة فخوراً كجندي حقق إنتصاراً ، حيث تختفي إخفاقاته السابقة . وتلقى أوذينة تسميته الجديدة بكل فرح وإعتزاز ، كالقائد الذي لا يقهر والمحمي من الآلهة . وهو في هذه المرة ، قد ذبح بحديد سيفه أعداداً كثيرة من الرومان . حيث أن الحق يقال ، أنه هو من يستأهل أن يكافأ بالدخول إلى إنطاكية منتصراً . وبإسم أعضاء مجلس شيوخ تدمر ، أقام والدي حفلاً تكريمياً لصهره ، على ما بذله من جهد كبير ، ليعود بالفائدة علينا أجمعين . وألقى بهذه المناسبة معلمي كورنيليوس خطاباً كان قد أعده خصيصاً لهذه المناسبة وهو معلمي في اللاتينية ، حيث تناسى كيف كان يصفق للعظمة الرومانية ، ولم ينس أن يقارن فضائل المحارب أوذينة سواء المدنية منها أم العسكرية بتلك التي كانت لـ «سيبيون» وكان الأجدر أن يقام نصب تذكاري له على قوس النصر ، فلقد عاد بجيوشه دون خسائر تذكر ، مع العديد من الأسرى . فالجنرال الحقيقي ، كأوذينة ، يسرُّ كثيراً لأكوام الجثث ، وعدد الأسرى ، والغنائم التي حصل عليها ، وإلا فإنه عكس ذلك .

★ ولقد اكد ، بأن «سابور» حينما تصل جيوشه ، فإنه سيقم حاكماً فارسياً ، مما يجعل السكان يندمون على فترات حكم القناصل الرومانية ، نتيجة الجشع الفارسي ، ويعتقد لونجان ، بأن قوة القيصر لم تنطفىء ، وينصح بالحفاظ على بعضٍ من التوازن ، وهذا التوازن ، بدون شك ، صعب ما بين الرومان والفرس ، ولكنه نافع وهذه التحذيرات ، وقعت موضع القبول ، في آذان أوذينة ، فضلاً عن الهمسات التي وصلت الى تدمر أخيراً ، والتي تتحدث عن جنرالاً اسمه «ڤاليريان» قد لبس الرداء الارجواني حديثاً ، وقرر القدوم بنفسه الى تدمر ، لإعادة إنشاء النظام الروماني في الشرق ، ويقال أيضاً ، أنه جمع في بيزنطة



رواق الشارع الرئيسي في تدمر

جميع الحكام الذين يترأسون وظائف هامة في آسيا الصغرى ، وقد أعطى الأوامر إلى الوحدات العسكرية المعسكرة في هذه المناطق للسير قدماً نحو سفوح جبال طوروس .

ـ ولقد علمت البارحة ، بأن الجيوش الرومانية المنهزمة في إنطاكية ، قد أعادت تنظيمها في فلسطين ، بعد تلقيها التعزيزات من مصر .

وبالطبع ، فإن هذه الاخبار خطيرة ، ونتيجة الضغط الذي يعانيه زوجي ، فقد أفضى إلي في الليلة السابقة ، ما كنت قد خمنته ، وهو أنه عمد إلى إرسال مبعوث على جناح السرعة الى حاكم «**فلاڤيا ـ فيرما السادس عشر**» . وذلك لإعادة التحالف القديم الذي كان قائماً مع روما . وكما هو حال الحدادين ، الذين كلما أودعوا عدة قضبان حديدية في فرن الصهر ، كلما كان ذلك أفضل لهم وكذلك ، فقد قمت بدوري بارسال رسول وبشكل سري الى الملك «سابور» لأطمئنه فيها عن ولائنا . ولكن أوذينة لعب دوره مع «سابور» بشكل سيء ، ولكن الأمراء الذين يحتملون الصدمات التي لا تغتفر هم أيضاً الأكثر زوالاً عند بزوغ فجر المصالحات .

أنا ، زنوبيا ، أعلن أنه يجب ان أعلّم قاتل الفهود ، بعلي ، حتى نصل الى مرحلة يسمح فيها للعربي أن يعيش دون التوقف عن بقائه حليفاً لفارسي أو روماني .

★ ومرت الأحداث ، بسرعة ، أكثر مما تصورت . فقبل أن يتمكن الملك «سابور» من الرد على رسالتي التي تطمئنه عن إخلاصنا ، فقد سارع الى إخلاء أنطاكية . لأنه شعر بالتهديد القادم من الجيش الروماني . الذي إرتقى مرتفعات طوروس ، ومن الفيالق الصاعدة إليه من وادي الفرات ، وعندما وصل النبأ الى تدمر . لم يتلكأ أوذينة ثانية واحدة في جمع ألفي فارس ، بهدف السير بهم إلى إنطاكية ، للإحتفال هناك بعودة النسور الرومانيين .

ـ ولقد بدأ أوذينة ، وكأنه نسي دوره الذي قام به السنة الفائتة ، عندما لعب دوراً متوازياً بين القوتين الكبيرتين ، ولم أعلم حقيقة تفكير أوذينة ، فيما اذا كان يلعب دوراً مزدوجاً . ولكنني في ذات الوقت ، لم أستمر في قلقي تجاه أوذينة لإنني

كنت أعرف حق المعرفة مصير الأمراء الذين أرتكبوا خطأً تجاه روما . وبذهاب زوجي للقاء الجنرال الجديد ، الذي أرتدى الرداء الارجواني والخوذة اللامعة فإنه لم يرتكب خطأ عندما وضع رأسه بين فكي الأسد العجوز الذي لاتزال أنيابه قادرة على القتل . ولقد إستبعدت الشك في تسارع أوذينة لمغادرة تدمر مع فرسانه الألفين لأن هذه البادرة ، قد ولدت من هاجس آني ، أكثر منها ، لإظهار الإخلاص والتبعية للرئيس الجديد في الإمبراطورية .

ـ أما «سابور» فقد أسرع في اجتياز الفرات ، لجعل المسافة التي تفصله عن الجيوش الرومانية أكثر بعداً ، وبالتالي لوضع العدد الأكبر من جيوشه في منأى عن الخطر ولكنه كان ضد ترك أيٍّ من الغنائم التي حصل عليها في إنطاكية . والقاعدة المعروفة ، أن لا شيء يتنّقل في الصحراء ، سراً . ولقد حصل ان إكتشفت دوريات الرقابة الحدودية ، على طول الشاطىء النهري للفرات ، خيطاً طويلاً من العربات ، والجمال الذين ينتظرون دورهم للمرور في المخاضة ، وعلى جناح السرعة . وصل الخبر لأوذينة الذي أطلعني عليه بدوره ، وعلى قراره الشخصي في زج نبالّته على القافلة الثقيلة عوض التوجه إلى إنطاكية . وفوجئوا بالهجوم المباغت على جناحهم الأيمن ، بحيث أدى هذا الهجوم إلى ذبح جميع الجنود الساسانيين ، بينما كان القواد ، وراكبي الجمال البيضاء من الانطاكيين الذين جندوا قسراً ، لصالح الجيش الفارسي ، قد سارعوا لوضع أحمالهم بين يدي أمير تدمر ، وكانت هذه الاحمال ، من الكنوز النفيسة ، المتوجهة إلى قصر ملك الملوك .

ـ عندما علمت بهذا النبأ بواسطة مبعوث أوذينة ، لم أعد أميز ، إذا كان غضبي قد انجرف فوق يأسي ، وشعرت بأن جدران قصري قد إنهارت على رأسي . لأن زوجي ، هذا الكلب ، الأكثر حمقاً من كلب سلوقي ، قد هدم بيديه الاثنتين اية إمكانية في التقارب مع الفرس ، فالمرة الأولى ، كانت بسلبيته ، التي فسرّتها على أنها خدعة ، وأما الثانية فكانت في هذا العمل الأخرق ، الذي سيجعل من سابور عدونا الذي لا يمكن إختزاله . ولهذا فقد حاولت تفسير أو فهم صمت أو أكاذيب أوذينة . وبدون شك فقد كنت أخشى أن يمثل أمام الامبراطور «ڤاليريان» فقط بعهد من الوفاء والتبعية ، الذي كانت روما تعرفه منذ وقت

طويل : ولقد اغتنم هذه الفرصة السانحة للظهور أمام عيني الامبراطور بمظهر الحريص على شرف روما ، وليخفض من نقمة الامبراطور عليه ، نتيجة أخطائه وبالتالي ليمحي عار عودته الى تدمر السنة الماضية خالي اليدين ، وهو يستعد الآن للعودة بالغنائم الى تدمر ، دون أن يحسب حساب ما سيجره عمله علينا من بغض أهالي إنطاكية لنا ، وكراهية الساسانيين لنا ، وارتياب روما من أعمالنا . واذا لم أتدّخل بدوري بنفس السرعة ، فإن جميع آمالي ، وخططي ستنهار .

ـ وليس هناك من إمرىء قادر على مساعدتي .

★ أنا زنوبيا ، علي ، أن أنصح أوذينة ، بأن يحني الهامة ، أمام الامبراطور ڤاليريان ، وأن يعيد لانطاكية مسروقاتها المنتزعة من «سابور» ولا يجب عليه العودة الى تدمر بأي ثمن ، قبل المثول أمام القيصر ، فالتحالفات لا تدوم للأبد . وكزهر النرد ، فإن الثروة بحاجة لدفعة بسيطة من الإبهام حتى تدور بالاتجاه الصحيح . لقد قررت الذهاب للقيا ، أوذينة .

★ برفقة موكبه من حرس البادية ، غادرت تدمر ، على جناح السرعة ، وخلال يومين وليلتين حثثنا الجمال حتى أقصى طاقتها ، ولم نتوقف إلا بجانب الآبار ، لكي تشرب الجمال . ومنذ زواجي ، كانت هذه هي المرة الأولى التي أمتطيت فيها «**البيداء**» وهي ناقة للسباق ، بيضاء اللون ، ذات قوائم طويلة عصبية المزاج ، وهي بقدر رهافة حسها ، قوية ، صلبة . ولقد إجتاحني شعور غامر بالفرح ، جعلني أتذكر طفولتي ، فرائحة الرمال ، وهمهمات الريح ، وصخب قوائم الجمال في ضرباتها على الرمال ، والأحجار الخضراء ، والسوداء ، أعادني الى الماضي .

ـ أما التعب الذي غمر أعين المرافقين ، فقد أجج عنف لذتي ، وحرضني على الضحك الذي واجهت به وجوه الرجال . وبإحساسهم بالإهانة ، ساطوا نوقهم ، حتى لحقوا بي ناظرين إلي نظرة الرجال ، وبلكزة من كاحلي ، على ناقتي «البيداء» كانت كافية لكي أعود الى مقدمة الركب .

ـ وعندما لحقت بأوذينة ، في الموضع الذي يربط تدمر ، بـ ، شالسي ، متجهاً نحو الفرات ، كانت قواته تستعد لرفع المعسكر . وكانت أعداد من

الفرسان قد استلقت على الرمال لشدة ما أفرطت في الطعام . وما شربته من النبيذ . وكانت هناك أعداد من النبالّة ، وقد غفت حول الجمر الأحمر . وأنساق من قطعان الخراف ، وقد التهمت حتى العظام ، وكان آخرون يدورون حول النوق في محاولة لإعادة الاحمال الى ظهورها مفرغين الصناديق الموضوعة على الأرض ، المخصصة لراحة الدواب ، وآخرون أيضاً يحاولون فكّ الأربطة من قوائم الجياد ، ولم يخطر أحد بقدومي ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بلباسه الحريري الأخضر الطويل ، والمقصّب بخيوط الذهب وخوذته المدببة والمنقوشة بالأحجار الكريمة ، قد عرفت به إبن زوجي «هيروديان» الذي يكرهني ، والذي كما أكدت لي «مباركة» أنه كان يرود كثيراً حول سرير وليدي ناظراً إليه نظرات حقد وسوء .

★ كان يرود بين صفوف الرجال ، والدواب ، متظاهراً ، أكثر منه أهلاً للقيادة أهؤلاء هم مقاتلي الصحراء ، الذين بنيت عليهم آمالي ، هؤلاء السكارى ، الذي يصح عليهم لقب اللصوص ، لارتدائهم القلادات ، والاساور ، المنتعشين بنفحات الصباح ، والمتقيئين مما احتسوه من النبيذ ، ولقد نظرت إليهم نظرة حزن أكثر منها نظرة قرف .

ـ وفي تلك اللحظة ، لمحني «هيروديان» فأسرع في إخطار والده بمجيىء .

وشبيه بجميع الرجال العجائز ، الذين يبحثون عن الغرور ، عندما يعرضون نسائهم على جمهرة من الناس فأوذينة لم يكن يحبني ، بشكل سري ، فهو لم يقصر في إعطاء البراهين أمام جنوده عن ولعه بي . مثقل بالتعب ، وبالنبيذ ، فقد أسرع للقائي ، بسعادة تغمره أكثر من دهشة حضوري ، ولم يشك بأنّ قد أتيت لتهنئته لجرأته ، ونجاحه ، بعمله المقدام وتحت تصفيق وهتاف فرسانه الذين أحاطوا بنا ، أخذني بين ذراعيه وقبلني طويلاً بين عيني ، وأدخلني إلى خيمته ، وفي الداخل أذهلني الترف الذي فرشت به من سجاد ثمين ، حيث موضع السرير المحفور من العاج ، والمزين بالصدف وقفز على وجهي ، نكاية بجهودنا في تحقيق تقليد الرخاء الروماني ولتكملة بيتنا بالتحف الرائعة القادمة من الشرق البعيد .

أما الخيمة القديمة التي انتزعت من سابور ، فكانت تقول لي كل ما يفصل العرب عن الفرس ، فهؤلاء فنانين خياليين ، أكثر منهم موهوبين ، بينما نحن ،



آلهة النصر التدمرية

فنادراً ما نتوصل الى بعض الرسومات والابداعات التي نبقى سجناء لها ، هذا الفقر في الخيال ، لعله هو السبب الجوهري في قوتنا ، وكان أوليموس يحب تكرار ، الفكرة المبسطة ، في إنشاءات النفس الجميلة ، فمعبد أرتميس ونظريات فيثاغورث ، والقتال بالعصي ، واكتشاف الريح الموسمية ، أو نعت هومير .

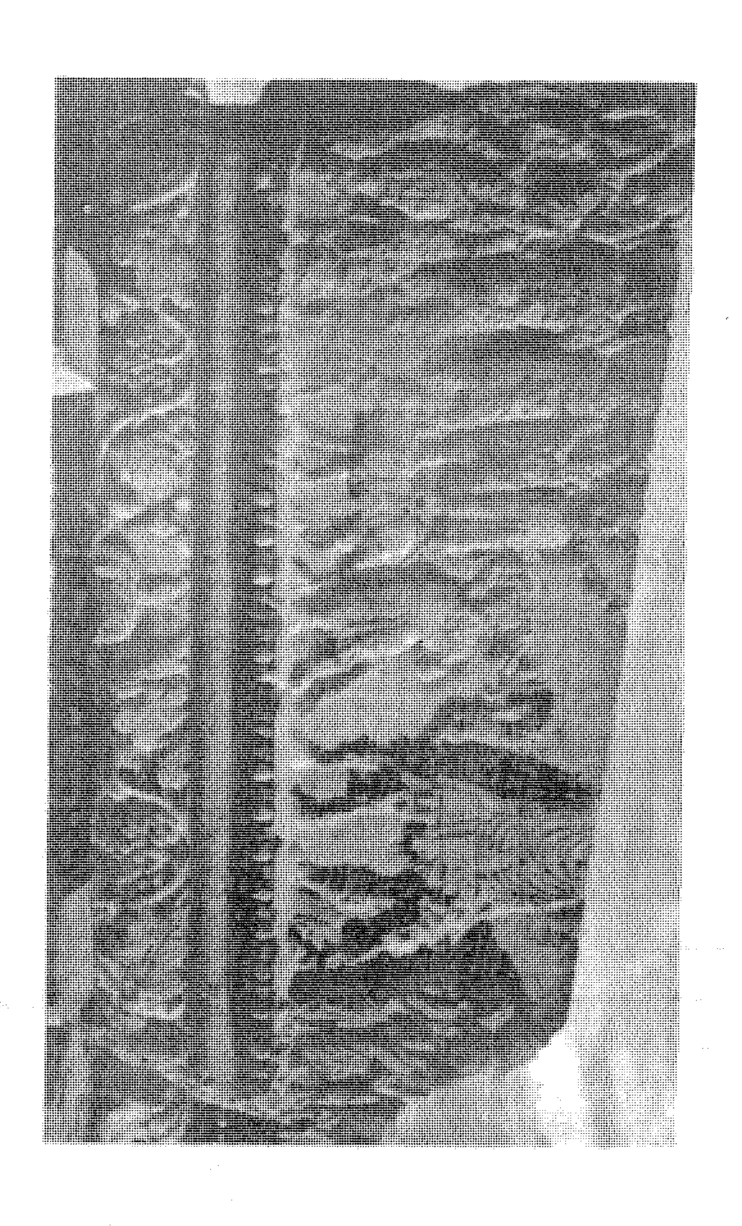
ـ ان توقيت استقرار المستقبل كان سيء الاختيار ، وكان الوقت يضغط ، لتنظيم الحاضر وترسيخ اتجاه جديد ، في ذات اللحظة التي إنعقد فيها ، ولكن بدون أن يجر علي ذلك أدنى هاجس في معرفة ما إذا كنت ، أنا ، زنوبيا ، سأصبح أداة للصدفة أو للعناية الآلهية وعلى النساء دوماً ، أن تلعب دور الضعيف أمام الرجال . لأن مشهد مهيضة الجناح ، يؤثر في مضاعفة يقين قدرتهم ، ويجعلهم في النهاية ، يتمون الحركات التي تقودهم إلى الإنهيار والتحطم .

اما بالنسبة لأوذينة ، فإنني إذا بقيت فتاة صغيرة ، فإنني أيضاً عالمة ، تمتدح جهله ، ويعلم تماماً بأنه جعل من زنوبيا أميرة ، وحتى لا يكون مقتنعاً من جحودي ، فإنه لم يتوصل أبداً الى الشعور الكامل بأنه في راحة واسترخاء بقربي . وكان يخشى من أن أسجل أخطائه فكان أمامي كالأب والطفل ، ولهذا كان يشك ، ويتجنب وينقب في نصائحي ، ولم يأمن جانبي أبداً ، إلا عندما كنت ألعب معه دور ملهاة الحب في سرير الزوجية ، حيث ينطفىء الشك في داخله ، ويطمئن الى تفوقه ، لكنه حقيقة مخدوع ، وعندما أبدي عذري ، بأن تعب السباق قد حطم عظامي ، وأن رغبتي هي في الاسترخاء بين ذراعيه وبعد أن إستعرض أمامي أجمل قطع غنيمته ، فقد طلبت منه تأجيل رفع المعسكر الى اليوم التالي ، ولم يعارض البتة ، فأعطى أوامره ، وعاد الى إستعراض صناديق سابور التي إنتزعها من سكان مدينة إنطاكية .

مذكرات الملكة زنوبيا

* كانت هناك ألواح كاملة من الذهب الخالص ، انتزعت من المعابد أو من المقابر وأحواض من الفضة الثقيلة ، وأواني من البرونز وقوارير مزخرفة ، وأمشاط ، وأساور ، وقلادات ، ومرايا وشمعدانات ومشابك ، وأحزمة ، ودروع ، وسيوف ، وتيجان ، وقيثارات ، وأكياس ، تنزف بالقطع النقدية الذهبية ، وعلب مليئة بالزمرد الأخضر واللؤلؤ ، والياقوت الأحمر ، والأحجار اللبنية الكريمة «عين الهر» وكان كل واحد من النبّالين قد تلقى نصيبه من هذه الغنائم التي تبهر العيون ، كما يبهر رنينها الآذان . فأسرعت بنفسي لإختيار جوهرة من بين هذه النفائس التي تروح وتجيء منذ قرون ، من منطقة النيل حتى حوض العاصي ، ومن العاصي إلى الفرات ، مزينة مرة إثر مرة معاصم ، ومشاعر الأميرات ، وفتيات الليل ، أو نساء القناصل ، وذلك حسب عوائد المعارك وتظاهرت بالحيرة أمام الإختيار ، وأدعيت الإعياء . وانسحبت تحت خيمة أمير تدمر ، بينما كان فرساننا ، الفخورين برئيسهم العجوز . يضحكون بصوت عالٍ وهم يشاهدوننا نختفي نحن الاثنين خلف الستارة .

ـ لقد استنزفني التعب ، ولاحظ أوذينة ذلك ، لذا تركني آوي الى الفراش دون أن يلمسني . وعندما إستيقظت كان ينظر إلي بفتنة مظللة بقلق خفيف ، بحيث كنت وحيدة لأستطيع الاستدلال منها عما تخفيه . ومنذ الحديث الطويل الذي دار بيننا حول ضرورة قطع العلاقات مع روما ، والاقتراب من الفرس ، في



صخرة الموكب في معبد بل

ذلك اليوم طلب مني بخجل الزواج منه ، وبحضور والدي ، وحدث أن تبادلنا أيضاً بعض الأفكار السياسية .

* وكنت مذ ذلك الوقت أشير من طرف خفي لما أرتأيه ، حتى لا أبدو ، وكأني أملي عليه ماذا يفعل . هذا الذكر النفور المتشكك المتيقن من ذاته ، ومن طريقة نهجه . ولقد ربحت الجولة الاولىٰ ولكني أضعت البقية . والآن ، علي أن أعيد إصلاح شبكتي المثقوبة ، حيث هرب منها حيوان متوحش عجوز . ولم أكن بعد قد توصلت الى الميزان الذي أميز به بين مكره ، وغبائه . ولكن السنتان اللتان مضتا على زواجي ، قد جعلتني أتمكن من أسلحتي الأنثوية وتأثيراتها عليه في مضاعفة متعتة .

● وعندما كنت أمارس سباقات النوق ، فقد كنت أمتطي «البيداء» وكان لدي متسع من الوقت لأخفف من غلواء غضبي ، وتثمين الوسائل التي أمتلكها لخوض معركة حاسمة . وبعد تفكير، توصلت الى خلاصة مفادها ، بأنه من العبث إهمال هذه الأنواع من البراهين المسماة «أنثوية» والتي نعتقدها نحن بأنها لا تقاوم وتتركنا أخيراً ، صفر اليدين . اذا لم نتخذ الاحتياطات اللازمة حسب أقوال العجائز الحكماء ، والمحامين وفتيات اللذة في جعلنا ندفع الثمن قبل الموافقة على المحتوى الجوهري .

فالرجال يقاومون بقدر أقل من إغراءاتنا ، ولا يميزون أبداً الأحابيل التي نطلقها لخداعهم طالما أنهم مقتنعون بأولوية عقولهم ومعرفتهم ، حتى وإن التمسوا في نظراتنا علاوة من الإعجاب وكالنساء الباحثات ، في مرآياهن عن زيادة في المديح فضلاً عن حقيقتهن .

ومع أوذينة ، لم أحاول مدّ الكمائن المعقدة ، فالمتع التي تسره كانت أقل من تلك الصادرة عن متحذلق راضٍ فضلاً عن تلك التي لراكض الرمال ، الذي يمضي حياته ، في دفع الحيوانات الضخمة ، فيدخل إلى منزله ، منهوك القوى ، ويقوم بواجبه الزوجي ، وبعدها لينام نوماً صاخباً ، ويرحل ثانية لعمله . أما رفضه في إرسال نبّالته لنجدة إنطاكية التي هوجمت من قبل الفرس وإتفاقيتة مع (سابور) التي أتبعها بسرعته في مساعدته والهجوم الذي قام به على حلفائه

المحاصرين للمدينة . كانت هذه هي الخيوط الأولى التي حاكتها زنوبيا ، المتناقضة أو الحمقاء وقد جعلت من أوذينة الرئيس الجديد الذي يحسب حسابه من قبل الامبراطورين الفارسي والروماني .

● ولقد قدم إلي أوذينة أسورة فكانت دائرية الشكل ثقيلة الوزن ومن الذهب الصافي مرصعة بالأحجار الكريمة بحيث أن صانع المجوهرات قد نقش عليها مشاهد من الميثولوجيا التي تحكي أعمال هرقل والتي توضح الإتقان اليوناني - الشرقي ، والتي حققها سابقاً السلوقيين . ولقد أوضحت لأوذينة أن هذه المجوهرات لا تنم عن كونها فارسية ولا حتى من بلاد ما بين النهرين . وأجابني بأنه لا يهتم بمنشأها ولكن الشيء الهام يكمن بأنها جاءت من كنوز الحرب مع سابور ولدغدغة شتيمته ، فلقد رددت بأنه رد الصاع وأن احتقارهم قد غلفني بحياء بحيث وددت عودة الجيوش . وعندما نطقت بهذه الكلمات الأخيرة جفّ حلقي . وكان علي أن أعيد القول عدة مرات بأن سابور قد أصبح عدواً ثابتاً ولن ، يألو جهداً في الإنتقام . وأخيراً فقد أوجزت بأن التحالف مع روما قد أصبح لتدمر شرط الخلاص .

كان أوذينة يحاول تجاهل كلامي فكان يلعب بقلادة ذات حبات كبيرة من العنبر المختلطة مع كرات من الذهب ، وكنت أعلم بأنه كان يعيرني أذناً صاغية بحيث أنه لم تخف عليه كراهيتي العميقة للرومان . وارتسمت على وجهه ابتسامة وأردف قائلاً بأن هكذا حديث لن يزعج من تفاهمنا في المساء وكشف لي بأنه قد أرسل رسالة الى القيّم على (فلا ڤيا ـ فيرما . السادس عشر) وهو لم يعد يشك بأن رأسي صلب بما فيه الكفاية لأفهم الأسباب التي أملت عليه هذه المسيرة . ولم أقلق في معرفة جواب هذه الرسالة التي لم تصل أبداً وأوضح بأن عليه أن يخشى الأسوأ من هذا الصمت وأن كل يوم يمر يقرب من الخطر المحفوظ لأوذينة . لا شك أن القيّم على فلاڤيا السادس عشر يعرف جيداً العقد المعقدة التي تحيكها تدمر بدون توقف فهي تعقد وتفك بدون توقف التحالفات مع الجانب الفارسي بغية تأمين سلامة الطرق التجارية للقوافل . ولكن ألا يجب على هذا «الإمبراطور» - ڤاليريان ـ الذي لا يفهم شيئاً من معاركنا وصعوباتنا والذي عليه أن يطبق القانون المسطر أمامه غير القابل للتعديل .

لقد كانت إحدى أهدافي تعبر عن الحقيقة ولقد كنت أعرف ذلك جيداً وكنت أعرف أيضاً أن هذه الأهداف تنفذ في شرايين أوذينة كالسموم سورية الصنع التي نحن نعرفها ونعرف طريقة تحضيرها بحيث أنها لا تترك أيّ أثر ظاهري . كانت نظرته الثابتة ورجفة أصابع يديه على حبات القلادة العنبرية تخون قلقه إذا لم أقل رعبه . لقد كان من أولئك الرجال الذين يعلمون أن الحرب تقترب فالحديد باليد يبقى الشرط الضروري للحياة والشجاعة ، وعندما قلت له أن ڤاليريان وسابور بعد أن يستولوا على «رازّيا» سيتجهون نحو شواطىء الفرات ويرغب كل منهما في الإغارة على كنوز إنطاكية وبعد ذلك ستكون حركتهم التالية أخذ تدمر لأنهم يعتقدون بأنها حق لهم حسب قانون الغزو .

لقد توصلت إلى جعل أوذينة يفهم بأنه أمير لتدمر وليس رئيس جماعة من الصعاليك وباعتبار أنه من المستحيل القتال ضد عدوين قادرين فعلينا أن نختار ما بين ڤاليريان وسابور . فكل منهما يغذي في قلبه حقداً أسوداً بينما يبدو لي أن جرح سابور أكثر خطراً لأنه أكثر حداثة . وكل الأمور لا تقود الى الاقتراب من ڤاليريان هذا العسكري العجوز الذي أخذ في كمائن الشرق الصعبة سيكون سعيداً في الضغط على أمير تدمر لإعادة النظام الروماني لسورية كلها بينما في حقيقة أمره سيستعد لإطلاق جيوشه بإتجاه فارس . فإذا كان أوذينة يرغب في إنقاذ رأسه فعليه الإسراع بإرسال مبعوث الى القيصر لإعلامه بأنه سيتجه إلى انطاكية لإعادة الغنائم المسروقة من سكان المدينة من قبل الملك سابور والتي استرجعها بنفسه من خلال معركة ظافرة على ضفاف النهر العظيم ، نهر الفرات . ولقد اقتلعت آخر الشكوك من قلب أمير تدمر عندما طمأنته بأنه لم يكن من الضروري توزيع الغنائم على فرسانه وهكذا شكرني أوذينة بحيث أنني شعرت بقشعريرة تسري في جسدي . وغالباً ما خالجتني مشاعر من السعادة التي لم أعرف كنهها ولم أكشفها أمامه بل احتفظت بها لنفسي ، ولا بد من أن أوذينة قد شعر بخيبه من صمته وجموده ولكن الشيء الهام كان في رحيله السريع باتجاه معسكر ڤاليريان في الشمال .

* عندما شرعت في كتابة هذه الأوراق ، فكرت بشكل خاص بنصائح الطبيب الذي أمرني براحة مطلقة طالما استمر حملي . ولم يمنعني الإستلقاء من تكريس

ساعات كاملة للقراءة أو للإعتناء بمظهري أو الإنطلاق في نزهات على الحصان وسباقات النوق أو التمارين الصعبة التي كنت أمارسها في ساحات الملاعب ، لقد عرفت أين أجد أفضل متعي .

وقد حكم علي أن أبقى مستلقية لأشهر كاملة . لقد كانت نصائح أوليموس كما أتبعتها لتزين أيامي قد أصبحت فارغة ولهذا فقد تابعت محاولاتي الأولى التي كرستها للتاريخ الإغريقي . وعندما نشرع في ملء بعض الأوراق اليومية بالحبر ، فإننا نرفض أن يقرأها أقرب أقربائنا فالكتابة هي معلّم جيد .

صفحات عديدة كتبتها منذ الأسابيع الاولى التي فرض فيها الطبيب طاليتاس علي الإقامة الجبرية من أجل جنيني ولم يتبقى إلا بضع عشرات من الأوراق فالبقية مزقتها . وكانت فكرة إمكانية الموت عندما أضع الى العالم الطفل الذي أنتظره . وخشية وقوع هذه الأوراق بيد والدي أو بيد أوذينة أصبحت هذه الأوراق المغارة التي أهرب اليها بغضبي وحقدي ودموعي وكانت الأفكار التي سطرتها على هذه الصفحات ما هي إلا الكلمات التي لا نستطيع لفظها بصوت عال . ولدى ولادة وهب ـ اللات ، أدركت من خلال صخب الطبل وأصوات المزامير بأنني كنت لا أزال على قيد الحياة ، ولهذا قررت متابعة إملاء ذكريات طفولتي ، ولكن لمساعدة ذاتي على التفكير وتثبيت بعض النقاط الهادية للطرق التي علي من الآن فصاعداً أن أقود اليها ولدي نحو الهدف الذي آليت على نفسي الوصول إليه .

هل نحن واثقون من معرفة الآخرين ومعرفة ذواتنا ؟ فإذا وقع هذا السجل يوماً بيد أحد المؤرخين فإنهم سيرون الوجه الحقيقي لزنوبيا التي لم يعرفها أحد سوى العجوز مباركة ولعله أوليموس قد سبر أغوار نفسي عندما كان يرسم ابتساماته الغامضة على شفتيه ، ولم يعد هناك الكثير من السنين التي كانت بانتظار العجوز مباركة فالمأساة كانت تنتظر على الطريق وخلال صخب حوافر البيداء ، سمعتها أثناء عودتي إلى تدمر بينما اتجه أوذينة الى انطاكية مع القافلة وغنيمته . فمباركة لم تنتقص من ملاحقتها إلي على عكس المآسي القديمة أو قدر الأبطال . فالرجال عندما يعلمون بعدم فعّالية الإرتماء في حضن الإرادات القدرية فإنهم

يصبحون أحراراً في اختيار نقطة الإنطلاق لطريقهم وعلى أقل تقدير في ابتداع طرق الالتفاف فبإمكانهم أن يحاولوا كل شيء وأن يغامروا في كل شيء ، وحتى في تغيير معسكرهم . كان على أوذينة أن يصل الى انطاكية . هل لا يزال حياً ؟

والآن فانني ولدت طفلاً ، انه نظام الطبيعة ، ولكن هيروديان لن يقاوم متعة الانتقام لزمن طويل وهذا ما سيجر علينا وعلى طفلي القتل بينما ستأتي مباركة لتطعن نفسها فوق جثتنا . ولن يكون هناك متسع من الوقت لأي شخص في لعب دوره ، فالمأساة بالكاد قد بدأت وسرعان ما تنتهي . أنني بحاجة لأوذينة فقوته كما ضعفه من أفضل الأمور المساعدة لمشاريعي . ويجب علي أن أصبح أمينة سره وشريكته بالاضافة الى أنني زوجته وأم لصبي ، ولكنني لا أزال حتى هذه اللحظة زوجته في السرير .

وللتحضير لعودة أمير تدمر فانني علمت بأن فيلقاً من الجند الفارسيين قد هاجموا قواتنا من مطلقي النبال بطريق الخدعة ، وكشف أوذينة الإهانة التي لحقت بنا ولهذا عمد الى تجميع قواته التي أطلقها على الخطوط الخلفية للملك سابور بحيث سقطت بين أيدينا غنائم عظيمة والتي تقرر إعادتها الى أصحابها الشرعيين من سكان انطاكية . ولم أدري من أين أتى هذا الإنتصار العظيم والساطع لقواتنا المكللة بالفخار . وعمّ ضجيج هذه الأنباء الجميع وخاصة الفئات الشعبية التي تراكضت حول الأسوار بسرعة ولهفة ودخلوا إلى المنازل ، واقتحموا أبواب المعابد فاجتمعوا زرافات ووحدانا تحت الأبواب وفي الساحات مهللين بالنصر في سحق الجيش الفارسي ومؤدين تحية الفخار لأمير تدمر .

فإذا عاد أوذينة الى هنا ، فإنه سيكون محاطاً بالجموع التي لا تزال تأمل في عودة الجيوش لحماية طريق القوافل .

أما إذا قطع ڤاليريان رأسه ، فإن ذكراه ستمجد ويصبح بطلاً . استطاع أوذينة أن ينقذ رأسه . وعندما عاد إلى تدمر مكللاً بالغار فإنه سرعان ما زار مجلس الشيوخ لإستقبال أبناء المدينة وتقبّل التهاني ، بعد مسح العار الذي ألحقه ملك الفرس بشرفهم كان أوذينة هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة . ومنذ لقاءه مع الإمبراطور ڤاليريان فإنه حمل قصة ملونة جعلت الناس تصفق له لزمن طويل

وعندما عرفوا بانه قد أعاد لهم تلقائياً كنوزهم فإن مواطني انطاكية كانوا يكنون لنا صداقة حميمة وهي ضرورية بالنسبة لرؤساء مصارف تدمر وأسرع شيوخنا نحوه لتقبيل كتفيه ، ويديه ، بل وحتى صندله . ورأى والدي الصناديق التي تكدست في خنادقنا لتأخذ طريق العاصي ثانية وتلقى حصته من المديح ، التي بدت له أنها يجب أن توجّه الى عمّه ، وكأنه كان الملهم أو المنفذ للعودة غير المتوقعة . ففي خلال ثلاث سنوات جعلونا نقطع التحالفات مع روما ، خدمة ، للاتفاقية الأزلية مع الفرس ، وليرفسونا من جديد ، باتجاه المعسكر الروماني .

* أنا ، زنوبيا ، أميرة تدمر ، كنت الوحيدة ، التي تعرف حبك هذا النسيج المعقد ، فالنقاط التي عقدتها ، رأيتها تنهزم ، فأعدت عقدتها . ولم يشك أي شخص ، إلا أنا ، زنوبيا ، بأنني قد أنقذت تدمر ، عندما قررت ، بأن على أوذينة ، إعادة وضع المدينة تحت حماية النسور الرومانية ، وكان كل امرىء يرى أنه من الطبيعي عودة الفرقة «فلاڤيا ـ فيرما السادسة عشر الى معسكراتها القديمة في تدمر» .

وحتى أن أوذينة نفسه ، نسي ، بأنه رفض لحاكم إنطاكية ، إنقاذه ، بإرساله نبّالته إليه ، ولقد رقي إلى رتبة قنصل بواسطة الامبراطور ڤاليريان . حتى يكون أفضل ارتباطاً بالامبراطورية ، وهو الآن ، يؤخذ على أنه قنصل موثوق به ، ويرتدي الدرع المذهبة ، ويجلس على كرسي العاج المخصص للقضاة الرومان ، ولا ينتقل أبداً ، إلا بموكب من إثنتا عشر جندياً من حملة الفؤوس . وهو يعتقد بأنه أصبح يحمل على كتفيه مصير روما ، بحيث جعلني أفهم أفضل من ذي قبل ، بأن مظاهر القوة ، غطت على حقيقة القيادة عندما تمتدح هذه المظاهر غروره والغريزة الصبيانية في نفوس الرجال . ومانحين أوذينة ، بأنه في بعض الاوقات ، يلجأ الأباطرة العجائز ، الى ذبح الشعارات القنصلية ، واعتقد ڤاليريان بأنه وجد ، ومتّن تحالفاً ، أصبح ضرورياً وهاماً . هذه الرأفة ، تحمل في طياتها زوال عسكري شريف ، توصل الى الألقاب الرفيعة بفضل الخطة الثانية . بينما لم أجهل ، بأننا ما ندعوه ضعف ، هناك آخرون يسمونه كرماً أو دماثة ، ولكن الرومان ، هل أظهروا حقاً بأنهم كرماء ، أو رؤوفين ؟

* أتى أصدقاء طفولتي لزيارتي مالكة ، وعائشة ، ورقية ، وكعهدي بهن ، حمقاوات ، وثرثارات ، وناقلي أخبار ، وعندما أردت معرفة ما الذي تفكر به العائلات التدمرية الغنية التي تعتاش على التجارة ، وتتعاظم من رفع عدة تماثيل لها تحت الأبواب الرئيسية للمدينة ، فقد بدا الفرح من عودة ضباطهم المفضلين ، والمتوافقين مع أزواجهن .

وعودة الفرقة الرومانية ، لم يجعل من قلوبهن تقفز من الفرح فقط لصديقاتي الثلاثة ، اللواتي يحببن ويعشقون اللباس الروماني ، فيجعلهن حالمات حمقاوات وبالتالي عودة صناديق المال في تدمر الى الإمتلاء .

- وعلى خطا الجنود الرومان ، فقد وصل معهم والٍ روماني جديد وكانت خطوته الأولى ، المثول أمام أوذينة لتحيته ، وتبادل عبارات اللطف ، وبعناية فائقة ، كانت كلماته في منتهى الكياسة أمام أمير تدمر :

- وانحنى أمامي ، هذا «**البروتوس - ڤيدالوس**» ، مؤكداً لي وبإصرار على حرص الامبراطور ڤاليريان . بأنه أرسله لمساعدتنا فقط ولإعادة حلّ مشاكلنا الادارية والمالية ، وحرصه على أن يبقى والدي ، المؤتمن على أمن وسلامة المدينة ، والمزوّد الرئيسي لتموين جنود الجمال البيضاء . وأوذينة لم يكن ينتظر أكثر من ذلك وهكذا فقد وجد أوذينة طمأنينة الإدارة التي كان غير قادر على السيطرة عليها وإمكانية العودة ثانية إلى سباقات الصحراء لأنه اعتمد على تنظيم وإدارة يقدرها ويثمن من فعاليتها بدون أن يقلق من المختلسين بينما يبقى في منأى عن مشاكل الإدارة ويحظى بذات الوقت بالإحترام ، ونظرت إلى بروتوس ڤيدالوس بدون ابتسامة وخمنت بأنه من أولئك الرجال الذين نادراً ما يصيبون في نظرتهم ولقد رأيته كما هو إنسان سمين ذو أرجل قصيرة ووجنات شاحبة بحيث أن لطفه ونظرته البريئة تخبأ سؤة وقسوة رجل جشع ومثقف .

إن السياسة الامبراطورية قد أوقعت ثانية أوذينة بحبائلها بحيث أنه استجر الألقاب والمنافع بدون أن يحمر خجلاً من توقيع اسمه في ذيل الأوراق الرسمية التي كانت تطرحه كحاكم جديد وكان أوذينة أسير الحاكم والفيلق الروماني لأنه تزين بالميداليات الامبراطورية وكان عليه أن يتوافق مع سياستهم وأخذ حصته من ضرائب القيصر التي فرضها على الزيت والشحوم واللحم والجلود والملح وبنات

الهوى ؟ والغريب في الأمر بأننا نحب كل ما تمثله القوة سواء أكانت هذه القوة عسكرية أم مدنية . وهذا المساء قدم والدي دفعة من النقود الى الحاكم وإلى ستة قضاة من «فلاڤيا ـ فيرما السادسة عشر» للإحتفال بعودتهم الى تدمر وفي هذا الوقت بالذات كان على جميع أعضاء مجلس شيوخنا أن يحيطوا بالحاكم الجديد مع روؤساء الفيلق الروماني الذين لم يكونوا موجودين يوم زفافي . وفي تلك الليلة الحارة التي كانت تشتم فيها رائحة الدهون ودخان اللحم المشوي كنت أسمع الصرخات الحادة لفتيات الهوى وضحكات الجنود السكارى وقرع الطبل والدربكة . وكانت المشاجرات تجري في الحانات وآخرون يقعون على قارعة الطرقات وتجارنا يتسابقون ويختلفون لفتح أبواب منازلهم للجنود الرومان الذين كانوا يداعبون بنات مستقبلهم . إن المدينة التي أردت أن أكون أميرتها قد أصبحت ثكنة عسكرية . وأسرعت إلى الإرتماء على سرير أوذينة كما إرتمت تدمر في تلك الليلة في أحضان جنود روما .

لا يجب علي أن أنسى طريقي الذي سيكون مليئاً بالحفر والأشواك حيث سيتسارعون غدا على إيقاعي أولئك الذين كانوا بالأمس الأكثر سرعة لتلبية طلباتي . ومن المناسب التحرك بحذر شديد وأن ألبس مشاريعي وأهدافي بعضاً من أردية الضعف ، ويجب أن لا يشك أحد بأن فتاة التاجر «عمرو» قد أصبحت زوجة أمير تدمر وهي تحلم بالمساواة مع ثروة الاميرات السوريات : كجوليا دومنا وجوليا سومياس وجوليا ماميا اللاتي كن أمهات لثلاثة أباطرة سوريين اعتلوا عرش الامبراطورية الرومانية وكانوا على التتابع الامبراطور السوري كركلا والامبراطور هيليلو غابال والامبراطور الكسندر سيڤير . أما سبتم ـ سيڤير الذي كان في بدايته لا يزال حاكم كتيبة رومانية معسكرة في انطاكية فإن جوليا دومنا لم تكن تحلم بذات الأفكار ؟ وبدونها فان هذا الأفريقي كان سينهي حياته ومهنته تحت رداء جنرال في الجيش ، مجهول اهتم ببعض الإنشاءات بينما شجعته جوليا دومنا السورية على المسير نحو روما وساعدته في حبك المكائد وسلحت ذراع زوجها بسلاح لايفل عندما أقسم كثيرون على اغتياله على درج الكابيتول وتوصلت هذه الفتاة الحمصية والتي كانت في زيارة لإنطاكية إلى تحقيق ما أرادته ، فلم لا تحقق ذلك فتاة تدمرية ؟ ألم يقاد منزل السيڤيريين من قبل النساء ؟

أليس هذا الوقت مناسباً أكثر من الأمس : إن العجوز «**ڤاليريان**» يتخيل بأنه دخل إلى إنطاكية بنصر مؤزر وأنه أعاد النظام الروماني إلى المدينة بينما بقيت قوات «**سابور**» سليمة ولا تزال تضغط بثقلها على كل سورية إنه تهديد مستمر ، لقد ثار أهالي غاليا وأنتفض الدوقيون عند وصول الغوط . إن اللحظة الحاسمة قد حانت حيث يمكن لأي قائد عسكري سواء أكان سوري أوغالي أو اسباني أن يخرج من الصفوف ويدعي أهليته لإرتداء اللباس الأرجواني للقيصر .

إن أوذينة لا يمكنه أن يدعي ولا أن ينجح بهكذا عمل لأنه ماكر أكثر منه جسور ، ومزهو أكثر منه طموح فهو لم يعرف تلمذة المعسكرات ويجهل التقاليد العسكرية ، هذا الإبن للخيمة الكبيرة لم يغزو مراتب وألقاب في الجيش الروماني حيث أن أسمه لا يثير إلا مكانة قواد صغار متحالفين مع الامبراطورية حيث من واجب الجنود الطاعة ولكن الضباط الكبار يحتقرونها .

لقد ولد وعاش خارج الجيوش وأوذينة لا يستطيع تدريب كتائبة على المواجهات العصيبة لان جنوده يبقون مخلصين لرؤوسائهم الذين يفضلون مهنتهم فالذهب المغلق عليه في صناديق تدمر لا يكفي أبداً لغزو روما . وأذا استطاع الأمبراطور السوري «**فيليب العربي**» أن ينجح في مشروعه وأن يستبعد الجنرالات الذين وقفوا ضده بغيرة وحقد فذلك لانه سمي سابقاً آمر خيمة ، ولهذا يجب علي أن آخذ الأمور بجدية وأن أقف خلف أوذينة . أنا ، زنوبيا علي أن أبدو أكثر رومانية مما كانت أمهات «**الغاراك**» وأن أخفف من غلوائي وغضبي لأن صبر «**أوليس**» كان أكثر نفعاً من غضب «**أشيل**» .

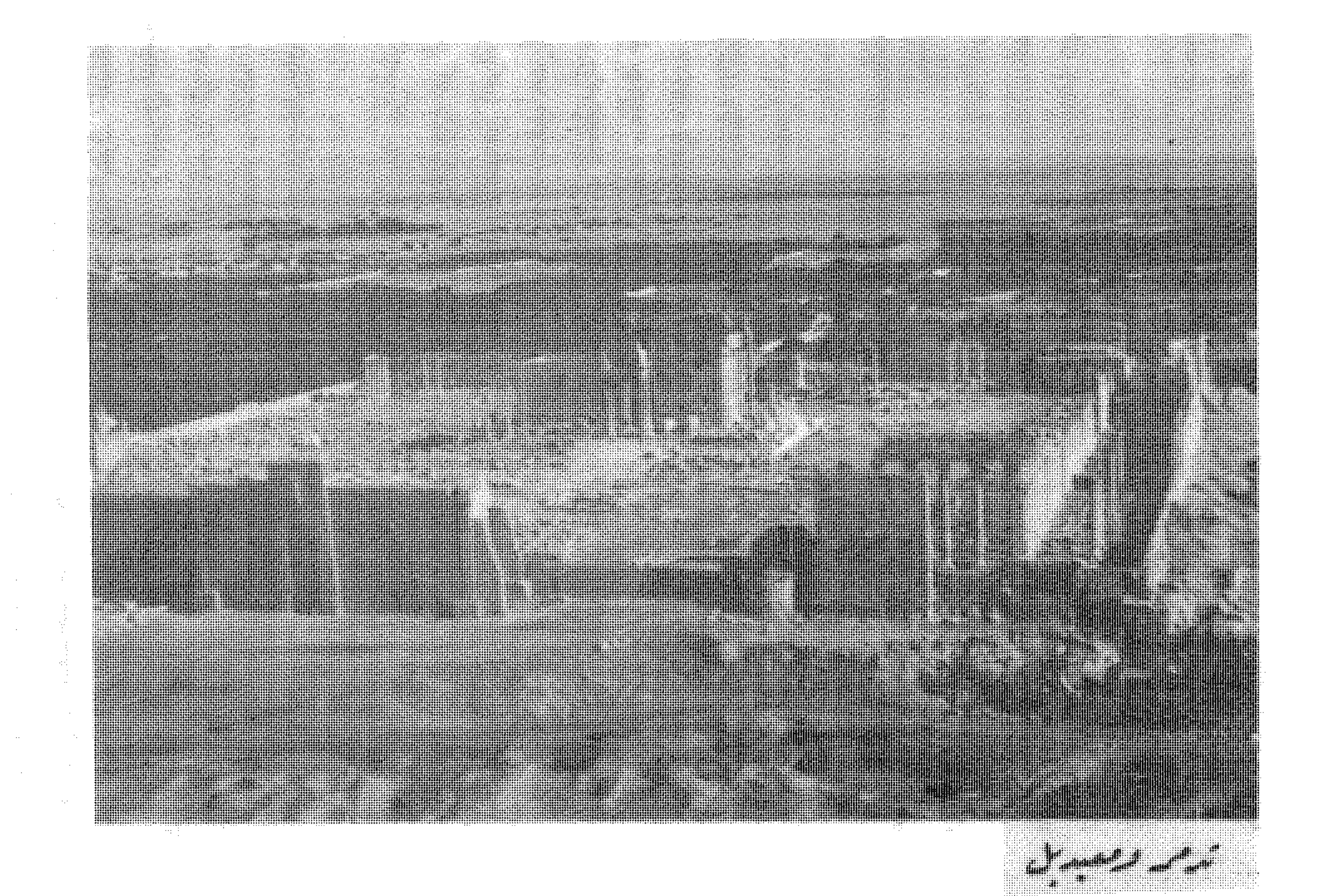
إن انعقاد هيئة القضاة ، نادراً ما تحدث برئاسة أوذينة . وأسرع مما نصحته ، في الماضي ، فقد انقلب فجأة ، فاختفى ضعفه تحت رداء القنصل الروماني ، ليظهر مكانه فضيلة رئيس ، بدأ يهتم فجأة بأمور الشعب ، ويعطي الأوامر ، وتخلى عن رفقة الصيد ، ولم يعد يسرّ لواحد فقط من بين أعضاء الحكومة التدمرية . وهو ، كعربي ، فإنني أعرف سرعته لخوض غمار الحروب ، وهو يتقنها أكثر من مهارته في الأعمال التجارية ، لأنه يمسك السيف والدرع بيد لا تهتز ، فإنقلابه لم يذهلني . فإما أن يكون هذا الوليد لخيمة الشعر ، قد انتظر بصبر لا ينفذ الفرصة السانحة لإظهار جدارته ، أو أنه فتن روما ، بينما تابعت الاردية

الارجوانية الرومانية تتمة المعجزة . و«بروتوس ـ ڤيدالوس» لم يخطىء عندما أراد إخضاع توقيع أمير تدمر للمرسوم الظالم الذي يطالب بمزيد من الضرائب على تجارة الزيت . وأذهله معارضة أوذينة الفجائية ، تحت اسم : إحترام القانون الضريبي . المحرر سابقاً من قبل الامبراطور «هادريان» .

ـ لم يكن ما حدث في الحسبان ، فقد اعتقد بأنه سيلهو من تمثيل بربري جاهل ، ويظهر الحمية والحماسة على حمايته لارادة مثقفي ومعلمي الرومان . وأسرع الجشع «ڤيدالوس» في إلغاء المرسوم ، وباكياً بدون شك على المنافع الشخصية التي كان يأملها ، من اعتقاده بدنيوية عرقنا وتواضع تحت ضربات خصمه ، بينما نحن فإننا نعرف كيف ننتقم بشكل رهيب ، عندما تحين اللحظة المناسبة لذلك .

وأخشى ما أخشاه ، ألا يكون أوذينة ، قد فهم الشراك الممتدة إليه ، حتى يكون بإمكانه كتم غيظه وأخفاء ضعفه على امبراطور عجوز ، ينبح بين مجموعته ، فرجال الغرب أكثر مخادعة ، ويعرفون جيداً وضعنا تحت أكاذيبهم ، عندما يلبسونها رداء الكرم والاعذار بحيث تخفي وجههم الذي لا يعرف الرحمة ولا الشفقة . وبحصوله على مرتبة الحليف المفضل لروما ، فقد أصبح الخطر ، من تصرف أمير تدمر ، وكأن السند الشرعي لسياسة غير مرغوب فيها وممقوتة ، وليس فقط لأنها تغطيه بألقاب ، تقاس قيمتها ، بوزن الذهب الذي يملكه ، بل لأنه يعتقد بأنه في منأى من الانتقام الفارسي ، بوجود الفيلق الروماني في الشرق .

وفي اللحظة التي يجب عليه فيها ، السير بحذر شديد ، وقلق كبير ، فإنه لم يعارض «ڤيداس» إلا ليتحقق من أن أهليته وقيمته القنصلية تضعه فوق الهيمنة التي تمارس من قبل الحاكم ، ورعاية لوجوده ، حملته على الدفاع عن منافع إمارته «تدمر» التي بدأ يخلطها مع ثروة القيصر . أنا ، زنوبيا ، قد ، وزنت أفضل الفرص ، لإبقاء رأسه سليماً بين كتفيه . ومنذ لحظة إحاطة الامبراطور ، بجنرالاته وقواد جيشه ، فقد ظهر في احتفال عسكري ، ونسي أوذينة بأن النسور الرومانية المحنية لرؤوسها أمامه قد هربت بخجل قاتل أمام الفرس ، وقوات الملك سابور . فياللإغراء الذي تمارسه روما على أولئك الذين نعتقد بأنهم أكثر فخراً من إفتخارنا بأنفسنا ؟



تدمر معبد بل

ولم يخطىء «كاسيوس ـ لونجان» ، عندما قال أن خطى الجيوش يتردد صداها دائماً ، متصاحباً مع ضجة كبيرة ، في قلب الشعب الخانع .

ولا أزال أسمع أيضاً ، العزيز «أوليموس» ، وهو يقول للساذج «كورنيليوس» بإبتسامة أو إحتقار ، مساوٍ ، للسخرية بأنه بعد تركهم في ساحة المعركة لأسلحتهم ، ولشجاعتهم ، فإن المهزومين يحبون أن يتمرّوا في درع المنتصر ، وكأنهم يجدون بذلك تعليلاً لهزيمتهم ، صديقة الانتصار ، هكذا هو أوذينة ، ومهما يكن الخصم أو القدر ، فهل فضلّ أوذينة سابور على ڤاليريان ، بالرغم من أن حظهم متعادل في كفتي الميزان ؟

* في الأسبوع الفائت ، تعرضت إحدى قوافلنا للسلب ، على طريق أنطاكية من قبل كتيبة فارسية إنبثقت فجأة من الصحراء . وكان هذا هو أول إجراء إنتقامي لسابور ، والشتيمة الأولى للقنصل الجديد . وبالرغم من إجراءاتنا في مضاعفة الحماية للقوافل ، فقد تعرضت حمولة أخرى للهجوم ، وسلب محتوياتها البارحة ، وكأن الساسانيين أرادوا أن يبرهنوا إلى التدمريين بأنهم يستطيعون منع كل قافلة من الخروج ، من المدينة . وهذه النوعيات من الصدامات ، مألوفة جداً لنا ، مع علمنا بأنه من الأفضل تسوية هذه المشاكل بالإعانات المالية المقدمة إلى الفرس . وهي أفضل حل من اللجوء إلى السلاح . ولقد كان هاجسنا الأكبر ، بقاء النواعير في حالة تشغيل كامل ، ما بين البحر الأحمر ، والأخضر الكبير . والأمر الجديد . هو أن طريق أنطاكية أصبح ذي شواخص ، ووضعت له حدود عسكرية ، وسيّرت عليه دوريات مراقبة منذ أن إفتتحه الامبراطور «هادريان» . ولم تخترق حرمته منذ ذلك الوقت .

والموضوع هنا ، يتجاوز الإهانة الشخصية الموجهة لأوذينة فإذا كان الطريق الذي يربطنا بالعالم الخارجي ، لم يعد مطروقاً ، فليس معنى ذلك ، أن تحطيم تدمر قد أصبح ناجزاً ولكن الأهم من ذلك ، أن عقدة ، من أهم نقاط شبكة الاتصالات الامبراطورية في الشرق ستختفي من الوجود .

وإجتاح القلق أوذينة من هذه الاخبار الخطيرة فجمع ممثلي التجار ، والقضاة ، وممثلي الفرقة السادسة عشر «فلاڤيا ـ فيرما» . وطلب مني أن أحضر هذا

الاجتماع الهام ، وهكذا فقد أحيا بهذا الاجتماع أحد أقدم تقاليدنا العربية والتي تقول بمشاركة النساء وإستشارتهم .

وكانت عشرات الرجال ، تحيط بأوذينة ، وقد عرفتهم جميعاً . ومنهم من إبيضت ذقونهم قليلاً ، وبعضهم وقد تكورت بطونهم ولكن بقيت أصابعهم رشيقة الحركة وسريعة . وكانوا يعرفون دائماً الضحك بعيونهم فقط ، محتفظين بوجههم ثابتاً جامداً الذي يتناسب مع وجه محاسب مالي وكانت أفعالهم الشغوفة ، تنطفىء فجأة وسط صمت حذر وإحتفالي بنفس الوقت . ولم تكن بهم رغبة خلال ذلك بالضحك ، أما ظاهرياً ، فكان يبدو عليهم الوجل ، والقلق يهدّل أفواههم ، ولا شيء أدعى على الضحك من الوجل مرتسماً على وجه عجوز يرتعش خوفاً على أمواله . وصرح أوذينة بأن سابور لا بد وأنه يمتلك جيوشاً كبيرة ، حتى يمكنه أن يسمح لفرقة العسكرية من القيام بهكذا عمليات جريئة للغاية وفي محيط مدينة إنطاكية ، وأبدى التجار علامة الموافقة على ما يقال بهزة رأس ، بينما كانت أعينهم تنتقل بحثاً عن العون بإتجاه المنصة ، حيث قدم إقتراح يقضي بإنشاء حائط حماية بواسطة الجيش على طول نهر الفرات .

ـ وقلت في ذلك الاجتماع ، أن هذه الهجومات التي تتعرض لها قوافلنا تثبت بأن الملك «سابور» ، يمتلك أعداداً كبيرة من الجنود ، مدربّين على هذا النوع من الأعمال ، وتثبت خاصة بأن الفيلق الروماني لم يعد قادراً اليوم على تأمين حماية تجارتنا ، سواء أكان السبب لأنه متفرق ، ومبعثر ، أو لأن الرجال المقاتلين ، ورؤسائهم ، أصبحوا غير قادرين على الرد على مكائد الأعداء ، أو لاحتواء هجوماتهم .

وهكذا ، فلم يبقى من حل ، لأبناء تدمر ، إلا في إنشاء جيشها الخاص بها ، وأن تكف عن تجميع وتجنيد أبناء البدو كرماة للنبال فقط ، فروما جندت جيوشها الكبيرة بإرادة الرجال الحرة ، أو بالقصر والإرهاب ، والقوة ، حتى تشكل لديها احتياطي كبير من الرجال ، وفي منطقتنا بالذات . وأضفت بأن نبع الرجال متوفر عندنا ، من القبائل البدوية وبالتالي ، فإن حركة كتائبنا ، وفرساننا ، أفضل وأسرع من حركة وسرعة الجيش الروماني ، والشيء الأهم من ذلك معرفة رجالنا العرب لأرضهم ورمالهم بأفضل من معرفة الرومان لها ، وإن كتائبنا التدمرية

الخفيفة ، لا تتوقف أثناء سيرها ، لأن المقاتل التدمري يكتفي ببضع تمرات من البلح ، بينما الجيش الروماني فيضطر للوقوف ساعات لتحضير الطعام لجنوده . وفقد ممثل «فلاڤيا ـ فيرما» الصبر ، فقاطعني قائلاً .

ـ وتوجه إلى أوذينة بالكلام ، بدون أن يفارقني بنظراته وقال إن على تدمر أن تثق به ، في تأمين حماية القوافل ، وأن الإجراءات الاحترازية ، قد اتخذتها القيادة العسكرية للفيلق الروماني ، وأضاف ، بأن النساء لا تعرف إلا القليل عن هذه المواضيع ولهذا لا يحق لها الكلام . ولحظت إبتسامة عريضة إنفرجت عنها أسارير أوذينة ، وأومضت للحظة ، نظرات عينيه . وعلمت أنه يوافقني الرأي ، ولكنه من غير المناسب تطوير فكرتي ، أمام الحاكم الروماني . وأقر ، أن هذا التواطؤ بيننا نحن الاثنين ، لم يعجبني أبداً . وحافظت بعد ذلك على صمتي ، وكنت مسرورة بالاستماع والتفكير بأن ذكاء السلاح ، ليس معقداً ، ولا صعباً ، حتى يكون العسكريين فقط القائمين عليه ، وأنهم يشبهون الكهنة الذين يعتقدون أن لا أحد قادر على فهم خفايا نظام حياتهم إلا أنفسهم .

وبعد ذلك سألني الحاكم بصوت فيه لهجة مصطنعة وماكرة : فيمن سأولي قيادة جيش تدمر المستقبلي المعفر بالرمال ؟

وأجبته بأنه لصنع قائد حرب يلزم وقت أقل من ذلك الوقت المخصص لتشجيع جنرال حقير .

●بلغ ولدي «**وهب ـ اللات**» من العمر أربع سنوات . وأصبحت البدوية التي ترضعه جزءً من المنزل ، فبإمكانها الإقامة معنا ، حتى مماتها ، فيما لو رغبت ، وإذا ، كفت العجوز مباركة عن خلق المشاجرات معها كل يوم . أما طفلي الصغير فكان الطاغية على هاتين المرأتين ، فهو يرفض إعطائهن يده ، ويهرب عارياً تماماً منهم إلى حديقة القصر ، بعد أن يكون قد رفسهن على مؤخرتهن . ويسرع إلى حوض الماء المغذي لنافورة مياه مزينة بتمثال لآلهة شاب يحمل درعين من البرونز . ووهب اللات هو الأكثر ثرثرة ، والأشد قوة والأكثر قتالاً مع الجميع ، ولا أستطيع أن أمنع شعوراً بالسعادة يغمرني عندما أراه ، وهو يقود أترابه إلى اللعب ويرميهم أرضاً ، ضارباً إياهم ضرباً مبرحاً .

وفي غالبية الأوقات ، كنت ، أتركه بين يدي مباركة ، ومرضعته فلم أكن أكرس له وقتاً طوياً من ساعات نهاري وبهذه الطمأنينه الغامضة التي تقود الجياد ، والكلاب نحو معلمهم الأوحد ، كان يهرول نحوي مذ يلمحني ، ولا يعود يود معرفة أي من البدويتين ، اللتين يمرران له جميع رغباته .

وأطفال شعبنا ، رقيقين ، سريعين ، ويدركهم الوعي باكراً ، ماكرين ، فتراهم يتراكضون في أزقة تدمر وشوارعها ، بأرجلهم القصيرة .

أما طفلي ، فجميل المحيا ، وهو يشبهني ، بشكل جبهته وأنفه ، وفمه . ويحدث لي ، أن أنظر إلى صورة الملكة «كليوباترة» المحفور على كأس الذهب الذي أعطانيه والدي ليلة زفافي ، فأجد وجهي ، ووجه وهب ـ اللات . وأعتقد بأنني من سلالة هذه الملكة فأجد تشابهاً بين حياتها وحياتي .

ومن هي الأم التي لم تحلم بما سيصبح عليه مستقبل ابنها ؟ وبالنسبة لي ، فلا أعلم إذا كان الطموح قد ترك مكانه للقلق . واقتلعت فجأة من نعاسي ، فحدث أن أسرعت ركضاً إلى سرير إبني ، وكأنه مهدد بسوء ، بحيث أنني كنت الوحيدة التي أنذرت به . ودخلت غرفته ، وقربت مشعلاً من الغطاء الخفيف الذي يغطي سرير ولدي كانت عدة حشرات من البعوض ترقص حوله في تلك الليلة المرعبة . كان تنفسه منتظماً ، وحواجبه عريضة ، أمّا شعره المجعد الناعم فكان يتهدل بخصلات على جبينه ، وكان يغط في نوم عميق . وانحنيت على سريره الشبيه بزورق صغير ، وكأنه يبحر باتجاه شواطىء غامضة ، فنظرت إلى وهب اللات . ومرّ الوقت ، كان كل شيء هادىء ، بينما كانت دقات قلبي تخفت من دقاتها . وفي هدأة تلك الليلة سمعت صوت الحراس الموزعين على محيط القصر ، وكانت كلماتهم المتناهية إلى سمعي ، من وقت لآخر ، تبعث في شيئاً من الإطمئنان .

وبعد أن هدأت ، آليت ، الانسحاب من غرفة صغيري والعودة إلى سريري ، عندما ميزت فجأة بأنه أثناء دخولي غرفة ولدي ، كان الحارس متكئاً على رمحه ، ويغط في سبات عميق ، فكان يشخر ، وكذلك مرضعته أيضاً . فيالهذا الإهمال الفاضح من هذين الاثنين ؟ وعمدت إلى إيقاظهم ، عندما دست

بقدمي على وجوههم . وإذا لم أفعل ذلك . فلعل أحداً يقدم على خطف ولدي ، أو ربما قتله . ولكن هذه الأشياء غير موجودة هنا إلا في القصص . وبتأثير الرعب ، عدت أدراجي ، وحملت إبني إلى سريري . وفي اليوم التالي ، ضحك أوذينة من خشيتي ، ولكنه أسرع لسوط المذنبين والمقصرين في أداء واجبهم . ولطالما أحببت هذه المشاهد . وعندما كنت فتاة صغيرة . حدث لي أن شاهدت مرات عديدة ، والدي وهو يصفع قواد القوافل ، بأواني نحاسية ، أو صفعهم على الوجوه ، عندما يقصرون في أداء واجباتهم .

ـ واعتقد ، أن أوذينة ، غير مسكون ، بهاجس ، حماية وهب ـ اللات . فلطالما ، نظر إلى بطني أثناء حملي ، بزهو لأنه استطاع إخصابي ، بينما الآن ، لا يعتبر وهب ـ اللات إلا واحداً ، أضيف إلى ما يخصه من الرجال ، ويعيشون معه في القصر . بينما يعتبر أن ابنه الحقيقي هو «هيروديان» . رجل فظ ، تافه ، وجاهل ، إنني لا أحب هذا العجوز . ولكنني لا أحتقره في ذات الوقت ، بينما أوجس شراً من هيروديان .

وعندما تزوجني أذوينة ، خشي إبنه على والده من أن يصبح يوماً ضحية لشبابي . ولتحفيف غضب ابنه ، أغدق عليه والده الكثير من العطايا ، وألقاب الشرف ، وأعلنه الوريث الشرعي له ، وأهداه ، منزلاً فخماً ، حيث يمضي فيه أوقاتاً ماجنة ، وسط فتيات ، وداعرات .

وتقبل أوذينة ، حياة ابنه بفوضويتها ، وابتسم أوذينة عندما ألمح له والدي ، أن هيروديان ، قد طلب من التجار حصة كوسيط في تجارة الزيوت ، والتمور ، وتجارة البغاء . فإذا ارتكب خطأ إثارة موضوع ما أمام زوجي فإن الروابط التي تجمع الأب بإبنه ستصبح أكثر إقتراباً وسأكون أنا الضحية الأولى لتحالفهم . ولم يكن «هيروديان» يجهل بأنه محتقر ومكروه من البعض . فهو يعرف ذلك ويخشى في لحظة موت والده بأن حزباً يمكن أن يتشكل إلى جانب «وهب ـ اللات» : ففي بلادنا في الشرق من السهل القبول بموافقة الأمراء على تسويغ أعمالهم الطالحة عن طريق تسوية الحسابات بواسطة السلاح ولقد قرأت العجوز مباركة في عيني «هيروديان» بأنه يفضل أن يكون الوريث الشرعي الوحيد

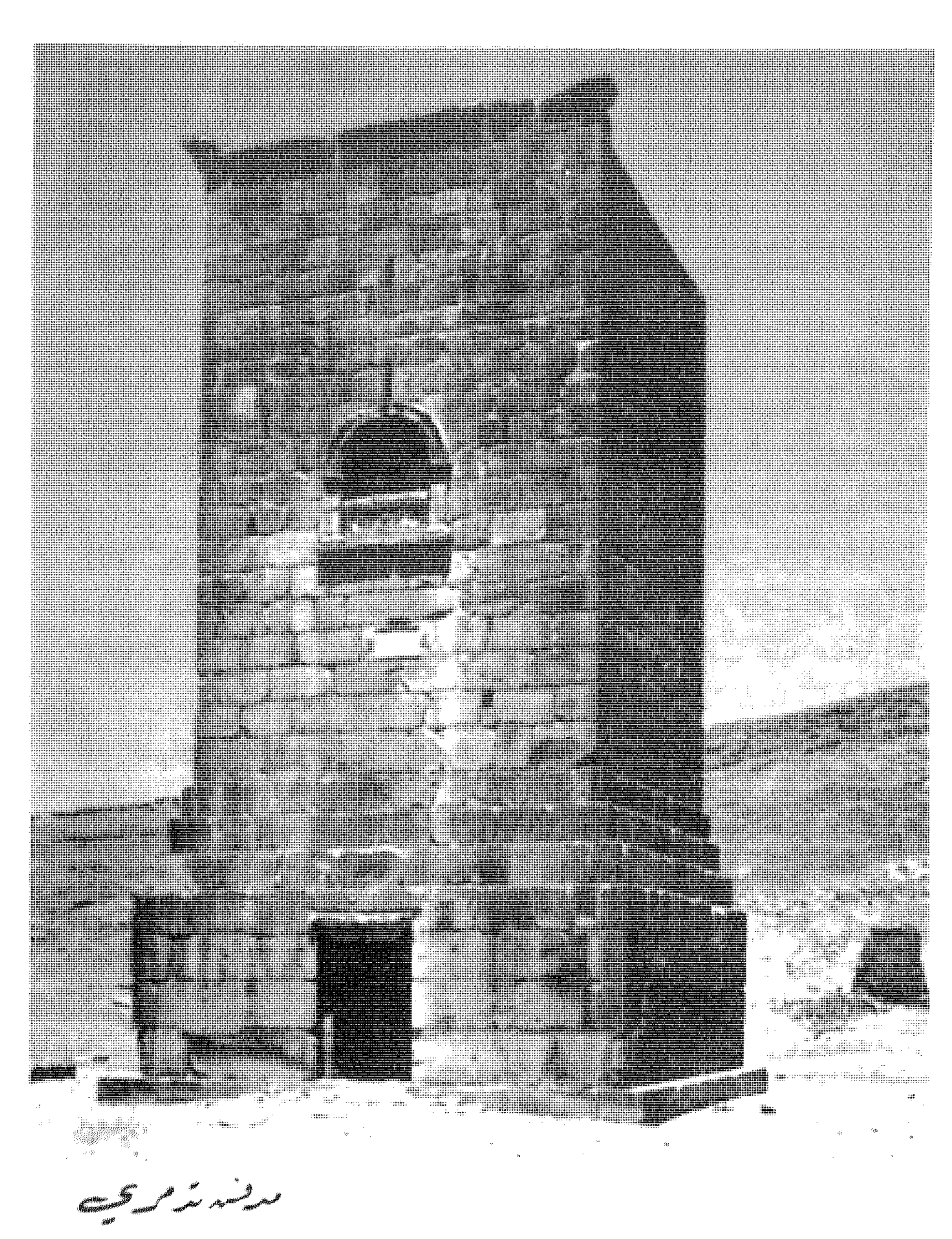
لأمير تدمر وأن النية المبيتة ، في اقتراف جريمة القتل لصغيري «**وهب اللات**» جاهزة للتنفيذ ولكن ربما على المدى البعيد . فإذا عانى طفلي من المصير المشؤوم للقيصر فما الذي سيحدث آنذاك لزنوبيا ؟

إن أوذينة لا يزال حياً ، وسأعمد إلى إرسال وهب اللات إلى إحدى القبائل البدوية المؤيدة لنا ، والمعسكرة في قلب الصحراء ، حيث النساء ، كاشفات لوجوههن ويقمن بأعمال جر المياه من الآبار . وأعتقد أنه سيكون بمأمن هناك ، من المكائد التي يمكن أن تحاك خلف الكواليس .

يجب علي أن أكسب الوقت وأحمي إبني وخلال سنتان سآخذه من عند النساء لأضعه بين أيدي معلمين حيث أستطيع أن أراقب بنفسي المناهج والتمارين . ولا بد من أن أجد معلمين موضع ثقة وقادرين على معرفة قياس ما يناسب من علوم لأمير تدمر الصغير : فاللغة وكتابة الشعوب المجاورة ، ومهنة السلاح ، والتجارة وفكرتين أو ثلاثة أفكار بسيطة بحيث يستطيع من خلالها معرفة قيادة جيش أو قيادة مدينة ، فالجندي الذي يتعلم الفلسفة لن يكون عسكرياً جيداً ولا فيلسوفاً جيداً . وبفضل ذكاء وحنكة «**وهب اللات**» فأنه لن يكون بحاجة إلى معلمين لمدة طويلة وهذه الفضائل جد طبيعية بالنسبة للعرب . ويجب على إبني أن يكون معجباً بي دون تحفظ وعليه أن ينتظر كل شيء مني ويجب عليه عندما ينظر إلي ، أن تكون الدهشة مرتسمة على عينيه وأن تضيء وجهه عندما يراني أمتطي ناقة السباق وأنطلق بها في الساحات .

البارحة قمت بربطه خلف ظهري بواسطة قماش بحيث ربطتنا الواحد للآخر وإعتليت به ناقتي «**البيداء**» وانطلقت بها . لم يكن باستطاعتي أن أراه ولكنني كنت أسمع ضحكه وتصفيق يديه وكنت أعلم بفخاره . وقمنا بإجتياز المدينة متبعين الشارع الطويل المزين بالأعمدة على الجانبين واتجهنا ناحية الأبواب .

ـ وكانت جموع الناس مشغولة بالبيع والشراء ، وآخرون متسكعون أتوا الى هنا لإحتساء الشراب وبيع الأحلام ، وسرعان ما عرفونا . فأسرع بعض الشباب أمامنا صائحين ؛ «أفسحوا ، مكاناً لزنوبيا ! أفسحوا الطريق لأميرنا الصغير !»



مدفن تدمري

وسرعان ما توترت ناقتي ، فتارة بسبب الصراخ وأخرى بسبب الذباب الذي ملء عينيها ، وبدأت تظهر عليها علائم نفاذ الصبر ، فنهرتها لتخّب «وهي مشية الدابة السريعة» . واصطف الجموع كالحراس أمامنا حتى الأبواب ، وكان وهب اللات يصيح من الفرح ، طالباً مني مضاعفة السرعة ، وعندما أجتزنا الأسوار دفعت ناقتي فانطلقت برشاقة نحو المرعى ، بإتجاه وادي النخيل . ودهش صغيري لسرعة البيداء ، وبدا عليه القلق ، فصمت ، ولم يعد يتكلم بينما شعرت به عند كليتّي ، فكان جسمه الصغير حاراً وإنكمش من الخوف . ودفعت البيداء على الاسراع أكثر من ذلك . فحلقنا وسط غيمة من الرمال الرمادية والذهبية . أما إذا لم يسعفني الزمن في صنع رجل ، فسأكون ، أنا زنوبيا التي تتحرك بإسمه .

ـ إنسحق الجيش الروماني ، في معركة طاحنة مع الجيش الفارسي ، واعتقل الامبراطور ڤاليريان ، وأصبح أسير الملك سابور .

وعندما وصلت الاخبار الىٰ تدمر ، لم يرغب أحد في سماعها ، فبقدر سرعتنا في تلقف الاخبار المغرضة ، بقدر وقوفنا متشككين أمام الحقيقة . وقد وصل من انطاكية ومن «شالسي» مئات الهاربين الحمقى ، صارخين بوجود خيانة ، وذلك حسب قاعدة المهزومين ، الذين يجيدون إستعمال أرجلهم للهرب أفضل من استعمال أذرعهم للقتال .

ـ وحدثت المعركة في محيط جرابلس . حيث نزلت الصواعق على نسور الجيش الروماني . واجتاز «**ڤاليريان**» الفرات بهدف الوصول بحركة التفاف الى انطاكية البعيدة ، وآملاً في مباغتة الكتائب الفارسية ، في معركة طاحنة قاضية ، وأراد بذلك أيضاً تقوية شجاعة جنوده الذين ذبحوا في ميدان المعركة ، وفي مراكزهم المعزولة المترامية في الصحراء .

ـ كان اليقين ، في إحراز النصر في هذه المعركة ، بسبب طعم الغنائم ، وعلمت بأن الجنود تعبوا وانهكوا من قبل عدو غير منظور ، وسريع الحركة وماهر في صنع الكمائن ، بحيث أدى ذلك الى ارتباك صفوف الجيش الروماني . ولأنهم دخلوا انطاكية بدون معركة تذكر ، فكر **ڤاليريان** ، وجنرلاته «**باليستا ـ وماكريان**» . بأنهم قد حققوا نصراً مؤزراً وأن الفرس لن يكونوا قادرين أبداً ، على استيعاب الصدمة بفضل الجيش الذي انطلق من الفرات .

ـ وفي الماضي ، تراجعوا بدون توقف عن حدود الامبراطورية الرومانية الواسعة ، فتصور الرومان بأنهم كانوا أداة الإرادة الآلهية . فالآلهة قد توفيت وسحقت الجيوش ، بينما هبط قوادهم الى الأرك الاسفل في السلم الاجتماعي ، فأصبحوا عبيداً . والتاريخ مليء بقصص الجيوش المسحوقة ، والتي انطفأ ضجيجها فجأة ، في صمت المعارك الضائعة وبالرغم من ذلك فلم يستطيع معلمي العجوز التوصل الى إقناعي بأن روما كانت دائماً المنتصرة . وتوصلت الى صياغة لائحة طويلة عن أشهر الأضاليل في تاريخ روما ، ولكن كورنيليوس أبي وإستكبر ، لأنه رأى في ثروة روما غنى سماوياً فكان يكفي لآلهة الحرب «مينيرڤا»أن تقرع الأرض برمحها . حتى تنبثق من ثناياها جيوش جديدة .

ـ وكان كل يوم يمر ، يحمل الي أنباءً جديدة ، عن معركة جرابلس فالمصير غالباً ما يفرض على الملوك المهزومين ، وقد عاناه «ڤاليريان» بدوره . **وعلمت بأن الملك سابور عندما يريد إمتطاء جواده ، فإنه يلجأ إلى استخدام كرسي لذلك . فهل أجرؤ أنا على التفكير في الفعل ؟**

ـ وفي تدمر أصيب الناس بالدهشة والصدمة . وبدون شك فإن ثقتنا في الجيش الروماني قد تزعزعت منذ عدة سنوات ، ولكن صورة إمبراطور مكبل بسلاسل الحديد ، بدا لكل واحد منا وكأن نوع من تدنيس للحرمات ، بحيث أنني شخصياً لم أستطيع البقاء في منأى عن التفكير في ذلك .

ـ وفي غمرة اضطرابهم ، كتب العديد من الملوك رسائل الى الملك سابور ، يطلبون منه فيها اطلاق سراح «ڤاليريان» معللين ذلك بسنة المتقدم ، ومكانته الامبراطورية . فهل أضعنا صواب التفكير ؟ . ان ما يطالب به الناس قد ينطبق على الجنود البسطاء ، وليس على القيادات الكبيرة التي مارست الأوامر والقيادة .

ـ وقد أعلمني مرسال أوذينة ، بأنه يسرع حالياً بإتجاه تدمر وان مكره يتجاوز دهاء ثعلب الصحراء ، في تجنب المكائد والفخاخ ، ولا يزال عجوزي الصياد ، يفاجئني بأعماله ، ولكنه لم يعد يدهشني .

ولكي يأخذ مكانه بشكل أفضل ، وسط المجتمع العسكري الروماني ، فخوراً بردائه الارجواني القنصلي ، فإنه اضطلع بحق القتال الى جانب الامبراطور الذي سلمه قيادة جنود الاحتياط ، وجناحي الفرسان . وأعلمني

الرسول . بأن معلمه ، لم يكن متواجداً في جرابلس يوم الكارثة ، وكنت أعرف جيداً نوعية أوذينة ، بأنه لا ينخرط في قتال ، الا عندما يكون واثقاً من النصر ، وضامناً له ، وعندما إشتم رائحة الخيانة ، فسرعان ، ما ترك ميدان المعركة ، لأنه فكر بأن هناك من الحمقى أكثر من الشرفاء ، يرغبون في الموت لأجل قضية خاسرة . وعلمت أيضاً ، بأنه من أصل ثمانية جيوش كانت تحت قيادة ڤاليريان ، بقي منها أربعة فقط ، استطاعت الإفلات هاربة سواء بإتجاه الأناضول أو نحو سورية .

ـ وبالرغم من وجود نقاط غامضة في هذه القضية ، فإنها لم تفرحني ، ولم تحزنني . لأنني تنبأت بها ، وكنت أنتظرها ، وكنت أخشى أن يتباطىء حدوثها ، وهكذا ، فنحن الآن ، وجهاً لوجه أمام جار قوي وقادر . وارتفعت أولى المعسكرات حول تدمر ، فقد جنّدنا بضع عشرات من قواد المئة العجائز ، بعد أن جالوا بنعالهم المصنوعة من ثمرة القرانية بلاد الغال أو «البانوني» ، وإستقروا حول البحر الداخلي ، وكانوا مستعدين لبيع خدماتهم لمن يدفع لهم لقمة العيش . وإذا حدث ما حدث يوم كان كورنيليوس حياً ، وهو يسقيني الكأس المترعة للانتصارات الرومانية فإن الفرح كان سيغمرني لمجرد التفكير ، بأن القيصر الأسير عليه الآن أن يثني ركبتيه في زنزانته ، وأن يقطع الاحجار كتيجان للأعمدة ، أمام هذا «السابور»سواء الفارسي أو البارثي ، فإنه يبدو وكأنه الأقرب إلينا من الآخرون واليوم ، وقد أصبحت زوجة أمير تدمر ، وأم طفله ، فيجب علي أن أقيس نتائج الاحداث السريعة جداً ، والتي تعترض مصيري ، وتدحرج زهر النرد سريعاً ، وكبر «وهب ـ اللات» فلم يعد طفلاً ، وأنا لم أتوصل بعد لتقريب أصدقاء سريين ، لأنني سأكون يوماً بحاجة اليهم للحماية ، فحتى الساعة ، لايزال سندي الوحيد ، صيادي قاتل الثعالب . ولكن هل من الممكن لـ«كاسيوس ـ لونجان» أن يساعدني ، في زيادة نوعية وعدد الجيوش المرابطة على طرفي الفرات ، والدخول في مفاوضات مع الحلفاء ، ومعرفة فيما إذا كان أسر ڤاليريان المشين ، يعني نهاية القوة الرومانية في الشرق ، وإفهام هذا السابور أن حرية سير قوافلنا ، ستعود على عاصمته بمصادر لا تنضب من المنافع ، ووزن

الأمور ، في أي من كفتي الميزان ، يكمن حالياً ، لدى صديقنا المؤقت الرومان ، أم الفرس ؟

ـ إنني أعرف تجار تدمر ، فهم لا يفرغون صناديقهم بالكامل وإنني أعرف بأنهم على استعداد لجميع الخدمات فأولئك الذين تمرغوا عند أقدام الرومان ، سرعان ما أرسلوا مبعوثاً الى سابور . وهكذا إنقسم التجار بين حزب مؤيد لروما ، وآخر مؤيد لفارس ، ولكن هناك الحزب الأقوى الذي يقف بجانب المنتصر .

ـ والأبواب مشرعة على كل الاحداث ، والتطورات فإذا لم يصل أوذينة بسرعة الى تدمر ، ففي خضم هذه الاحداث ، ليس من المستحسن ، بقاء الأمراء بعيدين عن قصورهم ، فالخناجر مشرّعة وهي دائماً مشحوذة النصال .

ـ هذه اليوميات ، بقيت مخبأة في صندوق مباركة لمدة أكثر من سنة ، لأني ارتأيت ، أن أحداً لن يقوم بالتفتيش في صندوق ثياب مباركة القديمة ، وخلال هذه الشهور الطويلة حدثت أمور وتطورات كثيرة ، وغالباً ، ما أعتقدت أن كل شيء قد ضاع ، وبدأ أوذينة يتذوق ، أعمال الدولة ، وأراد مراقبة كل شيء ، ولكنه كان يحدث معه أن يخلط ما بين مكر قائد جماعة قطاع الطرق ، مع التنظيمات الضرورية لإدارة أعمال العامة .

وعندما وصلت أخبار الهزيمة في جرابلس الى تدمر ، خشي بعض الناس من حصول قلاقل وإضطرابات ، وكان وصول المجموعات الأولى من الفارين قد أرعبهم ، وأسر الامبراطور «**فاليريان**» وقع بين الناس كالصاعقة . ونحن لم نشهد الحرب إلا من خلال قصص مواطني انطاكية ، من سوريين ويونان أتوا على التتابع لاجئين إلى مدينتنا . عندما ضربتهم العاصفة . وكنا مستبعدين عن ميادين المعارك فالرمال كانت تحمينا بأفضل من جيوش القيصر واذا حدث سوء للجيوش ، فإنها سرعان ما تلتجأ الى فلسطين . وللمرة الأولى ، طغت موجات هجرة اللاجئين على تدمر وشعبها الصغير الذي يحب دائماً التجمع على جانبي طريق الجنود لرؤيتهم كيف يسيرون بأرتال منتظمة ، على صوت الأبواق ، ولينظر إليهم بعيون تختلط فيها السخرية والحزن ، وتحتقن وجوههم لهؤلاء الرجال الذين

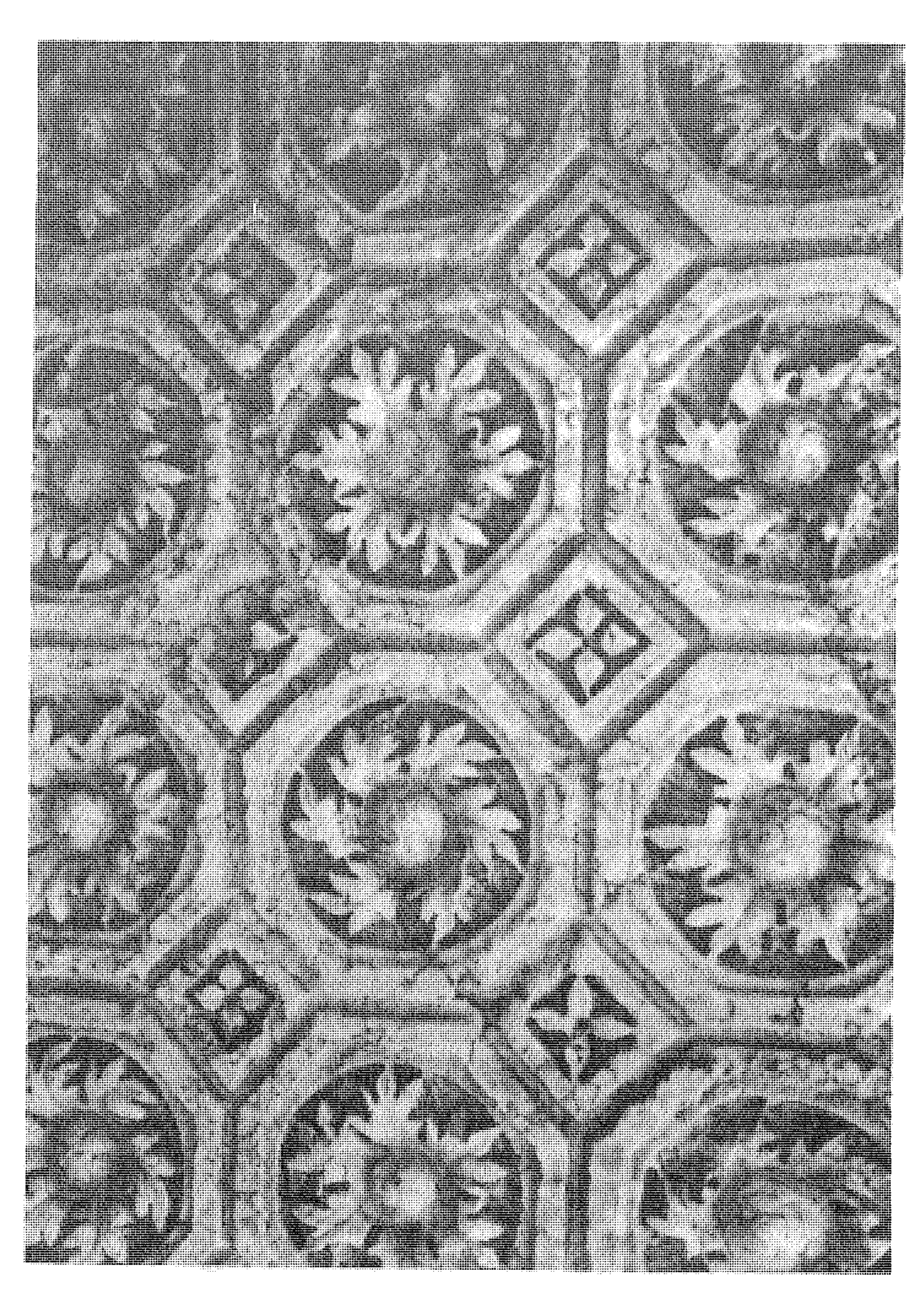
رموا خوذهم ، وسيوفهم ، ودروعهم ، وتروسهم ولاحظوا ، فجأة أن الجنود بدون سلاحهم ، يشبهون الحلزون بدون قوقعته . بينما هؤلاء فإنهم لم يظهروا أي خجل ، بل على العكس ، كانوا سعداء لأنهم أنقذوا جلدهم ولكنهم مزقوا هدوء المدينة ، فقد غزوا أمكنة الإقامة وأثاروا المشاجرات ، التي لم يكونوا فيها غالباً المنتصرين فجميع سكان تدمر يحملون خنجراً سريع التشريع من الحزام . وهذا ما أثار موجة من القلق بين التجار الأغنياء ، فأسرعوا الى إغلاق متاجرهم، بسلال غليظة من الحديد ، وطلب والدي من الحاكم أن يضع بأمرته كتيبة من فرقة الفلاڤيا السادسة عشر لتأمين الأمن في المدينة ، ولقد تعلل «ڤيدالوس» بأن وظيفته المدنية تمنعه من القيام بهكذا خطوة ، وأحتج بأن قواته المرابطة هي فقط لمقارعة حصار طويل الأمد .

واجتاح والدي الارتياب من جراء ذلك ، ومما زاد في شكه الظهور الفجائي للمحاربين «الساسانيين» هؤلاء العدائين «عّدائي الصحراء» الذين لا يترددوا في مهاجمة قوافلنا ، على طريق «ڤولوجيزياد» وهم معروفون بمشيتهم الخفيفة ، وأنفهم الذي يشبه منقار العقاب ، ووجهم المثلثي الشكل ، بحيث أن أعداداً منهم شوهدت وهي تجوب الأسواق ، منقبين بعيونهم وكأنهم أتوا ، لتحديد المنازل الجيدة ، الممكن سرقتها . ومن شرفة قصري ، لاحظت خيماً بدوية انتشرت على طول الأسوار ، وكانت شبيهة بتلك الطيور السوداء ، ناشرة أجنحتها وكأنها تستعد للتحليق نحو الآفاق الغناء ، وفي أثناء الليل تناهى الى سمعي قرع الدربكة ، حيث أن الايقاع كان يعني نفاذ صبر الساسانيين ، وتأخرت حتى رأيتهم يشعلون نارهم ، راسمة دائرة عريضة من الدخان حول تدمر ، فأخذت بروعة هذا الضجيج وهذه النيران ، واجتاحني الرعب ، فلم أعد أترك وهب اللات إلا نادراً ، وكنت أعلم أن نصف كتيبة الجند المكلفة بحراسة قصرنا ، منذ أصبح أوذينة ، قنصلاً مستعدة للفرار بجلدها ، اذا ما تعرضنا لأدنى اعتداء وأنها ستبحث عن ملاذ لها في الفرقة السادسة عشر ـ ڤلاڤيا . وأما هؤلاء الجند ، فليسوا مستعدون للدفاع عن حياتنا ، لخسارة حياتهم ، بل كانوا فقط لاسدال المستوى الرفيع للالقاب الرومانية ، ولاثبات وجود روما ، حتى في حدائقي حيث كان يلهو

وهب اللات بين أرجلهم ، وهم لا يحركون ساكناً كالتماثيل ، عندما يكونون متكئين على رماحهم ولا يتحركون الا للبصاق في نافورة المياه التي تجمل حدائق قصرنا .

ـ وانقطعت اخبار أوذينة على غير عادته في ارسال من يطمئني عنه ، وخشيت عاقبة الأمور ، فتدمر لم تعد آمنة ، وأميرها ، غائب ، ولا أحد يعرف عن أخباره شيئاً ، ومطالب والدي أمام الحاكم الروماني لم تجد أذناً صاغية ، فأجتاحني الرعب على والدي ، وفكرت بالهرب من تدمر ، والالتجاء الى عشيرة والدي البدوية الذين حضر غالبيتهم ليلة زفافي ، وكنت عندما أذهب مع والدي لزيارتهم والاطمئنان على قطعاننا من الخرفان والجمال ، كانـوا يهبون لاستقبالنا والترحاب بنا ، ويلعبون دور الأسرة المتماسكة الواحدة بشكل متقن وعندما كانوا في زيارة قصري ليلة عرسي ، كانوا يتجاهلون بشكل متعمد التحف الغالية والثمينة التي تزين قصري فكانوا يشيحون بوجوهم عنها ، بالرغم من أنهم يقدرونها ويعشقونها سراً ، وكانوا يتكلمون مع خدم القصر وكأنهم الملاك أو أولي الأمر ، منذ ذلك الوقت ، لم أرهم ، ولم يظهروا ثانية لزيارتي ، ولابد أنهم سيستقبلونني ، اذا ما التجئت اليهم مع ولدي ، وسيأخذونه بينهم على أنه فرد منهم بالرغم من أنهم لا يعرفونه ، والحقيقة بأنني سأقبل بشظافة عيشهم اليومية ، ولكن عماتي العجوزات اللاتي كن يدلكن شعر زبيدة الصغيرة بالحنة ، وكذلك يديها في خفية من والدي ، قد توفوا منذ سنوات عديدة ولكني لم أعد فتاة عمرو ، بل أصبحت زوجة أمير تدمر ، ويحضرني السؤال ، هل سأتعرف على أبناء أعمامي ؟ إن الوجه الوحيد الذي أتذكره بدقة تفاصيله ، هو لذلك الفارس الشاب ، ولكن هل سأراه يا ترى ؟ فمعه ووهب اللات ، نستطيع القيام بالسباقات الطويلة على النوق البيضاء ؟ ولكنه حلم ، لا أملك حق السماح لنفسي بالتفكير به .

فأبناء عمومتي ، يعرفون تماماً ، بأن الجيش الروماني قد هزم وأن ڤاليريان قد أصبح أسير بلاد فارس وهذا الموقف ، يضع والدي وأوذينة في موقف سيء . واذا ما التجئت اليهم ، فأخشى أن اؤخذ على انني قدمت كلاجئة هاربة ، كانت



نقوش سقفية تدمرية

تحتقر أهلها بالأمس . وحتى لتأمين سلامة حياة ولدي ، فإنني لن أخبط خبط عشواء . لقد قررت الغاء هذه الفكرة .

ـ وفي إحدى الامسيات ، لم أستطع إغماض جفني ، ولهذا قررت أن أخرج الى الشوارع متسكعة في هدأة الليل كما كانت تفعل كيلوباترة ، عندما كانت تتستر ، وهي تجوب شوارع الاسكندرية ، وبالرغم من اقفال كبار التجار ، لمتاجرهم ، الا أن جموع الناس ، لم تقفل أرجلها عن الرواح بين الأسواق ، وأحسست بأنني كنت متعبة من خوفي ، متعبة وخائفة من كوني وحيدة وشعرت برغبة جامحة ، بأن يأخني أيّ رجل بين ذراعيه أىّ رجل ، لا يهم سواء أكان بدوياً ، أم جندياً .

وبإزدياد العقد ، والتطورات ، والحل المنشود ، لم يعد يهمني شيء ، فلا سياسة ، ولا جوليا دومنا ، ولا أمور العامة لقد بدا كل شيء بغير ذي نفع .

وبأعتبار أنهم أرادوني فتاة رومانية ، بتثقيفي بثقافة الرومان فلم لا أحظى بالمتعة العابرة ، كما يفعل أوذينة الذي بالكاد أعرفه ؟ وتناولت معطفاً ذي قبعة ، وارتديته بعد أن أسقطت قبعته على رأسي ، لكي لا يعرفني أحد وهممت بالخروج من غرفتي ، عندما لاحظت إنتصاب جسم أمامي ، كان ذلك ، خيال العجوز مباركة ، كانت تمسك بيدها فانوساً يضيء وجهاً حجرياً ، وعينين تنظران نظرات مخيفة . ورفعت يدي لأصفعها ، فلم تحرك ساكنا ، وقرأت في نظراتها ، التي أصبحت نظرة كلب شرس يسهر على معلمه ، وعلمت أنها قررت منعي من الخروج بأي ثمن . إنها لحمقاء ، وعجوز شمطاء هذه «المباركة» التي طالما حَزَرَتْ ما يجول بفكري حتى بدون فهمٍ لأسراري . وسقطت يدي الى جانبي . ومرت لحظات ونحن واقفين وجهاً لوجه ، ثم أخذت بكتفي وأعادتني ببطء الى سريري . وبقيتُ صامتة لا أنبس ببنت شفة . وعمدت الى خلع ثيابي بدون أن تنطق حرفاً ، وبحركات أليفة ورقيقة ، ساعدتني على الاستلقاء وأخذت رأسي بين يديها ، وغمغمت أخيراً بالأغنية التي طالما أحببتها ، وفضلتها على جميع الأغاني ، تلك التي تتحدث عن النوم الصغير ، وتظاهرت بالنوم وعندما غادرتني مباركة ، عمدت الى سّد أذني لكي لا أسمع ضربات الدربكة التي كانت تناديني تحت الخيام السود ، الباسطة لاجنحتها حول تدمر ، وعلى محيط أسوارها .

ـ وفي صباح اليوم التالي وصل البريد الى مجلس الشيوخ وكانت الرسالة تختصر بكلمات ، حديث جنرال منتصر ، يملي أوامره ، ويسهر بنفسه على تنظيم تفاصيل إنتصاره ، وأعلم أوذينة في رسالته بأنه سيصل خلال ثلاثة أيام ، ويأمر فيها أن تزيّن المدينة لتحية جنوده العائدين ، وانتشر الخبر في تدمر ، وبعد عدة ساعات ، فتح التجار متاجرهم ، والهاربين بالأمس ، تجلّدوا في لعب دور الإفتخار . وعمد البدو ، المعسكرين حول الأسوار ، الى طي خيامهم والرحيل .

والقلق الذي كان سائداً بالأمس ، مسحه فرح جنوني بحيث لم يفكر أحد ، بتمحيص الأسباب . وأسرع والدي ليزف الي الخبر مزهواً ، بأن صهره قد حقق إنتصاراً ساحقاً على الفرس .

وأسرّ إليّ ، أوذينة ليلة عودته ، حول أحداث جرابلس ، بأنها كانت قاسية عليه لأنه لم يشارك في المعركة ، وأنه لن يقدم النذور للآلهة ، لأنها أبعدت عنه مصير ڤاليريان . وبنظرة ثاقبة ، وازن بين الاحداث المستجدة فعرف استحالة اضطلاع ڤاليريان بمسؤولية ، امبراطورية الشرق ، وبالطبع فإنه لم يكن بمنأى عن نتائج أحداث الهزيمة الرومانية على تجار تدمر ، الذين اجتاحهم القلق وخشية فقدان سلطته الخاصة ، أسرع بإعلام موعد عودته القادمة ، وأعطى أوامره لفرسانه بالبحث عن الجنود الرومان المهزومين الفارين ، على طول مجرى الفرات

وأما الجنود الأقل حساسة ، فسارعوا بالالتجاء إلى معسكر أوذينة ، بأسلحتهم ، التي لم يتركوها في ساحة الوغى ، ولعلمهم بأنهم واجدون للطعام والحماية في معسكر أمير تدمر ، بالرغم من كونه زعيماً عربياً .

واستقبلهم أوذينة ، بدون سخرية أو تهكم ، ولكن بدون شفقة وأخضعهم لقوانين كتائبة الصارمة ، وكأنه جنرال روماني حقيقي . ولو كان قائد جيش غيره ، لعمد إلى ذبحهم أو إرجاعهم إلى ميدن المعركة المحطم ، وبدلاً من كل ذلك ، قادهم أوذينة عائداً بهم إلى تدمر ، وواعداً إياهم أن رواتبهم ستصرف لهم كالمعتاد ، ومن أمواله الخاصة . فهلل الجنود المتعبين ، إذ رأوا به بادرة أمل .

ـ والبطل ، ماهو إلا رجلاً بلباس رسمي ، حاملاً لسيف ، أو رمح ، أو قوس ، أو لدرع يغلف الصدر ، ويقرع الأرض بمشية متزنة متناسقة . وهكذا

دخل أمير تدمر مدينته كـان يخفي فرحه لرفعه يده اليمنى ، على الطريقة الرومانية ، ليجيب على تصفيق أعضاء مجلس الشيوخ المجتمعين أمام المجلس ، وأرسل ابتسامة إلى وهب ـ اللات ، وهويتابع طريقه ، ووراءه كتائبة الخفيفة ، من حملة الأقواس ، والفرسان ، والجنود الرومان المهزومين في معركة جرابلس ، وتبع طريقه حتى وصوله إلى المعبد الكبير ، معبد بعل ، حيث كان بانتظاره كهنة آلهتنا ، وكانوا حفاة الأرجل ، يرتدون الملابس البيضاء ويعتمرون التيجان العالية وفوقهم بدا قرص الشمس العظيم .

ـ ألم يربط أوذينة ثروته ، لإعجابه بالشمس . ألم يكن مسروراً لخشيتي من الجن ، ألأن أحداً ، لقنه عبادة ميترا المقززة ؟

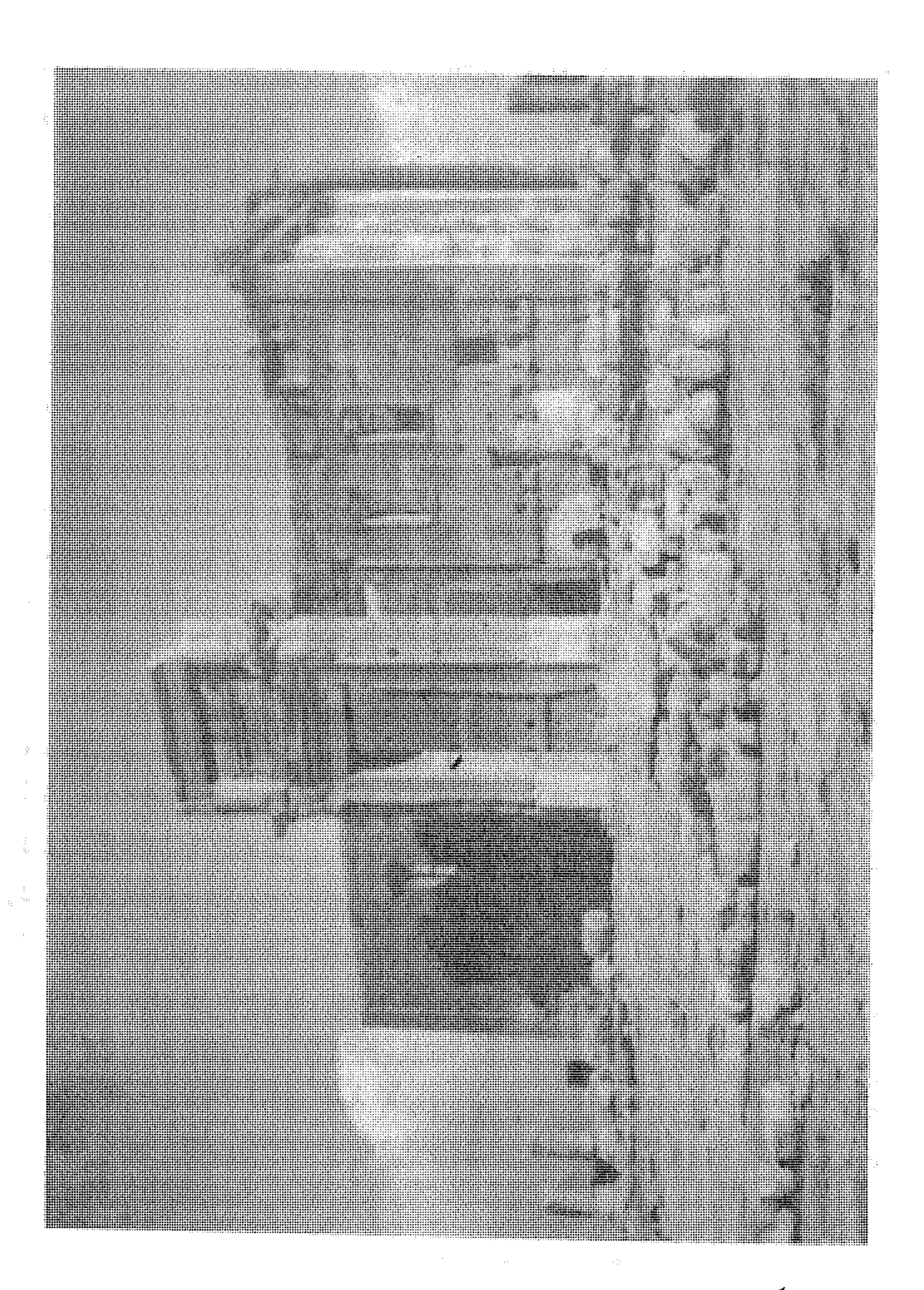
ولخطأ في قدرة الناس على فهم الأديان الأكثر مطابقة لطبائعهم فقد عمد غالبية التدمريون إلى ولوج عدة معابد تتراوح في إنتماءاتها ما بين الأديان السورية ، والاغريقية ، والفارسية أو العربية ، ولم يقفوا إلا نادراً بوجه بعض الأقوام القادمة من إنطاكية المتعصبين لدينهم ، والمخالف لتصرفاتهم . أما الآلهة فإنها الحانية دوماً على الجنود . المنتصرين أو المهزومين . ولهذا فعلى أي ضابط أن لا ينسى أبداً تقديم الإجلال لهم . وقد قدم أوذينة طقوس التطهير ، والتبخير ، بشكل مبالغ فيه ، وسكب على المذبح النبيذ المقدس ، الذي قدمه له الكاهن الأكبر في كأس من الذهب ، وساعد القائم على ذبح الأضاحي ، عندما حانت لحظة ذبح المواشي . ولكن كيف حدث أنني لم أقدّر صيّادي العجوز حق قدره ؟ فقد نجح في الحفاظ على فِرقة سليمة دون أذى يذكر ، واستعاد بقايا الفرق المذبوحة ، والرجوع بجيش صغير حقيقي إلى تدمر ، بحيث أن السكان هللّوا له واعتبروه بطلاً ، بينما كان الامبراطور الروماني الذي جعله قنصلاً ، يجر أذيال المهانة وكل أنواع الذل ، وهو مكبّل بالأصفاد . مطأطأ الرأس خجلاً ، معفراً بغبار الهزيمة . وبرفقته إثنين من الجنرالات الكبار ، وهما «**باليستا**» و «**ماكريان**» .

ولا يعر ف أحد ، ما الذي يحدث لهم ، هناك ، ولكنه مما لا شك فيه ، أنهم ينحنون أرضاً ، حتى تكاد تلامس جباههم الأرض مع جنودهم المهزومين من قبل فرسان الإمبراطور الفارسي «**سابور**» .

ولن يجد «أوذينة» أبداً ، أفضل من هذه الفرصة المناسبة ، لقطع علاقاته وروابطه نهائياً ، مع روما . وبالتالي القيام بإعلان نفسه ملكاً على شعبه ووطنه «تدمر» ؟

وفي مساء يوم عودته المظفرة وعندما طوى النهار أشيائه ورحل ، صعدنا نحن الاثنين إلى سطح قصرنا . حيث تستريح المدينة الغافية تحت أنظارنا . وقد إختفت عند خط الأفق نيران البدو . وبدأ نسيم الصحراء يداعب أوراق النخيل العريضة حاملاً معه عقصات برودة ليالي الصحراء . وأراح أوذينة ناظريه على أعمدة الشارع المستقيم الذي يخترق المدينة ، والمعابد ، وقوس النصر الذي مرَّ من تحته هذا الصباح ، والمدافن البرجية ، والأسوار ، والقصور الرخامية . وهزَّ رأسه ، وعاد إلى تأمل المدينة وكأنه السيد والراعي في ذات الوقت . وكان السؤال الذي يحرق شفتاي ، ولم أكن في حاجة إلى طرحه ، لأنه ردَّ عليَّ بكل بساطة : «صبراً ، يا زنوبيا . فلم يحن الوقت بعد . فسيأتي يوم ، لن نعود فيه إلى رؤية هؤلاء الأجلاف ، الذين نحن في غير حاجة إليهم ، بل هم من بهم حاجة إلينا» . وأشار بإبهامه إلى الحرس الذي كان ماراً في ممرات الحديقة ، ورمحه على كتفه .

●وفي ذات المساء ، روى لي أوذينة قصص الفارين من «**أوديسة**» . فقد وصلت الفرق الأربعة التي كان يرأسها شخصياً «**ڤاليريان**» ، الذي وصل أولاً إلى أرض المعركة حيث كان من المفترض أن ينزل الجنود أحمالهم ، فهاجمتهم الفرق الفارسية المدرعة بالحديد ، واخترقوا صفوفهم وكأنهم آلات حرب . وكانت المفاجأة للجنود الرومان الذين رأوا هؤلاء الخيالة الغرباء . المثقلين بحديد الحماية ، فلم يتمكنوا من استيعاب الصدمة فسقط الكثير منهم ، والبقية عقدهم الرعب ، فرموا بأسلحتهم ، وولوا هاربين تاركين نسورهم ، في ساحة الوغى ، بحثاً عن ملجأ أمين . وهنا وصل أوذينة بفرقه الخفيفة السريعة ، وانقض على العدو الفارسي وكانت هي المرة الأولى التي مارس فيها أوذينة تخطيطاً عسكرياً حقيقياً . فقد أعطى الأمان للجنود الفارين ليعيد ضبطهم في فرقه القوية ، بينما فرَّت الخيالة الفارسية أمامه طلباً للأمان .



الهيكل المركزي لمعبد بل

ومنذ أن سمع عزف الأبواق بعد عودته إلى مدينته مظفراً أثناء عبوره لشارع الأعمدة ، ولرؤيته لقواد الرومان والمنصات التي أقيمت لتحيته . وتأدية التحية بالسيف له فإنه لم يعد مقتنعاً بكونه قائد فرق النبّالة التدمريين ، بل إنه بحاجة إلى قيادة جيش كامل .

ولإعتبارات عدة ، منها هزيمة الجيش الروماني وأسر الإمبراطور «**ڤاليريان**» ، بينما بقيت الفرق التدمورية سليمة من أي هزيمة أو أذى : فقد بدأ الشعب يعلن بأن أميره السوري لهو أفضل قائد عسكري ، بل وأفضل من الأسير «**ڤاليريان**» . وبالرغم من إمساكه واعتماده على أحداث كارثة «**إديسة**» ، وعلى ترتيباته التي اتخذها بنفسه ، لقلب الأمور إلى صالحه ، من نتائج الحدث الكارثي فإن أوذينة لم يكن بعيداً عن المشاركة في القرار السياسي . ولعله كان يؤيد ضمنياً ، وقوعه في مكيدة حاكها بنفسه ، والسرور يملأ جوانحه . وكانت الأحداث التي تضمه تبدو غامضة جداً ولكنه لم يشك للحظة ، أن ساعة الأحداث العظمى قد أزفّت وهو عارف ، بالوجهة الصحيحة عبر الإرباكات ، بأفضل من قائد القافلة العابرة للصحراء . ولماذا عليّ أن أذكّره بما أسرّه ومن ثم قيادته في الطرق الوعرة للحقيقة كما نقود حصاناً إلى فيء داخل إصطبله ؟ وللوصول إلى هدف مخططاتي ، فإنه من الضروري لهذا الإبن للخمية الكبرى ، بأن يصبح في نظره شخصية أكبر مما هو عليه في الواقع . فكل شيء يسير سيراً حسناً ، شريطة أن لا أنسى أبداً ، أنا ، زنوبيا ، بأنه من المفيد أيضاً الكذب على الآخرين ، ولكن الخطر يكمن في الكذب على الذات . وطالما أن الفرس سيكونون مشغولين باللحاق بقوات «**باليستا**» و «**ماكريان**» ، فقد نعمت تدمر بنوع من الهدوء ، وأما إذا سحقت هذه القوات أو تراجعت إلى «**بيتينيّا**» . فإن علينا أن نخشى الأسوأ من مشاريع ملك الملوك «**سابور**» الذي يدّعي بأنه وريث إمبراطوية الملوك الكبار . وبدىٰ لي ، أننا لا نزال بحاجة إلى الوجود الروماني ، لأنه يخدمنا ، أكثر من معاناتنا له . ولكن كراهيتي لهم ، لن تصبح أقل حيوية ، وقد تعلمت على مدى السنين ضرورة الصبر ، ولكن هذه الفضيلة الخاطئة للجبناء ، كثيراً ما دمرت الإرادة وقادت إلى الخنوع .

ـ وبإظهار الإعجاب المحسوب جيداً ، أمامه ، استطعت الوصول إلى إمتلاك ثقة أوذينة . فكان يُنتزع إرادياً من صَمَتاتِه العاصفة . ليُسِّر إلي بهواجسه ، أو مشاريعه ، وهو صائد كبير . وإنني أعرفه قادراً على الإمساك بزمام الأمور دون ضعف ، وقذف رمحه بيد واثقة . وبدت لي اللحظة سانحة لمشاركته في أعماله . ولكن ليس في أسرار سرير الزوجية . وكان الشعب يكن لي مشاعر الوِّد ويبدي لي صنوفاً من الصداقة ، ولم تبدو من أعضاء مجلس الشيوخ أية ظاهرة تدل على الغيرة لكوني عالمة بأمور العامة .

فالناس تتمتع بفضيلة الثرثرة أكثر منها بفضيلة الشجاعة وقد أتى إلى تدمر فلاسفة إنطاكية طلباً للأمان وكثيراً ما سألوني بأن أترأس جلساتهم .

وبدون شك ، فإن شبابي وخبرتي لا تسمحان لي بأخذ مكان لي في إدارة الأعمال ، ولكن أوذينة وبقية أعضاء مجلس الشيوخ لا يصيبهم الضجر والغضب إلا بسبب كثرة سني حياتهم . وذهبهم . وكأن عدد سني حياتهم وأوزان قطعهم الذهبية ، ضرورية جداً لإدارة وتصريف شؤون الدولة . وقد أدركت منذ زمن طويل ، بأن عدد الحمقى العجائز يفوق عدد العقلاء منهم . وأما ما نسميه تجربة ، ليس إلا بقايا الجبن والوضاعة ، مضافة إلى العقد المتجمعة خلال حياة الإنسان .

فالقيادة ، هي أولاً المال ، وهي تتطابق مع إغداق الدفعات الكبيرة الموعودة إلى جميع الجنود الذين أعيدوا إلى تدمر ، وتوزيع الهدايا السخية على ضباطهم بدون أن يؤثر ذلك على كنوز أوذينة . وبالرغم من أنني لم أدرك هذه الأهمية ، فإنني شككت بهذه الكنوز الضخمة ، التي لا تقارن بكنوز الضباط الرومان . اللذين ما إن يؤبوا من إحدىٰ حملاتهم في الشرق ، حتى ليكون بمستطاعهم شراء جيش بأكمله ، لقلب السلطة فيما لو أرادوا . هذا وإن تصاعد الحقوق الملحوظة على القوافل ، تكفي للسماح بالصرف على جنود الفرقة السادسة عشرة «**فلافيا ـ فيرما**» . وقد أصبح منذ وقت قريب طريق خليج بلاد الرافدين خطراً ، وغير مطروق من قبل التجار ، ولم تعد صناديق الأموال العامة تغذّى ، إلا بواسطة الضرائب الداخلية ، على الزيت والكتان ، والملح أو على بنات الهوى . ولهذا

وجب البحث عن مصادر أخرى للتمويل . واجتمع مجلس الشيوخ لإقرار ضرورة دفع رواتب جنود أوذينة . وبدوا مترددين عندما علموا بأن هذه العناية تعود إليهم . وكان على أوذينة أن يعدهم بأن قافلة كبيرة فيها لو غادرت إلى انطاكية ، محروسة بالفرقة السادسة عشرة «فلاڤيا ـ فيرما» . وتأخذ جواز مرورها من قنصل روما «سبتيموس ـ أوذينة» ، ستأتي أُكلها . وكان الرأي ، أن ترافق القافلة ستة آلاف جندي ، موزعين على ستة فرق ، لتأمين حماية القافلة ، وعلى رأسهم أمير تدمر ، ولكن ذلك لم يحدث أبداً . ولقد رأيت أعضاء مجلس الشيوخ ، وهم ينتصبون وقوفاً ، مصفقين لمعلمهم ، بينما كان بدوره ، قد سبق من قبل الإثني عشر شيخاً في خروجهم من المجلس ، وبذات علامات العظمة المرتسمة على وجوههم ، والتي لم ألحظها إلاّ على وجه السفير الإمبراطوري الذي زار بلادنا .

ولا شك بأنني فضلت أن يظهر زوجي ذاته بأقل من رتبة القنصل . وبأكثر قليلاً من حقيقة كونه أوذينة ، ولكنه اعتقد خطأً بأنه أصبح أعلى مرتبة مما كان عليه في الأمس ، وأنه انسحب من ألاعيبه الماكرة ، التي أطرّته ، كقائد عصابة .

ـ ان نقود وكنوز تجار تدمر تساوي تلك التي يملكها قيصر روما . وقد كلّف رؤساء المناطق والمتحدثين الشعبيين أو قواد الجيش المكلفين من قبل أعضاء مجلس الشيوخ بتوزيع المعاشات النقدية .

ورأى أوذينة أن حمايته تزداد اتساعاً في هذه النقطة فسارع بتأييد من ذات أولئك الضباط بإعلان استقلاله . وبدون أن يهتز أو يتردد ، بسحب حسامه من جرابه ، وأشهد الآلهة على أقواله بأنه سيغمد سيفه في صدره على أن يقوم بخيانة ثقة ڤاليريان . وتم نقل الخبر الى معلمي العجوز «كورنيليوس» . الذي بدى له المشهد ذو رسم جميل ، على عظمة روما ، التي آمن بها طيلة حياته ، فضلاً عن قراءتها في بطون الكتب ، وفي الحقيقة فإن أوذينة كان مغتبطاً عند إعلانه عن عزمه على ممارسة قيادته باسم القائد الشاب «غاليان» الذي أخذ على عاتقه منذ أسرِّ والده ، حمل أوزار الامبراطورية . وكان الموضوع الأكثر تحديداً هو اندفاع أمير تدمر على طرقات التمرد ، وكان بلا شك الشخص الأول في تأجير تواضعه وإخلاصه ، وأما أنا «زنوبيا» فكنت العارفة الوحيدة بأوزان فضائل أوذينة تحديداً .

ـ وفي أواخر السنين العشر ، ولعدم إمكانية مقاومتهم لمحاولات ارتداء اللباس الأرجواني الإمبراطوري ، الملقى على أكتافهم ، من قبل ضباط ذوي رتب متدنية ، فقد أغتيل ثمانية جنرالات رومانيين ، من قبل أولئك الذين أقسموا اليمين علناً لحماية الإمبراطورية ، وكان ذلك شرفهم الأعظم . ونحن نعلم هذه الأشياء تماماً في تدمر وقد دفع أوذينة أولئك الذين مدّوا أذرعتهم إليه ، فقد إتبع إنحدار تلك الترتيبات الكبيرة الطبيعية ، وقد دفعه حذره الى خيلائه ، وزهوه . وقد اعترتني الغبطة أكثر من شعور خيبة الأمل الذي أصاب النساء اللاتي لديهن حسٌ تذوق الجسارة الخاص بهن . والحكْم يكون على البعض قانونياً وعلى البعض الآخر بدافع مهارتهم ، ولكنه مقدس من قبل الجميع ، ولكن حركة أوذينة ، لم تحرك ساكناً فيُ الفرقة السادسة عشر «**الفلاڤيا ـ فيرما**» ، فقد رفض قائدها حتى اللحظة الخضوع لأوامر الأمير العربي ، ولكنه استكان أخيراً أمام تجمّع وتوحّد كلمة القناصل .

تمت التحضيرات بسرعة كبيرة ، وإنطلقت قافلة بإتجاه انطاكية . ولكنها كانت أقل دسماً ، من تلك التي نهبت من قبل رجال الملك **سابور** ، وكانت تحمل على متنها بضائع نادرة ، كان منها لؤلؤ خليج بلاد الرافدين ، وحرير الصين الذي لم يتوقف عن تزيين ثياب الإمبراطورية ، وكان البخور يباع بوزن الذهب في أسواق روما ، فالآلهة بحاجة دوماً الى بخور الصنوبر ، وبدافع الحذر ، فقد إتخذت القافلة وجهة طريق حمص ، صعوداً مع نهر العاصي ، حتى انطاكية ، مروراً بأريتوس ، ولاريسا ، وأفامية ، حيث يمكنها الاستظلال خلف الأسوار القوية ، وقد اتخذت الطريق الأطول ، ولكن قائد الفرقة السادسة عشرة ، كان قد اعتزم أمراً في عدم طرق باب المغامرة بسلوكه طريق الصحراء السورية وأضاف الى حيطته ، إرساله لطليعتين من طلائع الكشافة على ظهور نوقهم البيضاء لمسح طريق النهر العظيم ، وإعلامه بأية حركة من قبل العدو الذي يمكن أن يظهر بغتة في ضواحي حلب .

ولم تتخذ هذه الترتيبات فقط لحماية البضائع الثمينة المنقولة بل للسماح أيضاً لعضو مجلس الشيوخ المرسل من قبل أوذينة ووجهته روما بالوصول سالماً اليها وحاملاً معه رسالة الى القيصر الجديد .

ـ ومنذ أن أضاع «ڤاليريان» حريته ، وبدأ يجرّ أذيال تقدمه في السن ، خلف حصان الملك «سابور» حاول ابنه «غاليان» فرض سلطته على مجمل مساحة الامبراطورية الكبيرة ، حيث بدأت نيران التمرد والعصيان تشتغل هنا ، وهناك .

ـ وتناهى الى سمعنا ، أن «الغوط» قد فرضوا قانونهم الخاص على منطقة «الدانوب» . وتمركزت الفرنجة ، ما بعد «الراين» ، وقامت قيامة الغوط الناربونيون ، بينما اضطرت القوات الرومانية المرابطة في «موريتانيا» بالانسحاب الى الشواطىء . وإدعى أحد الرواة ، بعلمه أن «غاليان» قد إنغمس في الرذائل والمجون . ولم يعّد مهتماً بالحفاظ على وحدة الامبراطورية . وأكدَّ آخرون بذات الثقة بأن القيصر الشاب يتمتع بشجاعة كبيرة أمام المخاطر الجسيمة التي لم تعرفها سابقاً روما ، أما هذه الأقاويل والإشاعات فيمكن تقبّلها بحذر شديد ، وحيطة متأنية ، لأن أقل هفوة ، يمكن أن تؤدي الى تسريع إنهيارنا ، وفي ظروف أخرى ، كنت قد لجأت الى الضغط على أوذينة ، لكي يعلن استقلاله ولكنه ومنذ أن أعلن بين القوات أنه آل على نفسه ، بتسليم نفسه الى آلهة الحجيم . فضلاً عن خيانة الإمبراطور ، وقد أصبح بذلك أسير شخصيته وجنوده واذا ما أبدى شيئاً من إدارة الإنفصال لكان خنجر قائد المئة أقرب اليه من حبل الوريد . ولتطويق ما يمكن أن نسميه المستقبل ، فقد وجب علي أن أحرّر بنفسي ، رسالة موجهة الى هذا الـ «غاليان» ، للتعبير عن ولاء تدمر ، وللتأمين على أن مقاطعات الوطن الشرقي ، لم تعرف قط سنداً أشدّ ثقة ، وأكثر أماناً من «سبتيموس أوذينة» الذي أصبح مستشاراً بدون أدنى شك ، كمكافأة له على أعماله الحسنة ، وبفضل امبراطور سيء الحظ ، وآلهي .

ـ وبعد أن سطرت رسالتي هذه ، بيد مرتجفة من الغضب ، وصلت الى مغزى هذه الرسالة ، عندما تراءت لي فكرة الأشجار التي تميل بفعل الريح القوية ثم تعود الى الإنتصاب بعنف فجائي ، وتمكث واقفة أما الريح العاتية التي أناخت الأشجار ، فتعمد الى الهرب ، بإتجاه الأفق وسيأتي يوم ، أرفع فيه أنا بذاتي الرأس عالياً ، ويمكن أن أكون فيه وحدي وسط الجميع ، لأنظر بشكل أفضل الى إبتلاع رمال الصحراء لجنود الفرق الرومانية . ومن المناسب القول أن حامل هذه الرسالة

«**وورود**» لن يكون مسروراً في الاعلان أمام الإمبراطور عن ولاءنا ، وإخلاصنا للإمبراطورية . وهو يقوم بشراء الآذان الصاغية للهمسات والعيون المتفحصة للحركات المريبة ، وهذا يمكن أن يكون سفيراً سمعاً ورؤية لسيدة الإمبراطو . ولأخذ العلم ، فمن المفيد القول أن جميع أعضاء مجلس الشيوخ وقوّاد الجيش هم كالسلعة معروضين للبيع ، كما كان الحال زمن «جول ـ سيزار ـ وكراسوس» ، فهم لم يرثوا إلا البخل والرغبات القاسية .

أما «**وورود**» فهو شيخ العارفين بالإقناع ، فلغة الذهب ، ليست بحاجة الى وسيط . وأما القصص التي يقال عنها تاريخية ، فإنها تقوم بتجريدهم من زخرفتهم ، ومن متناقضاتهم . ولكني لم أكن أجهل أن الرومان . عنيفين ومرهوبي الجانب الا عندما تمسهم الهزيمة . ففي البداية ، اعتبرت حركتنا ، كناية عن الضعف ، فالمهمة الموكولة الى «**وورود**» بدت لي أقل خجلاً ، وذلك لأن تدمر قررت أن تلعب «**غاليان ضد سابور**» ، ومن المهم بالنسبة لنا كان في استخلاص التأمين على أن سلطة الإمبراطور الشاب غير معترف بها في روما .

وبدون عقبات ، وصلت قافلتنا الى انطاكية ، حيث بيعت حمولتها بالكامل ، ورحل «**وورود**» على متن سفينة مبحرة الى «**أوستي**» وهذه السفينة تقوم برحلات منتظمة ما بين «**سلوقية البحر ، وأوستي**» وعادت الحامية الرومانية التي رافقت القافلة في رحلتها والتابعة للفرقة السادسة عشر ، «**فلاڤيا ـ فيرما**» لتحتل مواقعها تحت أسوارنا . وإمتلأت صناديقنا بالذهب ثانية ، ولكن تجارنا بقوا في حالة من القلق ، لأن مستودعاتهم أصبحت خاوية من أثمن ما كانوا يملكون ، ولإعادة حركة الناعورة يجب إعادة اطلاق عدة قوافل بإتجاه طريق خليج بلاد الرافدين ، ومن هناك نحو **ڤولوجيزياد** و«**شاراكس**» . حيث يتكدس البورسلان ، والأقمشة الحريرية ، والأحجار الكريمة ، والتوابل وجوز الطيب . وكثيراً ما سمعت في منزلنا والدي ، وفي سني شبابي والذي أحفظه عن ظهر قلب ، ذات الأحاديث المهموسة ، وذات المواضيع العنيفة ، وأنا أسمعهم الآن في منزل زوجي . وحسب عادته ، فقد بقي أوذينة صامتاً لعدة أيام ، وأعلم تماماً بأن الحجج لم تكن ناقصة بيد التجار العرب الذين يفكرون بصوت عالٍ جداً ، على

أن صداقة الفرس لهي بذات أهمية صداقة الرومان ، ولهذا وجب إرسال سفير الى الملك «**سابور**» . وهو أفضل من أي شخص يعلم أن اللعبة لا تمارس بكشتبان واحد ، فهو يخشى على كرسيه من الضياع وممتلكاته ، بل على حياته . لقد كنت اراقبه أثناء وجومه وصمته . فقد كان يشبه ضبعاً وجد قطعة من جيفة مرمية ، فكان يدور حولها خشية الفخاخ ، ويتقدم نحوها ، ليلكزها ، ثم يتراجع ويقف بلا حراك ضمن دائرة الصمت . وبنظرات متسائلة . حطَّ عليّ ، وكأنه شحاذ يطلب الصدقة ، يطلب النصح ، بدون الإعتراف صراحة بما يعتمل في ذهنه ، فبادلته بنظرات فارغة .

لقد رغبتُ ، في أن يأخذ بناصية قراره بنفسه ، لأنني كنت أرفض مشاركته المسؤولية التي يمكن أن تلقي بثقلها عليّ يوماً ما ، أنا زنوبيا .

وكنت أتساءل ، فيما لو تلقى أوذينة إحترام ذاته ، وأخذ زمام قيادة الجيش ، وتحدث باسم الإمبراطور وتجرأ في الإسراع بإرسال مبعوث شخصي له الى جانب الملك «**سابور**» في ذات اللحظة التي حمل فيها «**وورود**» الى الامبراطور «**غاليان**» الشهادة على ولاءه .

دامت المناقشات المغلقة للأمراء وقتاً طويلاً وذلك بغية البحث عن طريق غير متوقع لتهريب قلقهم وأرقهم . ووصلت أنباء أخرى إلى تدمر مفادها أن طلائع القائدين «**ماكريان ، وباليستا**» قد نجحا في الوصول إلى «**ساموسات**» ، حيث كانا محاصرين ، وهي ضربة إلى الجيش الفارسي العرمرم . بينما أكد آخرون بأن حكام عدة مقاطعات قد ثاروا ضد «**غاليان**» ، وتحدثت أنباء أخرى ، عن توغل الملك «**سابور**» شخصياً ، على رأس جيشه نحو الفرات ، بغية الوصول الى إنطاكية وإعادة احتلالها . والخلاصة أن الضباع الشاردة تبحث دائماً عن الجيف .

ولم يستطع أوذينة مقاومة مقاصده بأكثر من ذلك . فجمع أخلص مستشاريه حوله لإعلامهم ، بأن هكذا أحداث تبدو له خطيرة للغاية . ومن الخطأ الفادح بقاء الوطن مرتبطاً فقط بالمصير الروماني ، وقد قرر أن على تدمر إرسال سفير للقاء ملك الفرس . وبالعودة إلى شياطينه المألوفة ، عاد إلى الإستكانة إلى أنانيته ، بذات السهولة ، التي ارتدى بها ثوبه الارجواني المطرز ، الذي يقوده للدفاع عن

القيصر والإمبراطورية ، وكان عزائي الوحيد ، في التفكير بأنِ الأمير هو الوحيد القادر على الحنث بوعده ، وتوجيه دفة تحالفاته حسب هبوب رياح الثروة ، المتضمنة للفضائل الهامة والضرورية لمسيرة أعمال الشعب .

واختير والدي كسفير ، لمهمة السفر لمقابلة ملك فارس ولم يبدِ أوذينة ثقته الكبيرة بوالدي فقط ، بل كان يعتقد أيضاً أن الملك «سابور» سيكون مطمئناً أكثر لإدارة المباحثات مع قريب جداً من أمير تدمر . وبعد أن أبدى والدي مخاوفه من تقدمه في السن وأن عمره لا تسمح له بعبور الصحراء ، انتهى به الأمر إلى الإذعان . وكانت نظرته تنم عن مخاوفه . فرحيل «وورود» الى روما . حرك عليه مرارته ، كما النبتة المتيبسة التي يهطل عليها المطر بشكل غير متوقع فتعود إلى الإخضرار . بعد المصير القاسي الذي كان ينتظرها . وفي اليوم الذي سبق رحيله ، رأيته يَمرُّ بمنزلنا العائلي ، حيث ولدت وترعرعت ، ومن ذات المكان الذي اقتلعت منه ذات مساء على أصوات الطبول لانتقل منه إلى قصر زوجي . وبالرغم من أنه كان أكثر شباباً من والدي ، إلا أن هذا الأخير ، لم يستطع مقاومة تخريب السنين ، ولكن عزة نفسه ، وكبريائه ، ساعدته كثيراً في تقسية شجاعته ، بإنتظار قرار أوذينة لاعادة الألوان الى وجهه ، وإعادة إعطاء صوته ، نغمة القائد ، التي يتحدث بها كبار القادة العسكريين العجائز للَّعب بها على صغار الجنود . ولمعرفته بأن الصحراء لا ترحم أقل إهمال ، فقد عمد بنفسه الى مراقبة الإستعدادات للرحيل واختار بنفسه النبّالة الذين سيرافقونه ، كما اختار أيضاً نوعية دوابهم . ولدى رؤيته جيئة وذهاباً مرتدياً لباساً مشدوداً الى الجسد ، وحزاماً ، دليَّ منه سيفاً عريض النصل ، وخنجرين مطعمين بالأحجار النفيسة ، همست آنئذ ملائكتي في أُذنيّ ، بأنني أمام مشهد سخيف . فسارعت الى طرد هذه الفكرة لكي لا أستعيد ذكرياتي ، عندما كنت طفلة صغيرة ، عشقت والدها وكأنه بطل .

وبالإمكان دوماً طرد همسات النفس ، ولكن هذه الهمسات لم تتركني فعادت لتقول لي ، بأن الأبطال وحدهم ، هم من اليافعين في السن/، وجميلي المحيا والمنتصرين دوماً ، حتى لو ضربهم الموت ، ولكن أبداً العجائز المقوسي الظهور

بواسطة السبعين سنة من الخنوع للقوانين المكتوبة ، والسباقات على ألقاب الشرف التي تضعف أكثر من أن تدعم ، وتسند .

هذه السفارة ، لم تخفف شيئاً من آلامي «فإنني أعلم يقيناً الشمس القاتلة ، والليالي الباردة ، والصحراء ، وكثير من الأعداء ، بحيث يستحيل على مخلصيه دوماً وضعه في منجاة من الأخطار الداهمة ، وحتى أقرب المرافقين له ، كزبّاي الذي رأيته مجدداً بعد عدة سنين من الإختفاء . وقد أُعلم بقيادته لفرقة الحرس المرافقة والمتطية للجمال البيضاء وكان قد وصل الى تدمر مع بعض الأصدقاء الذين اعتادوا تأجير خدماتهم للقوافل ، وبعدها يعودون الى قبائلهم حيث يعيشون عيشة البداوة . وبعد مرور عشرة سنين بقي زبّاي شبيهاً بالصورة التي كان عليها دون أن

يعلم هو بذاته عن ذلك شيئاً ، ومطبوع في ذاكرتي منذ الطفولة ، جسد طويل ، ونحيل ، ووجه دقيق الملامح ، مؤطر بذقن رقيقة ، من الشعر الأسود ، وعينان واسعتان ، وحركات دقيقة وسريعة ، مثنية بالضياء ، وكأنها فساتيني المثنية بخيوط الذهب . كان أمامي تمثال الشباب ، ولكنه تمثال مليء بالحركة نابض بالحياة ، ولاحظت فجأة إنني منذ طفولتي لم أكن محاطة إلا بالعجائز . فوالدي الهرم ، ومباركة الشمطاء ، وكورنيليوس ، وأوليموس ، ومنذ وقت غير قصير بأوذينة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والمتحدثون ، وحكام المناطق . لقد منعت من اللعب مع أبناء أعمامي من البدو ، ومنعت من الذهاب إلى المدرسة الشعبية ، لقد نموت وحيدة منطوية على الكتب ، ومنها الممنوعة ، أنظر من خلال شقوق الأبواب ، وأراقب ألقابهم ، ومراكزهم وأراهم أمامي ينبضون بالحياة ، يتحركون ، ويأكلون . فكأنهم عراة مجردين من أي شيء في مواجهتي . بينما كان زبّاي ، هو الشباب ، وليست الفكرة للحظة من الحياة العابرة ولكنه مادة ، يمكن أن نراها ، ونلمسها . طيّعة ، ودافئة ، فليس له من بداية ، كما لا يمكن أن يكون له من نهاية .

وهذا الكشف عن الأبدية ، لاحظته في البداية أمام ثديي مرضعة طفلي القاسية والمتماسكة وبدى لي من المتعة بمكان جمع هاتين الصورتين . تلك التي للفارس بقوسه ، ونباله ، وساقيه الطويلتين ، وتلك التي لمرضعة ، ذات ثديين

رائعين ، وبإعتبار أني كنت مراقبة لـ«زبّاي» الذي كان منشغلاً بتثبيت الاحمال على ظهر ناقته البيضاء فاستدار نحوي ناظراً إلى بابتسامة خفيفة .

توقفت عند حدود المجابهة ، ولم يخفض نظره إلا بحضور والدي . وفكرت فجأة بـ أوذينة ، وبكل ما كان ينقصني ، ولم أحاول أن أتذكر وجهه الذي بقي مليحاً بالرغم من مضي السنون . بل تذكرت أوذينة ببطنه الممتلىء والمنتفخ وساقيه النحيلان، ساقا عجوز ، إنني أكرههما بكل ما أملك من قوة المشاعر .

وقبل طلوع الفجر ، بدأت فرسان النبّالة ، تغادر واحدها إثر الآخر . من منازلها ، ومضاربها ، للالتحاق بمكان التجمع ، وكان الأمر الملقىٰ على الجميع وجوب الكتمان ، وإبقاء الموضوع سراً . وقام والدي فضمني الى صدره بكل نبل دون حدود ، وكأنه التقى كتاب التراجيديا الإغريقية . وشعرت وكأن هذا للقاء سيكون الأخير بيننا . وعندما غادر آخر فرسان النبّالة واحة تدمر ، واختفى في الصحراء ، توجهت بالدعاء الى جميع آلهة تدمر ، بحماية حياة زبّاي .

من بين السفيرين اللذين غادرا تدمر ، عاد «وورود» ، أولاً ، وكان حاملاً لرسالة مختومة بالختم الإمبراطوري . ولم يكن «**غاليان**» فقط هو من أكّد موافقاً على لقب «**أوغست**» للأمير أوذينة ولكن كانت عائلته من وراءه التي شهدت على إخلاص وولاء أوذينة ، ومنذ أجيال ، كصديق وحليف للشعب الروماني ، وسأله لتجهيز جيش قوي مهمته إعادة النظام والإعتبار لروما ، في أراضي بلاد الرافدين حيث رفض قائدين اثنين هناك ، الإعتراف بالإمبراطور الشاب الجديد . وبالرغم من الطلبات الملّحة من الإمبراطور لأوذينة ، والتي لم تكن محددة بشكل آخر فان أمير تدمر ، لم يكن ليطمع بأكثر من هكذا مزية ، أسبغها عليه الإمبراطور . وقبل البدء بأية تحركات ، ارتأى أمير تدمر ، اتخاذ الحيطة والحذر حتى عودة السفير الثاني ، وهو أبي ، ولإبتهاجه وفخره برسالة الإمبراطور . عمد إلى طلب عقد إجتماع ، لإعلام أعضاء مجلس الشيوخ ، وقادة الجند ، وذوي الألقاب الرفيعة ، بخبر ردّ الإمبراطور . فسُر البعض ، وابتهج الآخرون لإعادة العلاقات الضائعة ثانية مع روما بعد الأحداث القاسية التي جرت جراء إعتقال الامبراطور ڤاليريان في «أوديسة» .

ذهب بعض التجار ، إلى الطلب من أوذينة ، منحهم لقب «**أوغست**» لأنهم أثرياء ، وبالتالي ، فعندهم إمكانية البيع ، والشراء فهم يريدون التمرغ في الألقاب النبيلة .

ومرة أخرى ، كان على القبول ، بأن القدرة الرومانية قد اهتزت في عدة مقاطعات ، ولكنها تبقى مستقرة وقوية ، ومتماسكة في هذا الجزء الصغير من الشرق ، حيث يعيش شعب ، يتميز بسهولة إيمانه ، وإعتقاداته وشجاراته ، الممزوجة بالشك ففي سورية ، أو جبال الكرمة ، في الأناضول ، وغالاتي أو في أرمينيا ، لا يزال الإعتقاد في خلود الإمبراطورية سائراً ، بالرغم من النكبات التي منيت بها الفرق الرومانية ، فهناك دائماً بعض ممن يشبهون «**كورنيليوس**» الأحمق أو من أولئك الذين أُجزل لهم العطاء . فأنشدوا لخلود روما ، وقاموا بمقارنتها بتلك النيران المشتعلة التي تزداد إشتعالاً ، كلما هبت الريح عليها .

كان المبعوث «**وورود**» قد فتن بما شاهده في روما . فالإمبراطور «**غاليان**» كان محاطاً بأعضاء مجلس الشيوخ بزيهم الأبيض الناصع ، وفي «**الكابيتول**» كان هناك ألف جندي قد تكدسوا ، بدروعهم والمسلحين برماحهم الذهبية . وأعلامهم الخفّاقة مع شعاراتهم . وخلال إقامته في روما ، هل أحيط علماً بأن الألمان قد اجتاحوا بلاد الغال ، واتجهوا نحو إيطاليا ، وأن «**الغوط**» قد اجتاحوا بلاد الأغريق ، وماسيدوان وأن الجرمانيين ، يدفعون كتائبهم ، باتجاه إسبانيا ، ولكنه بالتأكيد لم يكن بعيداً عن التفكير ، بأن الإمبراطورية تتعزز ، من تعاساتها الخاصة بها عندما علم بأن القيصر يمتلك عدة جيوش تجمع حوالي أربعمائة ألف رجل يقودهم ضباط «**إليريين**» ، يعرفون تماماً مهنة السلاح . وبأفضل من كبار جنود الأساطير . فاللقاء الذي وافق عليه الإمبراطور ، أظهر لمبعوثنا العظمة والأبهة ، والغنى ، وكثرة المعابد ، وأدوات الألعاب المدهشة الخاصة بالبهلوانية ، وروعة الأعياد والسفن الممتلئة بالقمح الاسكندراني ، الواصلة الى مرفأ «**أوستي**»

ولباس الحرس الفخم المتلألأ وكل هذا ، كان ما رواة سفيرنا «**وورود**» الى روما ، ولا يخفى على أحد ، ما يعمد إليه غالبية المبعوثين من تضخيم الأحداث لإسباغ الأهمية على دورهم ، والعمل الذي قاموا به ، ولكن ربما ، كان يقول

الحقيقة ، كما هي ، دون زيادة أو نقصان . وحقيقته لم تكن أقل تمويهاً ، فهو يعرف حق المعرفة الأمير ، وأن روايته ستلقى أذناً صاغية وأثناء ذلك ، كان أوذينة يصغى بأذن الى الضجيج الصادر عن أعداد كبيرة من الناس ، الذين بدّلوا معسكر إيمانهم . حيث كان العدد يتكاثر يومياً ، في إنطاكية ، كما في تدمر .

ففجور الإمبراطور «غاليان» ، وهجران السفراء لمراكزهم وهمسات الشعب والفوضى الحاصلة في الجيش وعصيان بعض الفرق الإحتياطية ، وخيانات عدد كبير من الضباط القادة . كل هذا يجب أخذه بالحسبان .

وخلال غياب الرسول «وورود» في روما والذي دام عدة أشهر ، كان «ماكريان ، وباليستا» الجنرالين اللذين استطاعا الاحتفاظ برأسيهما ، بعد معركة أوديسة ، وقد بدىٰ لهما أنه من العبث الإستقلال عن روما ، وتأسيس وطن في هذا الشرق ، ومحاولة السير بجيوشهم الى روما ، لتهديمها ، لأن ذلك قد يعود على تدمر بالخراب المريع .

بدأ الغثيان ينتابني . عندما أصبح أوذينة مدافعاً صلباً عن النظام الروماني في الشرق ، وبدأت أتذوق الأنواع غير المتوقعة لهذه السياسة ، حيث كنت على علم بالقفز من خلف الأشخاص ، والاستدارة واللف والدوران ، وسط كل هذا الحشد من الأمور ، الذي كان يفرض علي لمتابعته ، بغية الوصول الى أهدافي .

عاد السفير المرسل الى الملك «سابور» إلى تدمر بعد غياب عدة أشهر . وكان والدي قد توفي على الطريق أثناء عودته الى تدمر . فقد قتلته الشمس وإرهاق السفر ، بقدر ما قتله فشله في مهمته .

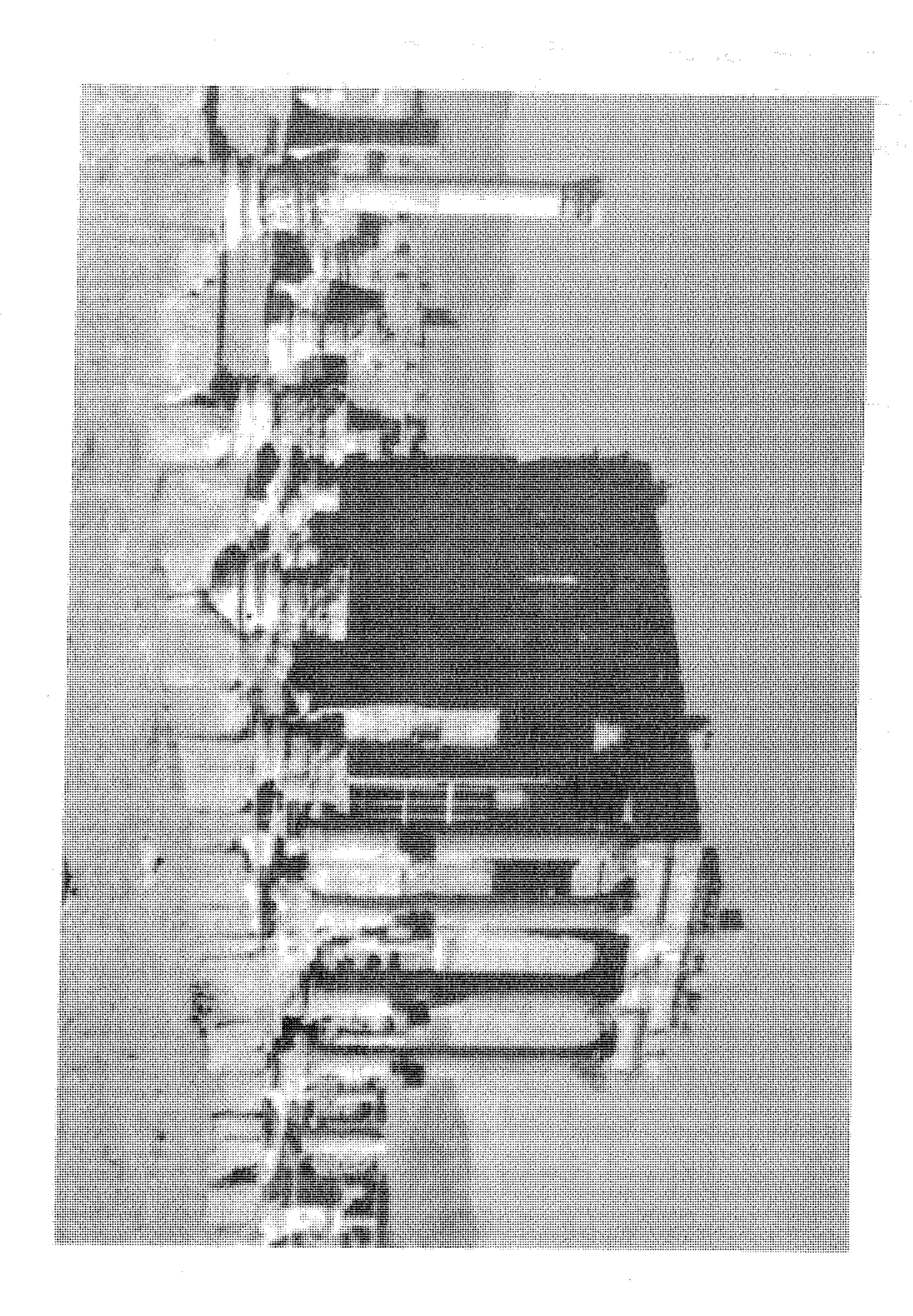
وقبل ان يبلغني أوذينة بالخبر المحزن ، سمعت صرخة ندت عن سكان القصر ، ورأيت مرضعتي تهرع مرتبكة بإتجاهي ، ثم انطلقت من حنجرتها زمجرة بائسة وكأنها حيوان جريح وسقطت على أقدامي . ودخل زبّاي ، والأمير الى القصر كانت مباركة قد علمت بالأمر ، فوقف أوذينة أمامي وتكلم بدون مقدمات ، ولا حيطة عن الظروف التي ألّمت بوالدي ، وأدّت الى هذه النتيجة البائسة ، كان يتكلم كما يتلائم مع طبيعته ، دون محاولة لإظهار مشاعر الود التي لا يحفظها لعمه أو ابنته .

وكان شعور آخر يكاد يخنقه من الغضب ، وأدّى إلى اسوداد وجهه ، ولمعرفتي به بأنه لن يتأخر عن إظهار غضبه لأسباب تافهة ، توجه تفكيري بسرعة ناحية موت والدي وناقشت الامر مع نفسي ، فلم أجد أي رابط . ما بين حادثة الوفاة وغضب أوذينة . ولم أتخيل شيئاً عندما استمعت الى رواية زبّاي .

ـ كانت كوكبة فرسان النبل ، التدموريون والتي كان يقودها زبّاي ، ومهمتها تأمين الحماية للسفارة التدمورية قد وصلت شالسي بدون أية صعوبات تذكر ومن ثم على ضفاف الفرات ، هناك حيث يتعرّج النهر ناحية الشمال . فابتداءً من ذلك المكان ، وجب اتخاذ الحيطة والحذر ، والبقاء في حالة تيقظ ، واستعداد تام ، كان الأمر ، واضحاً ، يجب عدم التقدم إلا بناءً على معلومات الاستطلاع ، المنقولة من قبل أدلاء غير موثوق بهم كثيراً ، وكان الخطر يكمن في هجوم مباغت يقوم به مقاتلي البدو ، بقدر ما كان الخطر قائماً في هجوم سريع تقوم به وحدات من جيوش الصحراء ، الذين يؤلفون عصابات متعطشة للدم ، والسلب ، والنهب .

ـ وفي أحد الأيام ، إلتقى فرساننا حول بئر في الصحراء ببعض الجنود الفارسيين ، الذين كانوا يقومون بدورية استطلاع في المنطقة ، وعلم مترجمنا بأن الملك «سابور»قد أقام معسكره الى الجنوب ، وعلى مبعدة ثمانية أيام من المسير ، وعلى شواطىء أحد أذرع الفرات ، وتحت ظلال واحة نخيل كبيرة ، ومنذ وصوله ، عرفّ والدي عن نفسه ، وعن المهمة الموكولة إليه ، والرسالة التي يحملها الى ملك الملوك «ولا يخفى على أحد أن هذا اللقب ، كان يستعمله البابليون ، وأضاف والدي ، بأنه حامل لهدايا ثمينة جداً ، وأجابه أحد جنود الفرس . أنه بإنتظار القرار الملكي ، فإن على سكان تدمر البقاء خارج حدود المعسكر . ووافق والدي على ذلك ، فهو يعلم أن قدرة زعيم كبير ، تقاس بالوقت الواجب تمضيته أمام بابه . وبعد مضي بضعة أيام أعلن أحد الضباط الفرس ، بأن السفارة التدمورية ستستقبل صبيحة اليوم التالي ، ولكنه في اليوم التالي ذهب الملك في رحلة صيد ، ولهذا كان من الواجب إنتظار عودته ، لتحديد موعد لقاء آخر .

أما زبّاي فلم يتذكر عدد الأيام ، والليالي ، التي مضت عليهم ، بانتظار



معبد بعلشمين

عودة الملك سابور . وأخيراً حدث اللقاء بين مبعوث أمير تدمر ، والملك .
ـ كان سابور محاطاً بكوكبة من جنده المدرعين الذين كانوا يرتدون زياً طويلاً مثل ملكهم . مزخرفاً بخيوط الذهب ، وتم اللقاء على ضفاف النهر ، فالملك وجنوده على خيولهم ، بينما تقدم السفير التدموري سيراً على الأقدام ، حتى وصل أمام الملك ومدّ له يده بالرسالة ، وعاد بضعة خطوات وركع على ركبتيه ، بينما سارع زبّاي وكوكبة الفرسان التدمورية الى عرض الهدايا النفيسة على الارض ، فكان منها السيوف الدمشقية المطعمة بالاحجار الكريمة ، وكان منها القلادات الذهبية ، والمرصعة بأحجار الماس إلا أن سابور ، لم يكلف نفسه عناء قراءة الرسالة فمزّقها قطعاً صغيرة ونثرها في الهواء ، ورّد قائلاً بأنه على أمير تدمر أن يأتي بنفسه راكعاً أمامه وطالباً رحمته والعفو عنه ، على أن يكون مكبلاً بالأصفاد ، وبعدها ترجل جنود الملك فحملّوا والدي ، والهدايا النفيسة وألقوا بهم في النهر ، واستدار الملك وجنوده ، منطلقين بجيادهم ، وهم يطلقون القهقهات المجلجلة بينما سارع زبّاي الى القفز في النهر ، لإنقاذ والدي الذي ابتلع كمية من المياه وهو لا يعرف السباحة فسحبه الى حافة النهر ، وصعد به الى اليابسة .

وعند وصوله الى هذا الفصل من الرواية ، توقف زبّاي عن متابعة الحديث ، والخجل يعصر كتفيه ، فعندما غادر تدمر ، كان ممشوق القد ، نحيله ، ولكنه عاد من الرحلة ، ضعيفاً ، مهزولاً ، فالعينان غائرتان وقد نتأت عظام وجهه ، وبرزت عظمة أنفه ، وكأنها شفرة خنجر حاد . أما نظرته ، فلم تعد مصوّبة إليّ ، بمعنى الإهانة ، فكان كالطفل الصغير أمامي ، الذي ارتكب ذنباً ، ولا يدري ما يفعل . واجتاحتني رغبة عارمة في تطويقه بذراعي ، لأخفف عنه مصابه ، ونظرت إليه مباشرة في عينيه ، لأنني كنت أنا زنوبيا ، زوجة أمير تدمر ، وزبّاي ، ما هو إلا راكض رمال ، عاد بيدين خاويتين ، وقلب منكسر . وبإشارة من يد أوذينة ، روى رحلته بكلمات متعثرة ، وكأنه يتعثر بها . وخبرتي في الصحراء ، كانت كافية لأتخيل عودة والدي ، والحُمى تهزّه وآلام الرأس التي لم تفارقه ، واضطراب الرؤية من أشعة الشمس البيضاءاللاهبة والعطش ، والسماء الساكنة ، بأكثر من الشمس القاتلة والإهانة التي تعضه ، وتنهشه والتي لن تتركه للحظة واحدة .

تخيّلته ، غير مستقر على ناقته ، متصلباً شاداً على شجاعته . منثنياً بصعوبة على رقبة ناقته ، حتى لحظة إنهياره ، وانقلابه على الارض .

ـ وقبل بضعة أيام من وصوله تدمر ، عاجلته المنية . ولم يقبل زباي دفنه في الصحراء فإن القبر فيها مهما كان عميقاً ، * ستنبشه ذئاب الصحراء ، لتسحب الجثة ، وتنهشها ، وعمد فرسانه الى لفِّ الجثمان بخيمة ، حتى وصولهم الى هنا ، لقد إنتهى .

وعندما أطلقت مباركة حشرجتها ، ركلها أوذينة بقدمه بعيداً .

ـ لم أكن موجودة أثناء مراسم الدفن ، ولكني بقيت بجانب والدي ، حتى لحظة نقله لإجراء المراسم ودفنه في القبر البرجي الذي ابتناه على قمة هضبة مطلّة على واحة النخيل العظيمة . كنت وحيدة بجانبه فـأردت استرجاع الأيام الخوالي ، التي رحلت بدون أي أمل في العودة ، فتذكرت صوته ، ونظراته ، وحركاته ، وحاولت أن أتذكره عندما كان شاباً قـوياً مسيطراً على نفسه ومطاعاً من قبل الجميع ، لعل الهدف من ذلك تذكر طفولتي ، فلم يكن أمامي إلا لفّة من القطن الأسود ، محزومة بالحبال ، حسب العادات المتبعة .

وعندما كشف عن وجه والدي ، لم يكن ذاك وجهه الذي أعرفه ، ولكنه كان قناعاً من العظم والجلد المبقع ببقع زرقاء . فأليموس ، قد صنع قبل مماته تمثالاً له من الحجر ، قبل أن تحيل النار جسده الى رماد ، فالجسد والروح ، يدينان بوجودهما الى اتحادهما ، ولكن الإنفصال يعيد الى الأرض مالها والطبيعة الأبدية . تعيد التشكيل بدون توقف لأجساد جديدة ، وبذات العناصر الخالدة ، لقد تأملت جثمان أوليموس بإبتسامة حزينة ، وسهرت على جثمان والدي مع قناعة أقل من تلك حدثت لي مع معلمي ، ولكن بحنان أكثر . ودهشت لسؤالي للآلهة «أين هو الآن ؟» لقد تحوّل يقيني الى شك . فدست بقدمي على أسرار الوسائل والقدر .

ـ عادت مباركة ، لتجثو بقربي على ركبتيها ، وهي تبكي بهدوء ، ووضعت يدها ، على وجه والدي ، وكأنها لمسة حنان السنين ، فبالنسبة اليها ، كان دائماً

الرجل ، المعّلم ، وكانت بالنسبة اليه خادمة سريره ، وكاتمة أسراره ، والمعجبة به .

وامتزجت حركاتها ، ودموعها ، معبّرة عن ألم يعصر فؤادها . وعندما وصل عمّال الموت مع صناديقهم ، وسوائلهم ، وأدواتهم ، ساعدت مباركة ، للوصول بها الى غرفتها ، وأجلستها على سريرها ، فاستسلمت إلي كطفل رضيع ، في ذلك المساء ، كنت أنا من أنشد لها أغنية النوم الصغيرة .

وقد بدى لي الموت ، أقل جللاً من إهانة . فلم أبكِ ، *فلقد علمت بأن والدي ليس إلهاً . وكان علي فصاعداً الطلب الى روما لمساعدتي بالإنتقام لذكراه ، وتأسيس جيش ضد سابور ، وليتأكد الجميع بأن سحق الفرس سيبقى وسيلتي الوحيدة لإنقاذ مدينتي ، وتجارها وفاجعة الموت هذه ، جعلتني استشعر طريقي ، فالموت الأسود الذي انبثق من أشعة الشمس الساطعة اللاهبة ، أوثق قلب أبي ، وسيسمع الشرق اللاهب كله باسم يتردد ، باسم زنوبيا .

القسم الثالث

زبـاي

لو أن أميراً ، تعيس الحظ ، خسر معركة ، فإن هناك دائماً جنرالات ، يحاولون الحصول على منافع شخصية لهم . وفي اليوم التالي لهزيمة «معركة إيديس» ، سارعوا لوضع الرداء الإرجواني الامبراطوري على أكتافهم ، ذلك الذي كان لأبنائهم ، وتابع «باليستا» و«ماكريان» المعركة لحسابهم الخاص ، ونقلوا مكان المعركة ثانية ، ونجحوا في الإستيلاء على عدة مدن في بلاد الرافدين ، وسورية . وإذا توصلوا إلى الثبات في إنطاكية ، فذلك مرده إلى القيادة التي سلمت لأوذينة وتوصل أوذينة بقواته الرومانية إلى سحق المتمردين ، وبدون شك ، فإنه مدّد أيام الامبراطورية ، وحقن فيها دماً جديداً ، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ تدمر . ومكافأة على إنتصاراته ، أرسل القيصر مبعوثاً شخصياً له ، على جناح السرعة ، لمفاوضة أوذينة ، على تسلمه القيادة العليا ، لجميع الجيوش الرومانية ، المبعثرة في كافة أنحاء الشرق .

وزوجي من أولئك الأشخاص الذين لا يحتقرون ألقاب الشرف ، وبالتالي ، فإنه لم يشك للحظة في أنه يستحق ذلك . فخور بملكاته ، وبلقبه

الجديد ، وقد شاهد سابقاً إسمه محفوراً على أعمدة الجلالة ولكنني لست واثقة ، من أن وهج الدرع الجديد ، الذين تزّين به ، سيمحي عما قريب الإهانة التي ألحقها به ملك الفرس . فبقدر ما تكون الأمور الإنسانية مدارة ومحكومة بضرورة حتمية لا تتغير أو بكونها تجري بالصدفة بقدر ما يكون الوحي القادر على التنبؤ بقدر ما ، بعيداً وغامضاً . وإنني أعلن ، أنا زنوبيا ، بأن أوذينة يدين بتكليفه إلى خمول القيصر ، وخيانة هذين الجنرالين . ولتوجيه قاتل الفهود عجوزي في السباق إلى القاب الشرف ، يكون في إنهيار روما ، لأنه ذو أهمية أكبر من إرادة الآلهة أو حركة الكواكب .

وإذا ما وضعت يدي في يد أمير تدمر ، فإن حرية الإختيار لا تعتمد إلا عليّ . ولأن أوذينة راغب بي ، فإنني سأقوم بالباقي .

وإذا كانت هذه المباراة ستصب في صندوق رئيس تجار تدمر ، فإنه لا يعجبني في كل هذا إلا ضفاف النيل كما هي ضفاف النهر العظيم «الفرات» ، بحيث يقال أن «زنوبيا» هي آخر نسل من سلالة بطليموس السورية .

فتاة بدوية ، ذات جذور ، ضاربة في الأعماق ، إنني بحاجة إلى أسطورة لتزّين إسمي وتبرر وجودي ، والشعوب تؤخذ بسهولة بهذه النوعيات من الحكايا ، فيكفي لذلك القليل من الذهب ، وبعض من الشعراء السيئين .

وروما لا تعطي أي شيء ، مجاناً : فقد أُوكل «غاليان» لأوذينة ، قيادة جيوشه ، وقد سبق أن أُجبر قبلاً ، على إعلان الحرب على الفرس وملكهم «سابور» . فإنشقوا عن «ماكريان» و«باليستا» وهم حكام ، وقضاة ، ورؤساء الكتائب الرومانية ، وقواد المئة ، والتحقوا جميعاً بالفارين من معركة «إيديس» . وبدأوا يتوافدون من كافة الأرجاء ، ولكن ليس بقصد الإنضواء تحت رداء إمبراطورهم ، ولكن لبيع أنفسهم لزعيم عربي ، وهم يعلمون تماماً بأنه قادر على دفع سعرهم ، لأن رنين ذهب تدمر ، قد وصل حتى آسيا الصغرى وأرمينيا .

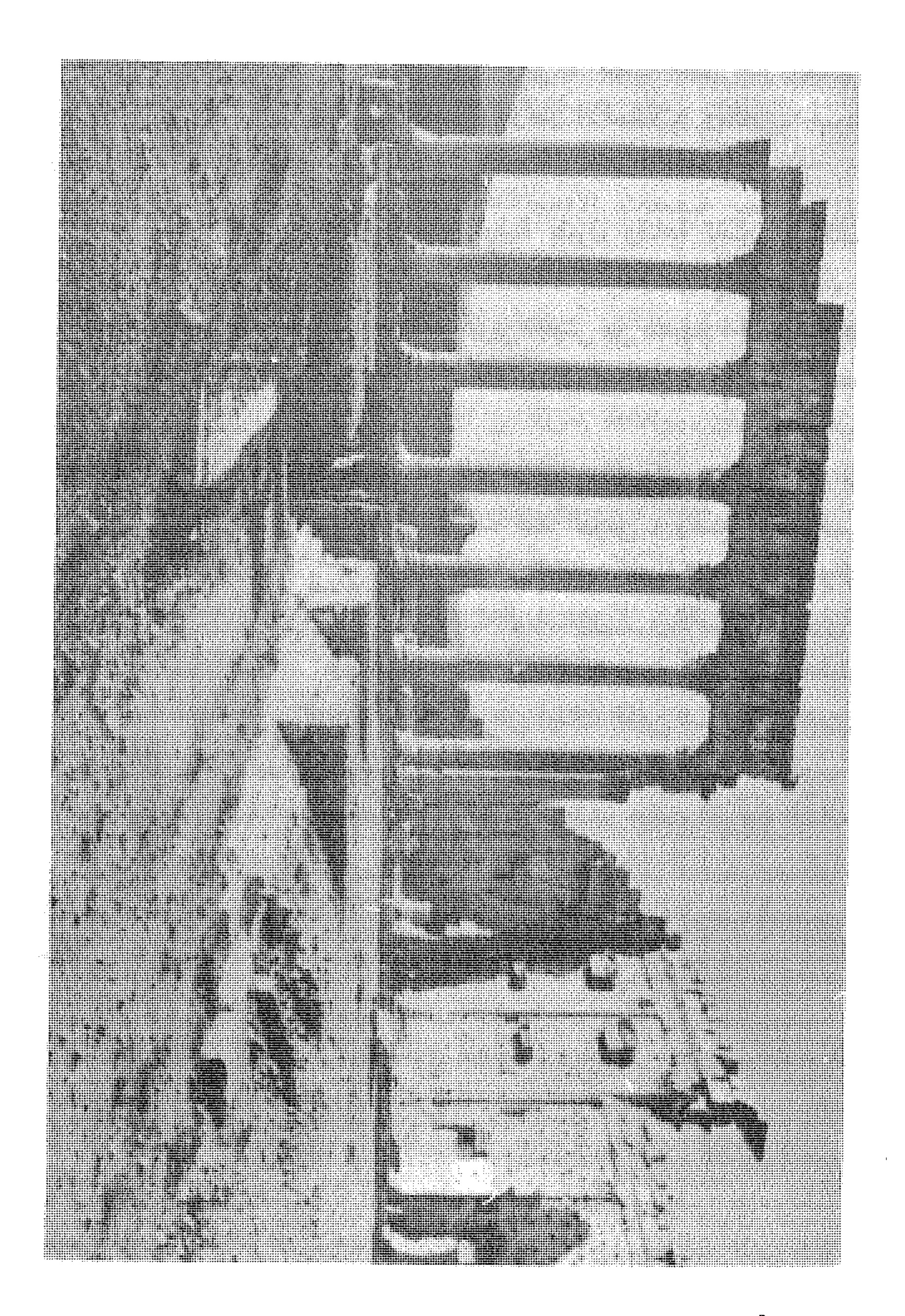
فما هو سعر شجاعتهم ، وأيمانهم ؟ لقد عرف أوذينة الكثير من الخيانات ، وخدع نفسه ، حتى أنه أصبح قادراً على تخمين أسعارهم بالضبط ، وتثمين أيمانهم

وإنني لأخمن سوء حاله من الضباط الكبار ، لأنه غير متآلف مع تقاليدهم ، وذكرياتهم .

ولقد خرجوا من صفوف مجلس الشيوخ ، محمّلين بالهدايا والتزيينات ، حيث وصلوا بدون جدارة ، إلى مراتب عالية جداً . لذا فإنهم حريصين على عدم إضاعتها بمغامرة عابرة . وإذا ضحك لنا الحظ في السلاح بقدر ما هي ثروة وكنوز تدمر التي لا تنضب ، فإنهم سيضاعفون من علامات الطاعة الخارجية والإخلاص لذلك الرئيس الجديد المفروض من قبل القيصر : ولكننا لا نستحق ذلك الذهب وذاك الإنتصار . وإذا ما عارضنا القدر ، فإنهم سيتركوننا ، ليلتحقوا بأمير آخر ، عوضاً عن الاستشهاد في المعركة وعلى أوذينة أن يبحث عن الشجاعة الجسورة لدى قواد المئة في الفيالق الرومانية ، فهم شجعان في ساحات الوغى ، وخطيرين في أوقات السلم ، وطمّاعين لألقاب الشرف ، ويتمتعون بالفظاظة واعتادوا خشونة العيش ليكونوا رجالاً جديدين بحيث أن أكثرهم جرأة ، سيتحايل ربما على الإمبراطورية بمساعدة ما ينوف عن الثلاثين ألف جندي ، المتجمعين حول تدمر وإنطاكية . ومنذ عهد قريب ، كان حشد من المجندين في إسبانيا ، ونوميديا ، وبلاد الغال ، وفي ريتي ، وإيليري ، وداسي ، وتراس ، وبيتيني وسورية ، وبرابرة . نشأ معظمهم وترعرع في المعسكرات ، أطفال جنود ، ولدوا صدفة ، في مواقع الجند ، كأولئك الذين عارضنا في زجهم بمعارك ضد الفرس .

منثنٍ على نفسه ، لثقل شكة أسلحته ، كان أمير تدمر يفكر في ثقل الدور الذي عليه أن يقوم به . وحتى ، زهوة ، وخيلائه ، وحبال التقويم ، وريبته ، كانت تجعله ، يتردد أيضاً في قيادة جيوشه ، التي يعلم حق العلم مدى ضعفها ، ويرتاع في قيادة الرؤساء العسكريين ، الذين يشك في وضاعتهم ويعرف جيداً حنثهم بيمينهم .

ولضرورة حماية تجارتهم الكبيرة ، لم يكن من الصعب إقناع أعضاء مجلس شيوخنا ، أن الحرب قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى : وبدأ رجال المال ، والمقاولون ، يخلطون بين منافع المصلحة العامة ، ومصلحتهم الشخصية ، عندما شعروا بشفرة السكين على رقابهم . وبدأ الناس في البحث عن موضع قدم لهم في



مسجد نبوی.

الأحداث القادمة لقناعتهم بأن الحرب ، لها منافع جمة ، وتأتي بأرباح سريعة ومضاعفة ، بأكثر من العمل التجاري الروتيني ، فكان منهم تجار الفحم ، والحدادين ، والمشتغلين بالمعدن الأصفر ، وتجار الأقمشة ، وبائعي الجلود ، والزيوت ، قد اتخذوا إحتياطاتهم ، لذلك .

واستقبلت الضرائب التي فرضها أوذينة بقبول وقناعة تامتين . وكانت عطاءات الأيادي اليمنى إلى خزينة الدولة ، تستنفذه بسرعة الأيادي اليسرى ، في أسواق السلاح . وبقي البعض متردداً في تموين الجيش من ذهبهم الخاص ، وهم من كانوا أكثر الناس حمية ، في تقدمة حياة أولادهم من أجل إنقاذ الوطن فتدمر بحاجة إلى الأبطال .

لم يكن أي شخص ، جاهل ، لوضعية الجيش الروماني ، غير القادر على شن معارك طاحنة في الطرف الآخر للفرات ضد الفرس ، وهكذا بدأ الجميع بالتفرق وإلتجاء المقاتلين ، كل إلى قبيلته الأصلية من عصابات البدو ، والتي كانت ولا تزال تغذي في أعينهم رؤية ذهب الساسانيين . وبالأمس ، إزدرى ، راكضوا الرمال ، نداءنا ، ولم يجيبوا حتى بأي إشارة ، فهم يفضلون البقاء أحراراً ، ومناقشة مرور ، قوافلنا ، والهجوم على أولئك الذين تسوّل لهم أنفسهم بالمرور ، في مقاطعاتهم دون دفع ضريبة المرور .

وفي هذا اليوم ، الذي يعضّ فيه الجوع بطون البدو حانت الفرصة السانحة لتدمر ، لتنشىء جيشها الخاص . وبالفعل فقد سبق أن أقيمت معسكرات للتدريب خارج الأسوار ، حيث نشر البدو ، الذين طالما زرعوا الرعب في نفسي ، خيامهم السود .

وحتى أنا ذاتي ، إلتفت الى عشيرتي البدوية ، وبدأت أطرق الممرات ، التي قطعتها سابقاً برفقة والدي . والسنة الماضية ، بعد معركة «ايديس» رفضت طلب الضيافة المخجلة ، ومنذ بداية هذه الأيام العسيرة ، حيث بدأت أخشى الأسوء ، فوجه الحظ قد تبدّل : فأوذينة أصبح شخصية قنصلية ، وسفيراً للامبراطور ، والقائد الأعلى للجيوش الرومانية المرابضة في الشرق ، ولم يعد أمير تدمر فقط .

ووهج ألقابه ، سيحمله بدون شك على حقيقة قدرته ولكن الغالبية العظمى تجهله ، وأبقى الوحيدة العارفة بنقاط ضعفه ، ووقتية وظيفته .

وانطلقت برحلتي ، بكل أبهة وجلال ، وكانت محفتي ، وزينة نوقي أعظم من تلك التي كان ينتقل بها زوجي أو نبلاء الرومان ، أو حتى الملكات ، أو بنات الهوىٰ ، عبر صفحات الأدب اللاتيني .

وهنا ، حيث عرفت «زبيدة» وحيث فهمت بأن خيلاء والدي التعس كان ، يحرّض الإبتسامات التي أجهلها ، وإذا كانت هذه الإبتسامات سخرية ، أو حنقاً ، أوحسداً فقد سمعت بأنهم شاهدوني أصل على ناقتي «البيداء» وهي ناقة بيضاء للسباق ، ومحاطة بمفرزة من الحرس قاذفي النبال . وأما استقبال الشرف الذي كان عليهم أن يقدموها لزوجة أوذينة ، فقد قدموها بدون وضاعة ، وبدون أي تحفظ . وكانت عماتي العجائز ، قد توفين منذ بضعة سنوات ، ولم يجرؤ أي شخص على رمي الكلام على عواهنه لذكراهن وقد كنت بحاجة ماسة الى ذلك . كانت النساء ينظرن إليّ بعيونهن الواسعات ، بينما الرجال فكن ينظرن إليّ نظرات خفية ، بينما تعالت ضحكات الأطفال ، فالجميع كن يراقبنني ، بفضول ، وكن يصفقن قليلاً من آن لآخر ، كما تتطلب اللباقة والاحترام ، وكانوا متشوقين لرؤيتي ، كيف أنيخ ناقتي البيداء .

ولأنها مروضة بشكل ممتاز ، فقد كانت تنصاع لأقل ضغطة قدم مني ، وقفزت أرضاً ، كلياقة وخفة فارس الناقة المتمرس جيداً . فصفقوا لي بقوة . وفي القبيلة ، يكون الجميع ذوي قربى ، فذهبت من واحد لآخر ، منادية باسمه عندما يلوح لي بأني قد عرفته . فقد جهدت في النطق بالآرامية فقط . وبالتأكيد فقد أحببتهم أكثر مما أحبوني ، وتمنيت أن يقرأوا الفرح على وجهي . بلقائهم . وكان عليّ التكتم والتستر لكي أبقى واثقة من نفسي ، خلال الجزء الذي عليّ أن ألعبه «كزبيدة» . وبذات الوقت «زنوبيا ـ سبتيما» فالإخلاص ، لا يمنع أبداً الحذر والتيقظ .

وتأرجحت في رغبتي ، بمشاركتهم لحياتهم اليومية كبدو ، وبين إرادتي ، في سلوكيتي ، مسلك أميرة تدمر كما كان الوضع يتطلبه . وكان أوذينة قد أهداني

خيمة دائرة الشكل ، ذات ستارين من الحرير الأخضر والذهب ، والتي كانت سابقاً من ممتلكات الملك «سابور» وأخيراً أعطيت الأمر ، بنصبها خارج معسكرهم البائس ، وفي قراري هذا ، تدخل ، العامل السياسي ، أكثر منه عنصر إحتقار ، وبتحركي على هذه الطريقة ، فقد رسمت حدوداً ، ممنوع تجاوزها ، وواجب على الجميع احترامها . ولقد قمت بدعوة جميع أفراد عائلة «عمرو» لمشاركتي وجبتي الأولى في القبيلة . وكانت معتمدية الجيش قد أرسلت مع قافلتي الكثير من الأغذية لإشباع الأعداد الكبيرة من أبناء العمومة ، واللذين استساغوا طعم اللحوم والفواكه ، والنبيذ المقدم إليهم . ولقد كانوا على علم بمقصد رحلتي ، ولكنهم تحفظوا على الموضوع حتى المساء . وجرى الحديث حول الولادات والزيجات وأوضاع قطعان الغنم . وإذا كان نسيان الموتى في مجتمع الصحراء ، أسرع منه في تدمر ، فإن المشاعر تبقىٰ كامنة في حال من السرية شبه المطلقة .

ولم يثر الحديث حول والدي ، إلا من أجل احترام الصيغ القديمة للباقة والأدب . والحقيقة تقال ، أن وفاته ألجمتني ، بدون أن تحطمني ، وبدون شك فإنني لا أستطيع العيش مع اليأس . وأثناء الحديث عنه ، تجلّت ذكرىٰ جثمانه في مخيلتي . فأوجمتني ، خلال عدة ثوان ، حتى أنني لم أعد قادرة على تذكر وجهه حيّاً . وأخيراً ، اختفت هذه الصورة القاتمة . والآن ، أراه ثانية ، جيئة وذهاباً في منزلنا ، وهو يعتلي صهوة جواده الأشم ، ويرتدي ثيابه الرسمية للذهاب لاجتماعات مجلس الشيوخ ، أو عندما يبعد سيفه بكل عظمة عن أرجله ، لينحني عليّ ويحملني بين ذراعيه ، ويضم وجهي الى وجهه ليقبلني . حيث يضيع أنفي في شعيرات ذقنه الكثيفة . إنني أسمع صوته ، وأنصت الى وقع أقدامه وأسمع حركاته التي كثيراً ما أثارتني ، إنني أفكر فيه بسماحة وابتسام ، وأتساءل فيما إذا كانت مشاعر الأنفة والكبرياء التي تجتاحني . إن هي إلا منعكسات ، خيلائه وزهوه ، التي طالما سخرت منها . وبدون شك ، فإنه من الصعب الهروب من عناصر الوراثة . وبالنسبة لعشيرتنا البدوية وخاصة بالنسبة لأعمامي ، فإن ذكرى والدي ، كانت تولد بعض الحركات العنيفة ، لأنهم كانوا ضحيتها ، ولكني

أحسست ، بأنهم لا يكنّون له أي حقد أو ضغينة . وكلفت «راكضي الرمال» بنشر خبر وفاته على شواطىء النهر العظيم ، وحتى في بلاد «ساراسين» وأما ظروف وفاته ، فلم تكن مجهولة للجميع ، ولم يعلّق عليها أحد ، سواء أكانوا من بعض النبلاء ، أو من غيرهم ، ولا بد أن أنفتهم قد فرضت عليهم التزام الصمت على بعض الإهانات التي وجهها اليهم ربما .

لم يعد يتحدث أحد عن «زبّاي» . فكنت جاهلة لأي شيء عنه ، منذ أن رأيته لآخر مرة بنحوله ، وشفافيته وكأنه شاب يافع قد لمسه الموت ، وقد رمى عند أقدامي حزنه الثقيل . وبالرغم من تمردي على هذه النوعيات من الأمور ، إلا أنني اعتقدت بأن عليّ أن لا أقلق ، لوجودي بقرب أوذينة . فكنت صامتة . وبعد مرور أيام ، وأشهر ، لم يكن بمقدوري نسيانه ، فكانت ذكراه باقية ، حاضرة بحيث أن ليلتي الأولى التي أمضيتها منذ عودتي الى الصحراء ، كنت فيها وحيدة ، وساءلت نفسي فيما إذا كان السبب الجوهري لرحلتي هذه هو «زبّاي» . وكان لدي تذوق وحب تخيل المسالك والطرق السرية لتفكيرنا حتى لحظة تحولها الى فعل ، ولقد أمضيت ساعات وساعات في ممارسة ذلك مع كورنيليوس ، ومع والدي ، ومع أصدقائي ومباركة ، وذاتي ، وفي وقت لاحق مع «أوذينة» .

فالبعض كان يطرق منعطفات معقدة وغير متوقعة ، والآخرين ، كانوا يبدعون في أعمال أكثر صبيانية ، والنتيجة لا تتغير إلا نادراً ، فيعتقدون بأنهم قد خدعوا ولكن كل منهم كان يخدع نفسه . ولهذا فلقول الحقيقة أحياناً ، وجدت أنه من الضروري الكذب على الآخرين ولكن الكذب على الذات يعتبر من الحماقات الكبرى . ولقد لاحظت في هذه الليلة بأنني إذا ما قررت الإقامة في قبيلتي العائلية ، لتسهيل تطويع خمسمائة فارس ، فإنه في حقيقته لم يكن إلا حجة ، تذرعت بها ، ويجب عليّ أن لا أنخدع في مهارتي ، لتكون على عيني كالغشاوة لرؤية هدفي الحقيقي ، وهو مقابلة «زبّاي» . وبالتالي ، فإنني بحاجة الى هؤلاء الفرسان الخمسمائة . وعليّ أن أحصل على ذاك الرجل . وغفوت على النسمات الباردة المختلطة بروائح الدهن المثيرة للتقزز ، ومعترفة لذاتي بأن جميع هؤلاء البدو ، سواء أكانوا أبناء عمومتي أم غير ذلك ، فقد أحببتهم جميعاً حباً جماً .

وكنت أفضلهم في بعدهم عن تدمر ، ولكن طفولتي لم تلحظ روائحهم العفنة .

وبسبب اختفائهم بين كثبان الرمال في المنحدرات الصحراوية الممتدة ، وكأنها بلا نهاية تبدو الصحارى العربية وكأنها فارغة من القاطنين . ولكن لدىٰ أدنىٰ صرخة صياح ترتفع معلنة عن اكتشاف نبع ماء ، أو ، زواج رئيس الخيمة الكبرى ، أو ، لارتفاع صرخة استغاثة من مقاتل أو من تاجر تدمري فإن الرجال ، سرعان ، ما تنبثق من الرمال لتلبية النداء ، فيستوون على صهوات جيادهم ، أو ينيخون نوقهم ، ويسارعون الى مصدر الصرخة .

وفي اليوم التالي لوصولي ، تجمّع ما ينوف عن المئتي فارس ، بانتظار استيقاظي . وعندما كان والدي يأتي الى القبيلة ، لانتخاب المتطوعة لمرافقة القوافل الكبرى على طريق خليج الرافدين ، فإنه كان يقضي وقتاً طويلاً في انتخابهم واحداً فواحداً ، فيجس عضلاتهم ، ويلحظ قبضاتهم ، ويتفحّصهم بنظرات عينيه المرعبة ، أكثر من قائد روماني باحث عن مجندين . وبدوري فإنني لا أستطيع سلوك هكذا امتحان مع هؤلاء الرجال الأحرار الذين إن فعلت ، فسيضحكون عليّ ملء أشداقهم . فالذي قبلوه من والدي ، لن يرضوا به من قبلي . والطريقة المثلى ، هي في اثبات جدارتي كفارس في شدّ القوس ، أو ، رمي الرمح ، بقوة ، ودقة ، إن لم تكن تعادل قوتهم ، فيجب أن تتفوق عليهم . وأما الذي كان يهمني ، فهو عدد المقاتلين ، الذي سأعود بهم الى تدمر ، حيث يتم تدريبهم هناك ضمن معسكرات خاصة . وأردت رؤيتهم أثناء مرورهم أمامي ، كما يمرون أمام القائد الروماني بانتظام وبتشكيل الأجنحة . وبدا لي أن جميع هؤلاء البدو كانوا غير قادرين على الاصطفاف بانتظام ، فهم في حالة من الصخب والضجيج الفرح في فوضاهم ، بوجوههم النحيلة ، ونظراتهم الثاقبة ، وبأنفهمُ النحيل المعبّر عن عزّتهم وأنفتهم وكبريائهم ، كانوا متدثرين بالأسلحة والأردية ، بحيث يوحي هذا الخليط والتنوع عن مصدر حصولهم عليه . إنهم العرب الأقحاح . ودفعت جوادي الى الأمام ، فقد كان علي المرور عليهم من واحد الى آخر ، لأتفحصهم بنفسي وبهيئة خطيرة ، وحرصت على اعطاء الانطباع لكل فرد منهم ، على أنني كنت أنظر الى كل منهم بطريقة خاصة ، وأُخِذَت الرجال بهذا الفخ الوهمي . ووجدت نفسي فجأة ، وجهاً لوجه أمام زبّاي .



أسد اللات

كان مستوٍ على ناقته بكل ثقة ، وبدىٰ لي كما رأيته في المرة الأولىٰ ، بلباسه القصير الملتصق بجسده ، وواقيات الساق الفارسية ، وقبعته المدببة ، وحبل قوسه الأحمر المشدود على صدره وخنجراه الصغيران المتدليان من جزامه المسماري . لقد عاد ثانية ليكون الرجل الذي يهزّني من الأعماق ، كما حدث عندما كنت في الثانية عشرة من عمري ، التي لن أنساها . فنظرت اليه وافتر ثغري عن ابتسامة دمغها الفرح بلقائه . ورد لي ابتسامتي ، واضعاً قبضته اليمنى على قلبه ، وأحنى رأسه . بينما تسمّر الآخرون دون حراك ، إنه زبّاي . ابن رئيس ، ومرافق والدي ، فله الحق في إبداء هذه الحركة التبجيلية أمام الجميع ، وفي توجيه الابتسامة إليّ ، التي تقبلتها .

وقلت للجميع ما يعرفونه سابقاً ، عن سبب مجيئي اليهم ووعدهم ، بأنهم إذا ما التحقوا بأوذينة ، فإنهم سيجدون مكافأتهم في الكنوز الاسطورية ، وخدِر ، ملك الساسانيين «سابور» . وأضفت ، بأنني سأقف بنفسي الى جانبهم . وكانت تلك هي المرة الاولى التي أوجه فيها كلامي الى جيش من الرجال . وفي بلادنا ، يظهر جلياً أن اكثر الناس جهلاً ، هو من أحسنهم تحدثاً ، وهو مفوه وخطيب بدون أن يعلم . والفصاحة ، لهي شيء طبيعي عندنا كما هو فن الصمت ، وإن لساننا ، لهو أطول أيضاً من شفاهنا ، التي تعرف متى تبقى مطبقة . ولقد قررت أن أصطحبهم جميعاً الى تدمر ، ولكنهم اعتقدوا بأنني أركّز في معاملتي على البعض منهم فقط . وكان عليّ أن أحترم العادات والتقاليد ، باعطاء كل واحد منهم نصيبه في محاولاته لتجريب حظه ، في القذف بالنبل ومهارته في امتطاء النوق .

لقد سبق وشاهدت هذا العرض وأعرفه جيداً ، وكثيراً ما أامتعني . عندما يمرون أمام وتد مزروع بالأرض ، في عدوهم السريع ، وهم منتصبي الهامات على جيادهم . فتارة يقذفونه بسهامهم ، وتارة برماحهم . وفي هذا اليوم ، تتحول الحياة الى ما يشبه تلك الأغنيات التي كتبها الشعراء ، لتمجيد الأبطال = زبّاي ، دائماً هو الأسرع ، وأفضل من رمىٰ هدفاً . ولقد اخترته لقيادة رفاقه . ولن يلومني أحد على ذلك . وأثناء ذلك ، كانت نظرات من حولي تشير الى تحفظهم على زبّاي ، وهذا ما أدهشني ، بالرغم من إمارات النبل ، والشهامة البادية على محياه ، وبشكل لا يدعو الى الريبة مطلقاً .

وبدا إيمانهم متزعزعاً ، بامرأة ، لامعة جداً ، وبزوجها القادر ، على أنها غير كفؤ للحكم على قيمة مهارات مقاتل ، وتنظيم جائزة قتال . بينما لو أظهر أحدهم أيّ تهكم ، لسحق سوط أوذينة وجه المتهور الذي ستظهر عليه آثار الجلد . ولكني لن أسمح بالقيام بهكذا حركة ، ولا القبول بالشك بمزايا زنوبيا .

وطلبت قوس أحد المقاتلين ، وانتصبت على جوادي ، فلكزته ، ودفعت به الى أقصى سرعته ، عندما انغرز حديد حذائي الجلدي في جنباته .

وانحنيت فوق عنق جوادي ، بشعره المتطاير مع الريح ، وبفخذيه القاسيتين ، وعمدت الى تنفيذ الحركات بدقة ، كما لقنني إياها ، ودربني عليها «أوليموس» ، عندما كان يشرح لي نتائج حروب «الأمازونيات» اللاتي قاتلن تحت أسوار طروادة . ورمية النرد هذه ، لا بد لي من أن أربحها . ويتطلب الحذر مني ، أن أنهج منهج التدريب ، بحيث أن أعصابي ، يجب أن تبقى هادئة ، وكذلك شياطيني ، عليها أن تكون في حالة راحة ، وعلى إيقاع طَرْق حوافر جوادي ، شعرت بقلبي يزمجر كالدربكة . وبرؤيتي لاقتراب الهدف ضغطت على بطن جوادي ، حتى كدت أثقبه ، لأضاعف من سرعته ، وانتصبت فجأة ، ووتّرت قوسي ، وتعالى صياح الجمهور ، فعرفت بأن سهمي قد أصاب هدفه .

ولمأدبة المساء ، ذبح قطيع من الغنم بأكمله ، بالاضافة الى ثلاثة ناقات . فالمقاتلين محبون للحم وطقطق حطب الأشواك ، الذي أشعل ، بعدة أماكن وبأعداد يستحيل إحصائها ، في ذلك الليل البهيمي الجاف، انسحبت الى داخل خيمتي دائرية الشكل ، فخلعت ملابسي ، وواقيات الساق ، المعدة للحماية ، فكنت أشبه بمقاتل من تلك الحكايات السخفية ، والداعية للشفقة ، والآن يغلّف جسدي ثوب من الحرير الأحمر ، وكأنني في احتفال ، هذا الثوب الطويل والمطرّز بالذهب ، كالذي يرغبن في ارتدائه نساء تدمر ، ومزيّن عند الأكتاف ، بزمردتين ، بحيث تنفلت منهم ذراعيّ العاريتين ، وتاركاً لساقيّ حرية الحركة . وظلل الكحل أجفاني ، كسيدة رومانية مدللة ، مع حواجبي الملونة بالحنة مع راحة يديّ ، هذا التظاهر المتواضع ، هو الذي يستعمل من قبل نساء الصحراء ، لإيقاع الأبطال في شباكهم . وتجمع الرجال والنساء ، بمجموعات صغيرة ، حول النيران لمشاهدة شواء فخذ من اللحم . فكانوا يتحدثون بنزق ، ويغنون بحميّة

ويتجشأون بشدة ، ويتبادلون اللطمات المفاجئة ، التي تقتل حماراً . ولقد زرتهم جميعاً . فكل تجمع منفصل بفسحة من الظل ، وظهرت فجأة في وميض نيران الجمر = وكان البدو ، يحيّوني بضحكات مرحة ، وبعبارات «أهلاً وسهلاً يا زينب» . وكنت أجلس في وسطهم وأتقبل تذوق طعامهم المفضل من كلى الحيوان المقلي بدهن الغنم . وكنت أجيب بجرأة وجسارة ، على المزاح الذي كان يرشقني به أشدهم إقداماً ، بينما كانت الفتيات الصغيرات يلمسن ثوبي ، وأساوري بأصابعهن الرائعة . وفي البعيد ، لاحظت ما يشبه الراعي يخطب وسط مجموعة ، صامتة ، ويقوم بحركات كبيرة ، فشدّني هذا المشهد وتوجهت اليهم . وعندما وصلت بقيت على مبعدة من دائرة تجمع الرجال ، والضوء ، لكي لا يقطع وجودي حديثه الذي يرويه . المعجزات التي تمت على يد أميرة عادت الى قبيلتها الأصلية لكي تجمع جيشاً عرمرماً ، لذبح الفرس . وأشار باصبعه ناحية شروق الشمس ، ولفظ اللعنة الطقسية = «أيها الإله ! عَدّد جميع أعدائنا ، واقتلهم جميعاً ، واحداً فواحداً ولا تبق منهم إحداً على وجه الأرض !» .

وعلا صراخ النساء ، على زمجرات الرجال . لقد كان الراوي لسان الشيطان ، وأما أولئك الذين يستمعون له فكانوا على قناعة بأن اللعنة المرتجاة ، لا بد أنها ستجر الى النصر ، وهي على ذات مستوى شجاعة المقاتلين . لم أبحث عن معرفة اسم القدرة المستخلصة ، التي يتقبلها «بعل» العلي ، «**فاللات**» هي الشمس ، و «**العزة**» هي الشراسة . و «**ساترابيز**» هو الشافي ، و «**بنو**» هو الذي يكتب في كتابه مصير جميع البشر . وهذه المعتقدات التي تبدو لي عبثية ، تبدو عند المدعين بأنهم فلاسفة ، بأنها ذات أهمية بالغة بالنسبة للعسكريين . وفي لحظة ، تهيؤي للاختلاط بينهم ، توقفت فجأة ساكنة : فقد ولد من جوف الليل ، خيال زبّاي . فامتنعت عن توجيه الكلام له ، ولم أقم بتوجيه حركة ، وسارعت بمغادرة مكان المأدبة واضعة باعتباري أن أبقى بعيدة عن ضوء النيران . والبقاء في الظلام . ولم أدر رأسي الى الخلف ، فقد كنت على علم بأنه يتبعني . ومشيت بخط مستقيم . وعلى الرمل كانت قدماي العاريتان ، المخضبتان بالحنة ، قد بدأتا بالإسراع من تلقاء ذاتها ، ولمدة طويلة ، حتى لحظة ، بدا لي أن لهاثي قد أصبح سريعاً ، فتوقفت . لقد كان خلفي ، وبدون أن ينبس بكلمة ، قلبني على

الرمال ، وواجهت وجهه لأول مرة عن قرب ، وأحسست بأنفاسه الحارة ، تحرق وجهي و . . . دحرجني بين النجوم .

لم آلو جهداً في زيارة معسكرات النبّالة الخمسمئة الذين عدت بهم الى تدمر ، ومتابعة تدريباتهم ، وكنت أشترك معهم بقصد اللعب في بعض الأحيان . وقد قدّمت كثير من القبائل ، الرجال ، والخيل . واليوم ، يأتمر بأمر أوذينة أعداد وافرة من الفرسان ، الذين وطّدوا وقتية قيادته العسكرية التي منحه إياها القيصر . ولم يزعزعه احتقار القادة الرومانيين الذي كنت أسمعه يتصاعد من قلوب الرومان ، لأنهم أصبحوا خاضعين من الآن فصاعداً لأوامر عربي . وبدا أوذينة أنه جاهل لكل هذا . وهو من ذلك النوع من الرجال، الذي يشك بالجميع ، ولكنه لا يرتاب أبداً بأنه محط إعجاب الجميع .

ولدى اقتراحي ، بأن يترأس زبّاي ، فرساننا ، أجابني «بأن القرار قد اتخذ بهذا الشأن» . ومعرفة الجانب الحقيقي أو الكاذب في هذا الكلام ، لم يكن يهمني كثيراً ، إنما كانت سعادتي هو علمي بأن زبّاي سيدعىٰ عما قريب إلى القصر ، ولأن لهفتي كانت متمحورة حول مراقبة هيئته . أما المشهد فقد تجاوز آمالي . ولجهلة سبب دعوته من قبل سيده ، فإنه سرعان ما مثل بين يديه ، وكأنه حيوان أُخذ في فخ ، فاحترس . وكان القلق الذي اجتاح وجهه الجميل ، ورجفة يده الخفيفة التي وضعها على صدره قريبة من خنجره ، لتأدية التحية والولاء لأمير تدمر ، كنت الوحيدة العارفة بالسبب = فقد كان زبّاي خائفاً .

وأثناء ذلك ، لم يكن «أوذينة» يرىٰ إلا امارات مبدئية من الخوف التي توحي بها عظمة الرئيس . إنه ها هنا ذلك الفارس الذي رماني على الرمال ، بعنقه المائل قليلاً الى الأمام ، وعيونه المنخفضة . لكم أمتعتني رؤية زبّاي ، وجهاً لوجه مع أوذينة . فالأول ، يبدي كل علامات الاحترام ، والثاني ، يتباطأ في تذوق قدرته الخاصة . فهذا العجوز ، الذي خنته منذ الأيام الأولى لزواجي بدون مشاركة ، مع رجل آخر ، ولكن ، لقدرتي على اقناعه ببعض التأوهات الجوفاء ، على أنني أستمتع معه ، والآخر ، هذا الشاب الذي جعلني أكتشف ما اعتقدته منذ عهد قريب ، انه غير موجود إلا في مخيلة الشعراء ، ليس الحب بآهاته ، وأحلامه ،

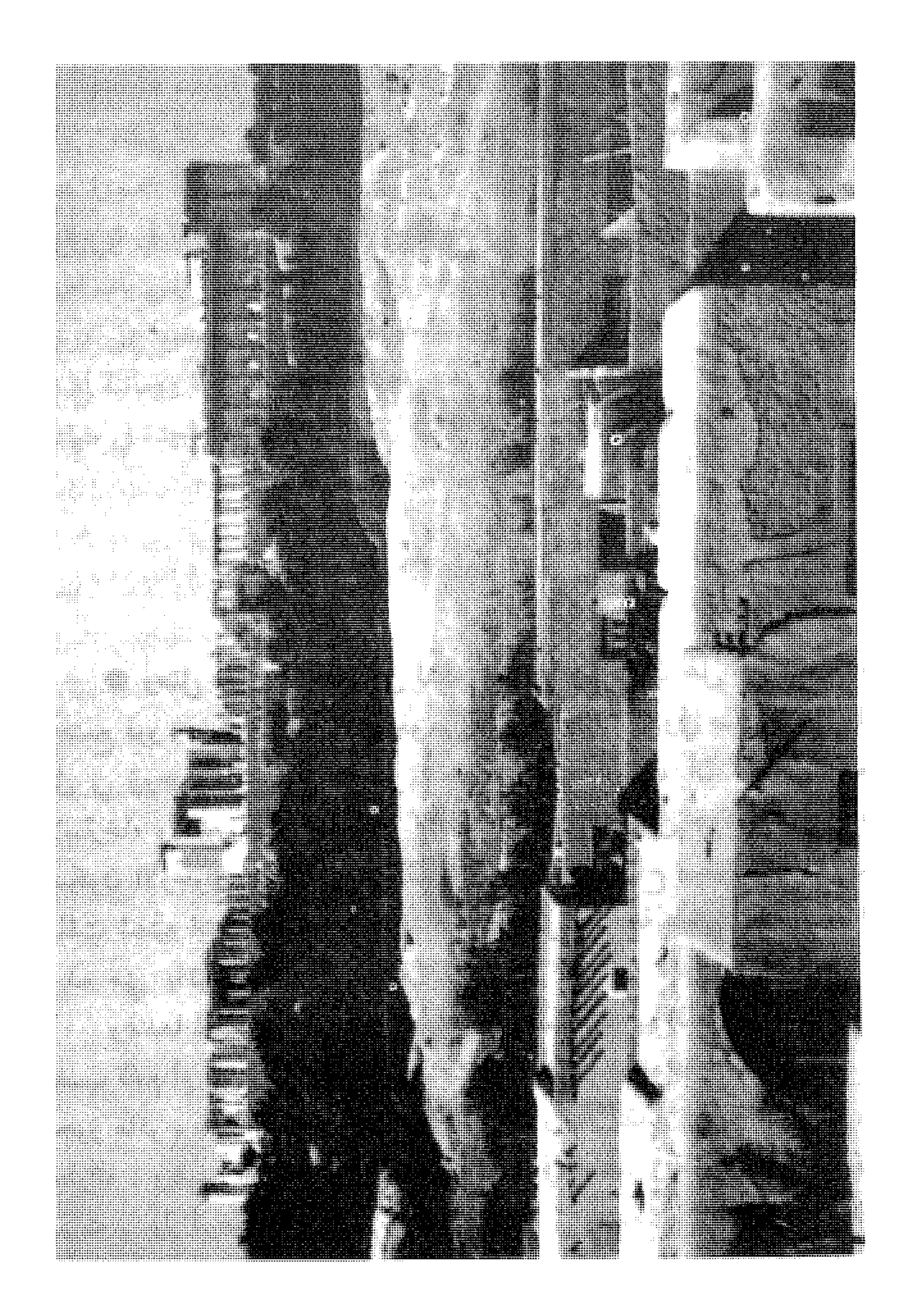
وفرحه ، ودموعه ، ولكن العواصف السريعة ، والصرخات الأكثر حقيقة من الكلمات المبتدعة . ومرة اخرى نظرت الى هذين الرجلين ، وسرني التفكير بأن كليوباترة ، وهي جدتي البعيدة ، لأكثر حنكة سياسية من شبوب عاطفتها . فقد أرادت ملكة مصر ربط ثروتها بقائدين اثنين ، فخدعت من الأكثر ذكاء . وأُسيء عونها من الأكثر غباوة وهكذا ، لم تترك للتاريخ والأسطورة إلا صورة عشيقة حساسة جداً وشاعرية أمام اللباس العسكري ، بينما كان حلمها في ثني الغرب تحت قانونها . وبدون شك ، فإنني زنوبيا ، لست بملكة وأوذينة ليس بامبراطور . وزبّاي ليس إلا نبّال صغير الشأن . فاستخدمت الأول ، للصعود على درجات السلطة ، بينما الآخر ، كان للسرير . فأي امرأة ، أكانت سيدة رومانية أم نبيلة رومانية ، من عامة الشعب ، أم ابنة ملك ، لم تتصرف ولو مرة واحدة في حياتها ، كفتاة عمومية ؟

تابع الجزء الثالث

زبّاي

● وصل البارحة سفير من لدن الامبراطور غاليان على جناح السرعة ، واجتمع فور وصوله مع أوذينة في جو من السرية المطلقة . وفي مساء اليوم التالي ، لحق بي زوجي الى سطح القصر . حيث كانت عادتي، أن ألجأ اليه كمكان للاسترخاء ولأتمتع بهواء ليل تدمر اللطيف ، حيث تسكن حركة تدمر في ضياء السكون الأرجواني . كان يرتدي ثوباً أرجوانياً مع وشاح سميك من الذهب ، وبللت شفتيه ابتسامة تنم عن الرضا ، كما تفعل صلصة طبق اللحم ، ما الذي يريده مني يا ترى ؟

وعندما لمعت عيناه ، ببريق أسود ، لم أعد أعلم فيما إذا كان ذلك ينبىء عن غضب قادم أم عن رغبة جنسية . أيشك في زبّاي ؟ وجاء دوري في الرعب . إنه عجوز ماكر ، ذي حركات غير متوقعة . لقد رأيته يتقدم نحوي ، ببطء ، يعدّ خطواته ، ويقيس ابتسامته ، وكأنه كان يرغب في استمرارية رغبته قبل أن يضرب ضربته . ولم أتوصل الى فهم نظراته ، أتعني الابتسام أم القسوة . أم الاثنين معاً . كما هي عادته .



قلب تدمر القديمة

فهل ان أصابعه النحيلة ، ستطبق على خناقي ، كما يحدث في النهايات التراجيدية ، في ذات اللحظة التي كنت فيها أقوم بحبك قطعة من القماش ؟ ما الذي يعرفه ؟ ففي يوم عودتي ، كانت مباركة بانتظاري وبنظرة واحدة منها ، كانت كافية لتفهم كل ما جرى وتفكر بسرعة . اتخاذ الاحتياطات والتواطؤ معي لحماية ، حب زبيدة . وأثناء ذلك ، كان أوذينة يتابع تقدمه باتجاهي ، بابتسامة غامضة . أما احتمالات احتفاظي بالسر ، فتأرجحت ، فابتسمت آنئذ أيضاً . كان عليّ كسب المزيد من الوقت . وكان عليّ أن أراهن على نفسي ، بإقناعها ، بأن تلك اليدين العجوزتين ، ليستا قاسيتين أو خرقاوين كيدي . وفجأة ، لم أعد أشعر بأيّ وجل ، فمثال مربيتي دفعني الى فهم ، أن بالامكان التنبؤ بكل شيء دون علم مسبق ، ولكن أوذينة لم يكن يحبني بما فيه الكفاية ، حتى يُنذر بتحذيراته الغامضة ، والتي تعادل كل اليقينات . وأخفضت جفناي ومددت عنقي بكل تواضع الى يديه المداعبتين . فرفع بلطف رأسي ، وقال :

« زنوبيا ، إنني أحمل إليك ، ما وعدتك به . غداً ستصبحين ، زوجة ملك تدمر» .

قاتل ثعالب الصحراء ، كان دائماً فخوراً بالتنبؤ بمسالكه ويتمتع بموهبة التخمين وتوقع الفخاخ .

أنا زنوبيا ، أعلن أن أشد ، ما أخشاه ، أن تؤدي هذه الملكية الجديدة الى مسلكيات مخجلة ، وليس الى قرار جريء .

وبدون شك ، فإن أوذينة ، سيمارس وسيطبق باسم القيصر ، مهام القيادة العليا للجيوش الرومانية في الشرق ولكن ما الذي ستؤدي اليه هذه السطحية ، والسذاجة ، وأثقال خاماته الذهبية . أيجهل أن خنجر قائد واحد ، من قواد المئة الرومان ، أو خيانة أحد الجنرالات ، كافية لجعله يفشل في مشروعه هذا ؟ ولشدة قلقي ، التي أصبحت أكبر من السابق ، أدت به الى استبقائي بعيدة ، وبتجاهل حساباتي ، فإنه يعلم جيداً ، نفاذ صبري ، لمشاهدة انهيار الهيمنة الرومانية . وملامته على صمته . ألم يعد يثق بزنوبيا ؟ أيخشى مشاركتي في مشاريعه في اللحظة المنتظرة لمقاومة القيصر وإعلان استقلال تدمر ؟

وبهذه الكلمات الأخيرة ، بمجرد سماعهم ، غزا الرعب وجهه . وبعنف وضع يده على فمي ، وبصوت مقتضب وخفيض ، عبّر عن خشيته من سماع أحد لما قيل . وتساءل عن مصدر جرأتي للتفكير بأنه قادر على القيام بهذه الجريمة ، فملك تدمر ، سيبقى الصديق والحليف للشعب الروماني تحت حماية الامبراطور «غاليان» .

وباستماعي ، لأوذينة ، فهمت بشكل أفضل أسباب السر ، الذي أثقل على محادثاته مع السفير ، فقد باع نفسه للقيصر ، مقابل العرش . وبالرغم من مجونه وفسقه ، وراقصاته ، وسمرائه فإن والده العجوز ، لا يزال يحني الظهر تحت أقدام الملك سابور . هذا «الغاليان» قد أظهر حنكة أكبر منا أجمعين ، نحن معشر البدو التعساء الذين نستصغر نفوسنا عندما نتخيل أحابيل طفولية .

ولانشغاله في الحروب على نهر الدانوب والراين ، فقد أوكل الى أوذينة الاهتمام في حماية الحدود على الفرات ، مقابل إعلانه ملكاً متوجاً على تدمر . وكل منهما ، اعتقد ، بأنه قد لعب على الشخص الآخر . وبالرغم من جميع أدوات قوانينه ، وفضائله ، وإداراته ، وجيشه ، وأخلاقه ، وموظفيه ، ومجلس شيوخه ، ومهندسيه ، فإن روما بقيت الأكثر مهارة ، والأكثر خيانة لمبادئها ، والأشد حنكة في السياسة . فالرداء الأرجواني ، قد أعطى لأوذينة السبب ، كما جعل المعطف الروماني من والدي أسيراً برّاقاً ، وقد غشيت عينيه بهذه المظاهر الخدّاعة . وقد قام هذا الأخير بإفراغ صناديق ثروته على السباقات لنيل ألقاب الشهرة والشرف ، ويقوم أوذينة الآن بإنهاك ثروات تدمر ، عن طريق حربه ضد ملك فارس ، لحساب قيصر روما .

بالنسبة إليّ ، فمفهومي عن الحرية بأنها لا تطلب ولا يتم تبادلها بأي شيء في هذا الكون ، ولا تشترى ، ولكنها تؤخذ بالقوة . وفي هذه الليلة أراد أوذينة الاحتفال بانتصاره ، فجاء الى سريري . ولكنه لم يستطع التصرّف لا كملك ولا كرجل . فهل لا أزال بحاجة اليه .

إن وصول أوذينة ، إلى الملكية ، لم يدهش ، ولم يقلق أحداً . وصوّت أعضاء مجلس الشيوخ على رفع تمثال جديد له ، وكان التجار راضين عندما علموا

بأنهم أصبحوا مواطنين لدولة مستقلة . وتلقىٰ الفرسان البدو ، مكافأة نقدية إضافية وأُعلم الشعب الصغير ، بأنه أصبح الحليف والصديق للشعب الروماني ، ولم يعد ليخشى من فجائية القوات ، ولا من شح الجمهوريين . وصرخ الجميع وهلّلوا «عاش الملك !» وأُضيئت مشاعل المعابد ، وأُحرقت أعواد العطر ، وذبحت النعاج احتفالاً ، وارتمت تدمر ثانية بين ذراعي قوات الجيوش ، باسم هذه الكذبة التي دعاها جنرالاتهم وبكل جدية أخوة السلاح . وباعتبار أن العالم أجمع قد خدع فيمكن القبول وبطيبة قلب أن يخدع الانسان ذاته .

وأكثر من البارحة ، كان لا بد لي ، من تهدئة ، نفاذ صبري ودفعها ثانية الى بطني ، وأن لا أثق بأحد ، وأن أراقب حركاتي ، والتزم الصمت ، وأن لا أرتكب أية خطوات ، غير محسوبة ، واذا أصبح أوذينة ملكاً على تدمر ، فإنني لم أزل إلا زوجة ، بدون سلطة أمير ، والحائز على سلطة هشة إن لم تكن وهمية .

كانت نظرات الناس تقول لي ، بأنني لم أكن جميلة كما هي حالي الآن ، ومع ذلك ، فلم أجرؤ بتاتاً على تحريضهم وعندما أكشف للملأ عن شعور بالفرح ينتابني كانت نظراتهم ، تغتصبني ، ويرسم الجنود شبه ابتسامة احتقار على وجوههم . لم يجرؤ أحد قبل زيارتي على رسمها ، فأشعر بأنهم يودون تمزيق ثوبي . وفي الليلة الماضية انتابني شعور بالوهن عندما طلبت الى مباركة ، باستنباط أية وسيلة لترتيب لقاء بيني وبين زبّاي ، وكنت عارفة بأنها لن ترفض لي طلبي ، لأنني كنت بذلك امتدح شعورها الطبيعي وميولها في لعب دور الوسيط وإتاحة الفرصة أمامها بذات الوقت في الإنتقام من أوذينة الذي قام بركلها وضربها في اليوم الذي رمت بنفسها على جثمان والدي المسجّى . وارتدينا كما ترتدي البداوة وإنطلقنا متخذين وجهة معسكر النبّالة . كنت أعرف الطريق ، ولكن بالكاد أميّزه . وكانت هي المرة الأولى الذي أقطعه سيراً على الأقدام . وتحت أرديتنا المموهة لشخصيتنا ، لم يعرنا أحدٌ انتباهه . ووقف الحظ الى جانبنا ، لعدم التقائنا بعصبة من الجنود الشمالىٰ ، فمهما تكن صفاتهم ، جيدين أم سيئين ، شباباً أكانوا ، أم شيباناً ، فإننا كنا سنتعرض إلى القسوة في المعاملة .

وكنت أعرف أنني ارتكب محذوراً خطيراً . كان الهواء يدفعني وكنت أنا ، زنوبيا ، التي جعلها جوبيتر ، مجنونة . ووصلنا أخيراً الى المعسكر ، كانت لا تزال

مشتعلة هنا وهناك ، نيزان المشاعل وضجيج الدربكات ، يتعالى من عدة نواح ممتزجاً بالصرخات الحادة وضحكات بنات الهوىٰ . وأطبقت قبضتي ، بينما ساقتني مباركة الى شجرة تين وبصوت لم أعهده فيها من قبل ، أمرتني بالبقاء وغادرت هي المكان ، ولأنني كبرت وحيدة ، وعشت بين العجائز . ولم أعرف من الأصدقاء إلا كتب مكتبتنا . وتلك التي كنت أسرقها من صندوق أوليموس فالوحدة ، والعزلة . لم تخيفني يوماً . وقد اجتزت الصحراء لمرات عديدة ، وأمضيت ليالٍ كثيرة تحت خيمة عشائر «ساراسين» وكان غطيطي محمياً دائماً بوالدي ، ومربيتي ، وبعد ذلك . بعبيد الأمير أوذينة وجنوده ، وعزلة الروح كانت غير مألوفة لديّ ، أما عزلة الجسد . فقد عرفتها بوعي كامل خلال هذه الليلة العاصفة ، حيث انتصبت فجأة مباركة أمامي لحظة اتخاذي لقرار المغادرة في سلوكي لشوارع الفتيات الحارّات حيث أعادتني بتؤدة الى سريري ، وأطبقت بوجهي على فراشي لكي لا أعود الى رؤية ظلال الحرس على جدار غرفتي ، ظلال رجل .

قرفصت تحت الشجرة ، كأنني كومة صغيرة من الخروق السوداء ولم أعلم كم من الوقت مضى على إنتظاري . واجتاحني القلق . فوددت العودة الى منزلنا ، للامساك بالأمان الذي افتقدته ، كما هي حال بقية النساء ، فإنني بحاجة أنا أيضاً لتلك الطمأنينة . وتسائلت عن ماهية تصرفي في اللحاق بـ «زبّاي» ، حتى معسكرة ، كما هي حال الصيّاد الذي يطارد غزالاً . ويجيب علي ، ابتداءً من الغد أن أتحرر من ذاتي ، وأن لا أعود لرؤيته ، وأن لا أكون مهيمناً عليها ، ويجب عليّ الشك به بقدر ما أشك بذاتي . يجب أن تبقى صورة زنوبيا نقية طاهرة في أعين الآخرين . فالعامة تحتقر الفضائل عند الرجل ، ولكنها تؤيدها ، وتريدها من المرأة .

غداً ، سأقترح على أوذينة ، أن يرسل زبّاي على أحد أجنحة طلائع الفرسان ، ليمسح حدودنا عند النهر العظيم ، هناك ، حيث لا يؤمن للفرس جانب ، ويمكن أن يعمد هؤلاء الى تجميع بعض طلائعهم الإستطلاعية هناك . وإذا كان قدر السلاح ، أن يموت في معركة ، فإنني أكون بذلك قد تحررت من شياطيني .

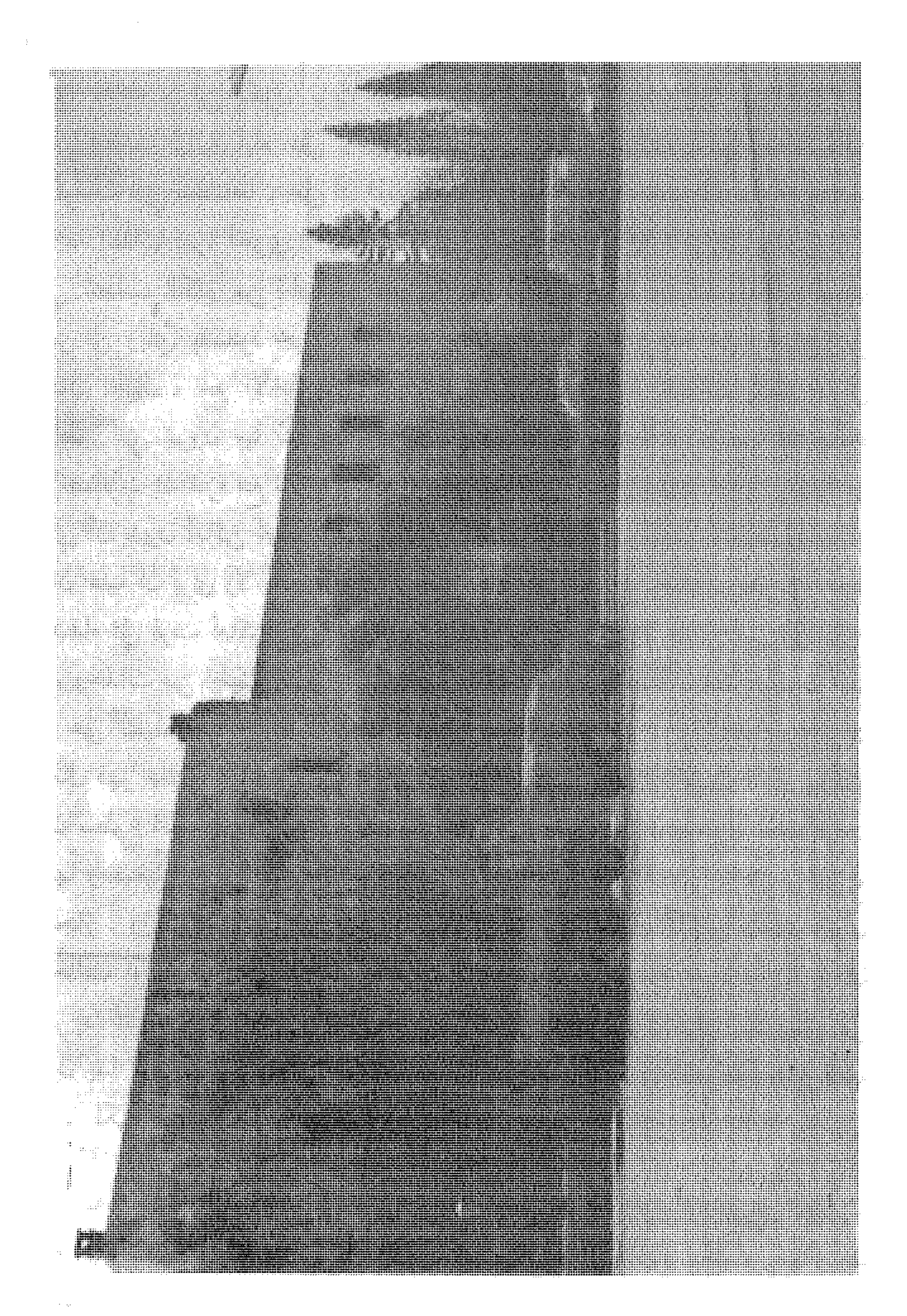
عرفته من خياله الممشوق النحيل ، فإختفت كل عذاباتي فجأة . وانتصب أمامي ، وأراح يديه بهدوء على كتفي ، ورأيت عينيه الساخرتين ، لم تكن هناك من حاجة إلى الكلام ، لفهم ما كان يقال في الصمت بدون حنان . فهو يدين لي بقيادته العسكرية ، بينما أدين له بإرضاء رغباتي . ولم يتبق لديه إلا لعب دور البطولة ضد الفرس ، وخلال ذلك شعرت بضغط يديه ، فأخذني فجأة . وفي الحقيقة ، فإني لم آت إلى هنا الا لهذا الأمر العاجل . هذا العابر للصحراء ، ما الذي يدور في مخيلته ؟ أيعتقد أن ملكة تدمر ، مغرمة لدرجة أنها على إستعداد لتخاطر بكل شيء من أجل زبّاي ؟ دفعته على الأرض ، فقد كان جاهلاً باستعمال كلمات الغزل ، وغير عارف بالمداعبات . ولم يكن موهوباً إلا بالفعل الأساسي . لقد عانيت كثيراً ولمدة طويلة من الحركات الخجولة واللهاث العفن لعجوز عاجز . ونهض بقفزة واحدة ، وعاد ليجد إبتسامته اليافعة العارية من الإحترام وقطف تينة ، فقام بقضمها ، لعلها لا تزال محتفظة بطعم قبلات زبّاي التي لم يعرف كيف يعطيني إياها .

كان القصر يستقبل كل يوم زيارات القضاة ، وقادة الجند والسفراء ، غادين ، آتين ، وكانوا في خروجهم يبدون متجهمي الوجوه . وكان من بينهم عدد من الناجين من مجزرة «إديسا» ؟ وبسرعة غير متوقعة ، ومن غير أن يقلّدوا بدرع جديد أومرتبٍ عالٍ ، فقد أصبح مهزومي الأمس ، بنفسية الجندي المنتصر ، وعندما كنت فتاة صغيرة ، كانت ريشة القبعات الحديدية تسليني ، وعندما لاحظت بأن الفتيات الأكثر غباءً قد انشددن الى حيّز الإعجاب بقبعات الريش هذه ، فقد شككت بجدارتهم بها ، عندما علمت بأنهم أسيادنا . لقد كرهتهم . فمنذ معركة «أديسا» حين تخلوا عن إمبراطورهم عندما وقع بين يدي الأعداء . فقد لعقوا نسورهم ، ورموا بدروعهم إلى الأرض ، ليخف حملهم بغية الإسراع في الإدبار ، إنني لأحتقرهم .

ولدى العودة من التمرين ، اخترقت الجند شوارع المدينة على أصوات الأبواق ، ضاربين الأرض ، بإيقاع رتيب ومحاطين بالمعادن الحادة القاطعة ينظرون بعيونهم الوحشية ، ونسي الشعب ، بأنه افتداهم فصفق لهم. وعلى عتبات المحال ، هزَّ التجار رؤوسهم أمام آلات الحرب ، ورماة المنجنيقات ، والخرفان .

وتجمعت خيالتنا داخل القبائل ، فهؤلاء لا يعرفون السير بصفوف منتظمة وبأنساق هندسية ، حسب القواعد ولكنهم يجتمعون على شاكلة عصابة من قطاع الطرق ، غير منتظمة ، ولا يقارنون بجيش متلمذ . إنهم مقاتلين ، وليسوا عسكريين . وبالنسبة إلي ، فإنني أنظر إليهم نظرة ذات نفع ، لأنني لا أجهل بأن الملك سابور الذي فرّق عدة مرات الجيوش الرومانية في الشرق ، وطاردها حتى أوكارها يعود الفضل في ذلك الى نبّالته خفيفي الحركة . بينما تراجعت خصومة ، وتفرق شملها ، دون أن يعرفوا السبب الجوهري في هزيمتهم . فبواسطة الفرسان سريعي الحركة للساسانيين ، استطاعوا أن يكونوا أسياد المواقف ، وهكذا سيؤسس أوذينة فرقة التدمورية الخفيفة ، وسيزيد من أعدادهم . حتى يصبح بمستطاعنا مواجهة كافة الاحتمالات ، والإنقضاض على خصومنا كعواصف الرعد . ويجب على القوات المساعدة الحالية ، أن تكون جاهزة لتصبح غداً القوات النظامية لتدمر . وبحيث يصبح بمستطاعنا فرض قانوننا الخاص على الرومان . ولكونه أوغل في مديد العمر ، والدهاء ، فهو يخشى فقدان ثوبه الأرجواني ، الذي يدين به للقيصر وإن أوذينة راغب في الإحتفاظ بكل شيء ، وبألقابه . وإذا كنت ملكة تدمر وليست فقط زوجة الملك فإنني أنا زنوبيا ، قادرة على إمتلاك هذه الجرأة والشجاعة .

ولكن من الذي يساعدني في مشروعي هذا ؟ فأوذينة ، الذي أصبحت أيامه معدودة وحتى لو وافق على تسليمي زمام الأمور ، فإن ابنه هيروديان ، سيستبعدني ، ويعمل على إزاحة ابني وهب اللات ، الذي ما زال طفلاً . إنني وحيدة ولكن ميولي ، ومعارفي للأشياء التي تخص العامة ، قد أصبحت متينة وغنية ، لتسمح لي بتوجيه خطواتي الى الطريق الذي أردته لها . ويدي ليست خاوية فطموحاتي وكراهيتي وكل ما من شأنه أن نطلق عليه مستقبلاً الأهداف الكبرى ، عندما نحقق بعضها ونرضي بعضها الآخر فسيكون رنينها كالذهب . وأوليموس يدعي بأن كل شيء في هذا الوجود يبدأ بالأحلام فالشعر ، والزهريات ، والتماثيل ، وواجهات المعابد ، وحتى الإرتباطات السياسية وحتى بالنسبة لعقود الأعمال التجارية الهامة ، وربما أيضاً مشاريع الحب ؟ وإذا وقع



متحف تدمر

الرجال غداً ، بتأثير ضرباتي فإن التاريخ سيدفنهم ، ويكفنهم بالأساطير . فالعدو الذي نقاتله ، لن يكون بريئاً أبداً .

مضت ثمانية أيام على رحيل زبّاي الى شمال الفرات لكي يتحقق من المعلومات التي نخشاها ، على أن الملك «سابور» قد أبلغ بتحضيراتنا ، وأنه يستعد لمهاجمة إنطاكية مرة أخرى . وها هنا مهمة صعبة وخطرة ، لأنني أنا المسؤولة ، وهي تتطلب الكثير من الحرص بقدر ما تتطلب من الجرأة ، ولقد أعطى أوذينة الأمر الى زبّاي بصعود مجرى النهر حتى أعالي «شالسي» برفقة عدد ضئيل من فرسان الجمال ، مع الأخذ بعين الإعتبار في إنشاء وإقامة محطات إستراحة في المناطق التي يمرون بها لتبديل الجمال المتعبة بأخرى نشيطة ، وأيضاً للاحتفاظ بالإتصالات المباشرة مع تدمر ، لنقل المعلومات التي يحصل عليها آنياً . وكان على زبّاي أن يدوّن أماكن تجمع الفرس لمراقبة تحرك قواتهم ، وفكّ أعدادهم الحقيقية وكان عليه أن يَرى ولا يُرى ، وحمل بعض الأسرى المقبوض عليهم بطريق الحيلة والدهاء الى قرب أماكن المياه ، وعليه تجنب المواجهة التي لا طائل من وراءها ، ضد وحدات من الجيش الفارسي ، تتفوق عليه بالعدد والعدّة . فمن يكون أقدر منه على تنفيذ هذه الإستطلاعات متجنباً هذه المجازفات ؟ ولإلفته مع ممرات الرمال فهو عالم بكمائن الصحراء ، ومسير الكواكب . هنا ، حيث انهار والدي تحت سطوع الشمس ، بينما هو فإنه سيزحف في رحم الليل ، وحول المعسكرات منتبهاً ومصغياً إلى كل ضجة ، ورائحة ، فالعين متوقدة تراقب ، والخنجر سريع الإنجاز . وزبّاي فخور ، فيما لو وجد فجأة في مواجهة أعداء كثيري العدد ، وهو سيخالف أوامر أوذينة ، ويرفض الهرب كدجاجات «أوديسا» البيضاء ، يا آلهة تدمر إذا كنت موجودة حقاً وتقومين بحماية أشجار الزيتون والينابيع ، فاعملي على تكون يدا «زبّاي» الخرقاء في المداعبة ، يداً سريعة وقوية في المعركة . وارجعيه حياً ، لكي يصبح رئيساً عظيماً في ساحات الوغى .

ـ أما نتائج المهمة الموكولة إلى «زبّاي ، فينتظرها «أوذينة»بفارغ الصبر ، ومعه قيادات الجيش الروماني ، الذين يجهلون في أي اتجاه بعد ، سيقودون جيوشهم فيه .

بينما يتطلع أعضاء مجلس شيوخنا . إلى انطلاق الجيوش نحو الجنوب ، بغية التهديد بسرعة لعاصمة الملك «سابور» «طاق كسرى» . بينما الحقيقة التي يخفونها بالكاد ، فهي أن طريق الجنوب ، هو طريق قوافلهم الخاصة . ولكونهم ساهموا في تجهيز نّبالتنا فإنهم يقولون بأن حرية دوران التجارة على طريق خليج بلاد ما بين النهرين ، هو الوحيد القادر على انقاذهم من الخراب . بينما يطبقون صمتاً على المنافع التي عادت عليهم . ببيعهم الى فرق الجيش ، الدروع ، والتروس . وأما نحيبهم ، فإنني أعرفه جيداً ، فلطالما سمعتهم على الدوام . وآمنت بما يقولونه ، من أنهم سيكونون مهددين بدون توقف ، وسينتهي بهم الأمر الى الاستجداء والتسول ، ولكن ، قد يطرأ حدث عام ، أو أسري . ويجبرهم على تنظيم بعض الاحتفالات ، فيبدون على أنهم الأكثر قدرة على كتم غناهم ، ويظهر سخائهم القادر على إفتان ، أي إمرء . وكان والدي يأسف ويشتكي كثيراً . وكم من مرة رأيته فيها ، ينظر بقلق بعينين تائهتين ، ويد متشنجة ، يضعها على حلقه ، لكي يجعلني أفهم ، بأن قدراً ، حاقداً ، شرساً يحيط به ليخيفه ، ويرتعد من تأخير تسديد مدينيه له ؟

وفي اليوم التالي ، يأمر بالإستعداد لتحضير وليمة ، واشعال المشاعل ، لأن موظفين كبار في الامبراطورية قد شرفوه في دعوة أنفسهم لديه . لم أضحك ، لأن هذه المشاهد ,كانت تنتزع قلبي من مكانه . فما الذي كان علي التفكير به فيما لو توقعت بأنه في يوم آت ، سيتوجب عليّ أن أشارك في التحضيرات لحرب ، حيث ستشارك فيها خيّالتنا جنباً إلى جنب مع جنود القيصر في القتال ضد ذات العدو ، وتحت امرة زوجي الشرعي ، الذي أصبح ملكاً لتدمر؟

وفي كل مساء وبعد رحيل رجال القانون وحكام المناطق ورؤساء قواد كتائب الجيش يأتي دور أعضاء مجلس الشيوخ الذين يحضرون إلى القصر زرافات ووحدانا لكي يجتمعوا ويقابلوا أوذينة وذلك بغية تطوير حججهم ومحاولين بعث الثقة لدية في الإطلاق السريع للجيش نحو الجنوب . وقد حضرت بعضاً من نقاشاتهم التي لا تنتهي واستمعت إلى صمتهم الذي كان يقول لي أشياء أكثر من أحاديثهم ، وكان أوذينة يشعر بهدوء وراحة وسط شيوخة ولم يعد عليه من حاجة لمراقبة تصرفاته وهيئته وكان يفهمهم من نصف كلامهم وكان يمسكهم حتى وقت متأخر

من الليل حتى يغادر آخر رفيق له مجلسه وكان يبقى وحيداً مع ردائه الأرجواني فيبدو وكأنه ممثل عجوز قام بمحاولة شق طريق خليج بلاد الرافدين لكي يسمح لقوافله بتعبئة الكنوز المكدسة في الفنادق ، وكان يعلم بأن القيادة العليا الرومانية تخشى ارسال طلائع جيشها في الصحراء بعيدة عن قواعدها وعن بقية المدن التي توجد فيها جيوشهم وكان الرومان يرتعدون خوفاً من امكانية مغادرتهم لمقاطعة سورية المعرضة إلى هجوم فارسي الـذين استطاعوا الفتك بالحامية الرومانية الموجودة في المدينة السورية «انطاكية» وهكذا فقد استقروا عند ابواب البحر الداخلي فمنعوا بذلك أيّ أمل في عودة القوات إلى أوطانها . ومعهم حق في ذلك . وانني أعلم بأن أوذينة سيهوي أمامهم فيما إذا تراءى له وهماً بأنه سيأخذ على عاتقه مسؤولية هكذا اقرار . وأنا بنفسي سأكون مغمورة بالفرحة عندما أتخيل هزيمه جيش الشرق الذي أعيد تأسيسه بصعوبة بالغة ولهذا فعلي الحذر والشك من التهديدات الفارسية . إن الملك سابور المنتصر سيكون جاره الوحيد أكثر بأساً من الوجود القيصري المنهزم ولهذا فعلي أن أضوي تحت جناحي حليفاً يخشى جانبه . وأما الإهانة التي تعرض لها والدي فمن هو الذي سيتذكرها إذاً ؟ وعلى عكس الرومان الذين يوقعون معاهداتهم بثقة طفولية سخيفة ويتوقعون أن تكون أبدية لانها وقعت من قبل المستشارين القانونيين فاننا نحن نعلم جيداً بأن المعاهدات والأحلاف ليست لها أية قيمة إلا في وقتها الحاضر وفي مكان توقيعها وكتابتها . وقبل أن يجف الحبر فإن كل وطن سيكون قد استعاد مكانته . ومن المفيد الجيد أن يكون الأمر كذلك .

فمعاهدة ما سرية أو معلنة أو تحمل في طياتها أفكار خلفية لا تكون معاهدة جيدة .

لم يعد «زباي» إلى تدمر ولكن مبعوثيه أفادوا عند الملك بأن مهمتهم الرقابية قد لحظت تجمعات هامة للقوات على الضفة اليسرى لنهر الفرات وبعد استجوابهم لبعض الجنود الفرس الأسرى فقد عرفوا منهم حقيقة ما يجري والذي خلاصته أن الملك سابور يستعد لحرب جديدة ، وبذات الصدد فإن البراهين التي تقدم بها أعضاء مجلس شيوخنا قد اختفت ، فالقوات تستعد للتوجه نحو الشمال .

هذا القرار الذي اتخذه أوذينة بعد أن استشار ولعدة ساعات طويلة ضباطه في قيادته العليا والذين هم في حقيقتهم محبين للثرثرة أكثر من استحقاقاتهم في الوصول إلى رتبهم العالية في القيادة العسكرية العليا . هـم غير جاهزين للوقوف في وجه عدو صلب حيث إرتاءت بعض القبائل بأنه من المناسب أكثر الانغلاق داخل انطاكية واقامة معسكر مقسوم وترك المجابه ضد سابور حيث لا أمل في مواجهته ، وكان هناك أخرون محبين للمغامرين عندما أكدوا بأن اللحظة المناسبة قد أزفت لمفاجأة الساسانيين قبل أن يتموا استعداداتهم .

وطبقاً لعادات أوذينة واخلاصه لها فقد استمع بصمت إلى جميع الأراء والنصائح مبدياً إشارات برأسه علامة على التفكير ومتخذاً هيئة المستمع بإنتباه والمفكر بالذهب المكدس على ميزانه . وعندما استقر رأيه على أن المباحثات والنقاشات قد طالت مدتها وبغية الظهور بمظهر ملك حكيم وليس بمظهر رئيس صغير فقد أعلن بأنه سيدعم حامية انطاكية بينها تتوجه غالبية القوات نحو الفرات لمهاجمة معسكر الملك سابور وقد أعلن بأنه يتكلم باسمه شخصياً وباسم قيصر روما وأنه سيكون على رأس القيادة العليا للجيوش الرومانية والفرسان التدمريين . وقد لعب دوره باتقان كامل وأنني أنا زنوبيا لا أجهل بأن على أوذينة أن يسرع من أجل الانتقام لموت والدي لا من أجل غسل الاهانة الشخصية التي اقدت مضاجع العديد من المدن على ضفتي النهر بل لان ثوبه الأرجواني الجديد بحاجة إلى بعض الجثث لكي يزينه فيصبح بطلاً . والحروب تكسبه من قبل أولئك الذين يقودون وليس من قبل أولئك الذين يقومون بها .

● قبل مغادرته لتدمر أوصى أوذينة بالمدينة إلى ذلك الشخص الذي كلفه بتحمل مسؤوليات السفارة بالقرب من الامبراطور غاليان .

«**وورود**» زبون الرومان وغير المهم باستعمال الفرص لإدهاش القيصر ولكن ينصب اهتمامه على استعمال الماكينة الإمبراطورية لتسهيل عملياته المالية . لـم يكن لدى أوذينة أي خوف من رجل غني بهذا الشكل فإن تدمر ستبقى ضمن النظام الروماني .

وبذهاب الجنود فقد توقف الحدادون عن طرق الحديد وتوقف الموسيقيون عن النفخ في مزاميرهم . وفي داخل المحال في شارع الأعمدة الكبيرة فقد ران

السكون والصمت وبقيت في المدينة حامية من الجنود القلائل لتأمين خدمات الشرطة وتقديم تحيات الشرف لأعضاء مجلس الشيوخ وحماية أقوال العامة . ومن جميع أولئك الذين غادروا كم سيرجع منهم يا ترى ؟ أما أوذينة فليس بحاجة الى تعلم فن القيادة العسكرية فإنني أعرفه ماكراً بما فيه الكفاية ليتجنب زج الفرسان التدمريون في معارك مشكوك في نهايتها ، ولكن الرغبة في الاحتفاظ بهم حتى لحظة إطلاقهم على العدو وعندما يخلي هذا بدوره أرض المعركة تحت ضربات القوات المقاتلة .

أليس التاريخ مليء بهذه النوعيات من الجنرلات الذين يرفضون تدخل القوات الموضوعة تحت أمرتهم طالما أن النصر غير أكيد ولكنهم يستعجلون الزج في المعركة للحصول على قرار نهائي يسمح لهم بجني محصول المنافع والألقاب المزروع من قبل خصومهم . فالرومان متعجرفون إلى حد أنهم لا يقبلون بالهزيمة التي لا تكون فيها الآلهة أو الخونة هم المسؤولون عن نتيجتها . وهم يريدون وبنصر ساحق إعادة زرع نسورهم بقوة أكثر في سورية بينما تكون شعوبنا البدوية مترعة ببنات الليل ولا يفكرون إلا بالعودة إلى قبائلهم حيث يعذبهم عدم الصبر في انتظار مغامرة جديدة ، وعند هذه النقطة التي يحاولون فيها العودة للإستقرار تحت أسوارنا . وأي كانت نتيجة المعركة منتصرين فيها أو منهزمين فإن القوات الرومانية ستخرج منها ضعيفة بينما يصبح الفرسان التدمريون الذين سقطوا في المعركة من الواجب العناية تبجيلهم والاعلان عن أنهم عرفوا موتاً سعيداً .

وورود (الحاكم الطيب) والمؤهل بإدارة أمور الدولة كما هو مؤهل للسهر على مصالحه الخاصة . ومن خلال رحلاته الى أثينا وروما والإسكندرية فقد عاد منها بحركات غاية في الأناقة وأحاديث غاية في جمالية موضوعاتها وموسيقاها وقد محت هذه الرحلات قساوة رئيس القوافل وعملت غشاوة على ذهبه المكدس . وهو رجل مألوف في عائلتنا وكثيراً ما قفزت على ركبتيه عندما كنت فتاة صغيرة وكان والدي سيسر اذا ما طلبني لزواج وخاصة وانه ثري وعجوز وعضو في مجلس الشيوخ . أما لو كنت زوجة له فإنني كنت سأساعده على بناء امبراطورية مالية تنتشر في جميع البلاد المفتوحة وكنا سنترك إلى أوذينة مظاهر السلطة السياسية بينما تبقى الحقيقة بين يدينا والإمبراطور سيكون بحاجة إلى مساعدتنا لدفع مرتبات جنده وتكاليف

حروبه وكنا سننشىء مراسلات ومخازن في بلاد الهند وفي اسبانيا وفي بلاد الغال وبلاد الإغريق ومصر وستبحر مراكبنا في البحر الداخلي وخليج ما بين النهرين وطريق الحرير الشرقي البعيد ، وستمتلىء صناديقنا بالذهب وسنصبح سادة مصر وسننشر الجوع على روما برفضنا تزويد القيصر بما يأمل ويريد .

هذه الاحلام التي رسمتها شياطيني أبإستطاعتي أن أرويها على مسامع وورود ؟ وبعد عدة أيام من رحيل زوجي أوذينة جاء الى قصري بزيارة ودية آملاً أن يقدم التبجيل والاحترام إلى ملكة تدمر بالرغم من أن جميع السلطات قد وضعها زوجي بين يديه فقط وليس بين يدي أنا الملكة . وقد سبقته كوكبة من أتباعه إلى القصر بالإضافة الى الفرقة الموسيقية التي كانت تصدح لتعلن على الملأ قانونية زيارته وحسن تدبيره بتشريفه إلى قصر الملكة وهو برهان على شرعية وضعه . في بلادنا وعلى الرغم من حصوله على الأمان .

الفصل الأخير

زنوبيا

ذبح جيشي ، وقتل جميع أصدقائي ، وغرق في لجة الموج ولدي ، وأصبحت أنا نفسي سجينة «اورليان» . ويحدث لي أحياناً أن أعتقد بأنني أقاتل بألم مبرح في كابوس طويل لا ينتهي . وعندما يثقل الكرى أجفاني ، أدرك بوعي بأن ما حدث يكاد يفلت مني فأجاهد لألاحق صور أفكاري التي لم تنته ، متخذة الحيطة والحذر بعدم فتح أجفاني ، بغية تحديد الأشكال والألوان .

واليوم ، وقد نفذ صبري في إيجاد الوجوه ثانية ، وسماع الضجيج المألوف عندي . فسرعان ما أهرع لطردها ، وبدون شك فإن السيدات القائمات على راحتي وخدمتي . سيدخلن غرفتي وهن مرتديات لغلالتهن الخفيفة البيضاء ، ويسبقهن العزيز «لونجان» الآتي في طلب وضع خاتمي في أسفل بعض القرارات العاجلة :

(أنا زنوبيا ، ملكة تدمر . . .) لقدقطع رأس العزيز لونجان ، واغتصب جنود أورليان فتياتي ، ثم ذبحوهن ، وسرقوا ، ونهبوا كنوز عرشي ، وزرعوا نسرهم الحديدي الأعرج في مملكتي .

لم أكن أنتظر موت زوجي وولدي ، حتى تؤول السلطة الى ما بين يدي ، بل أقمت أحسب لكل شيء حسابه .

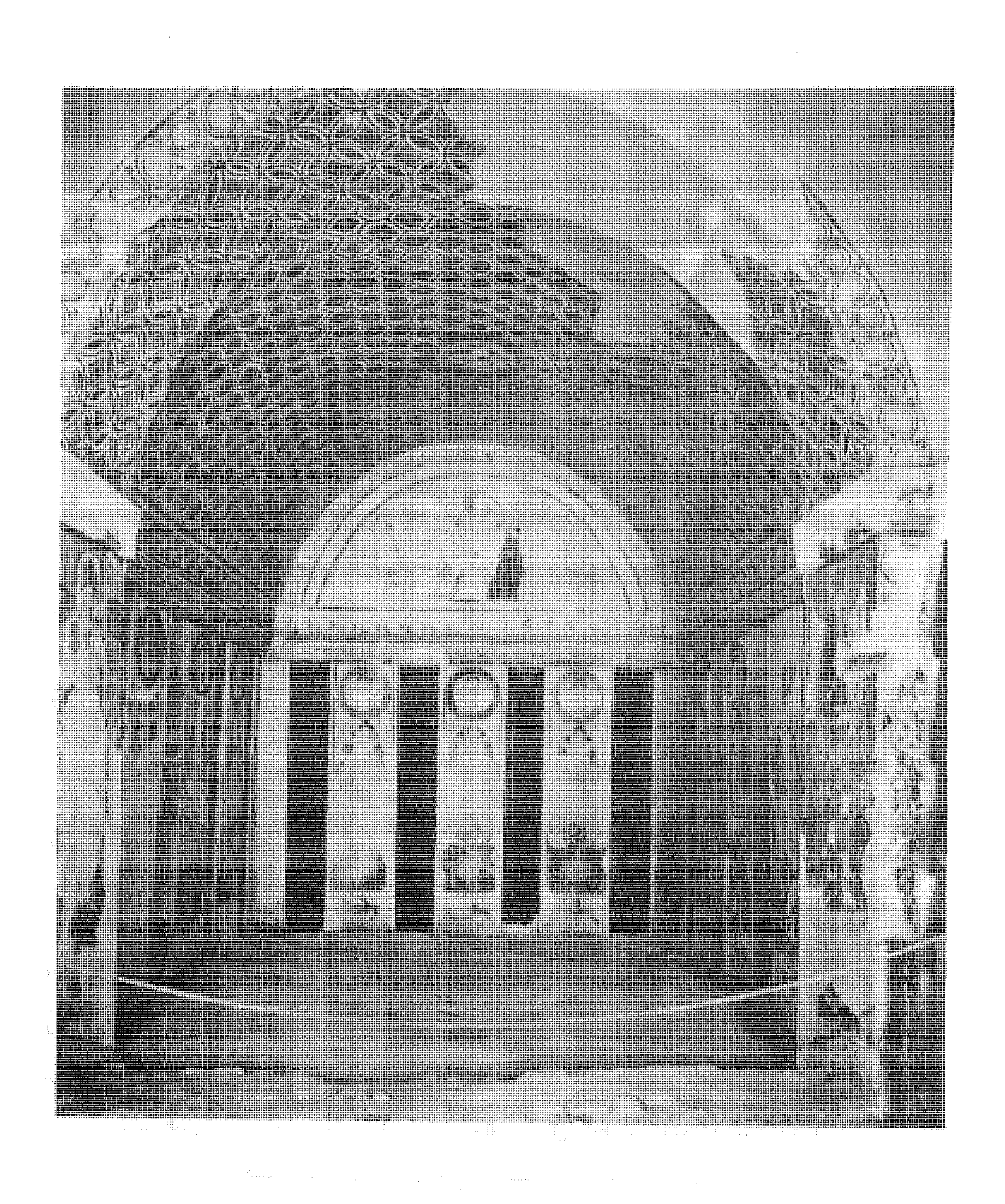
تدمر ، القدر ، والصدفة ، كانت أنا ، والرداء الأرجواني الذي ارتديته لمدة خمسة أعوام لا أدين به لأحد إلّا لزنوبيا . ولعهد طويل ، كانت الأشكال والرسوم والأفكار تنضج بالتدريج لهذه الثروات الفجائية ، التي تترك البشرية مصعوقة بضيائها ، فيعتقدون بخوارقها .

لقد غزت خيّالتي سورية بأجمعها ، وهدموا «سيليسيا» و«كابيادوكيا» وجعلوني سيدة امبراطورية ، كانت من قوتها وعظمتها . صفعة إهانة للقيصر ، وأقضت مضاجع سابور سيد بلاد فارس . كنت أستعد لإطلاق جيوشي لما وراء البوسفور . حيث انني على ثقة من عقد تحالفات صداقة . للوقوف في وجه هذا الأمر الذي كانت روما ، ترمي به وجوه الشعوب لاستعبادها بشكل أفضل . خمسة أعوام كانت كافية لي لأشيد كل شيء ، ولم يتبق علي من شيء بعد ذلك لأفعله .

وأورليان ، لم يترك لي إلا عربة مزينة ، بألواح الذهب وجياد وطهمة كنت قد حلمت بها ، وأنا منتصرة ، لأجتاز بها طريق دمشق المقدسة .

كانت تجرها ثلاثة جياد بيضاء ، لقد كانت عربة زنوبيا هي التحفة الوحيدة التي زينت تاج انتصارات الامبراطورية ، أنا الأسيرة ، المثقلة بالعقود والأساور ، كنت أتبعه حافية القدمين تحت أنظار كثيرة مليئة بالحقد والتشفي . وتجمعت الحشود ، ففي تدمر ، كانت النساء التدمريات يبصقن في وجوه المنتصر ، وفي روما ، شاهدت معلمات الهوى وطرح الغرام ، يعطون أطفالهن بدون النسب ، الحجارة ، لرجمي . كـان الاحتقار والإزدراء ، يجتاحني ، فتنتفخ بطني . فلا أترك أثراً لخوف أو لمذلة لتشتفي منها عيون الحيوانات ، لإهانة وجه عزيز مكلل بالفخار .

كان قدري . أما تلك الفترات القصيرة في الحياة المتميزة بالاخفاقات ، فلا يجب من الآن فصاعداً أن تبدّل من انتصارات ومسلكيات الأمراء . نحن الذين ولدنا على ضفاف البحر الداخلي ، نعرف تشكيل تعابير وجوهنا ، عندما تحل بنا المصائب . فلقد لعبت الدور الكوميدي للملكة التعيسة . وكانت تنهداتي



مدفون تحت الأرض

ودموعي ، تزيد من متعة الجموع المحتشدة من الرومان ولقد أظهرت لهم بالضبط ما يسرهم من الألم وليس ما يدل على خضوعي أو مذلّتي . وأخيراً شعرت روما بانتصارها ، فبدأت تمتص من داخل مجاريها القذرة ، الإهانات ، لترميها في وجهي . فقد انهارت درجات معبد صغير وهاجمتني امرأة . انطلقت باتجاهي من بين الجموع ، رافعة إصبعها ومهددة «زنوبيا ، أيتها العاهرة!» . فرفعت جبهتي ونظرت الى هذه الشرسة ، لقد أخفت قباحتها فضيلتها . وفي مكان آخر رفع رجل لباسه بحركة جارحة للفضيلة . كانت «مباركة» أثناء ذلك تسير ورائي ، مغمضة العينين ، صامّة الأذنين وبشفاه تعبر عن الاحتقار . كنت أراقب جميع حركاتي ، وأنا عالمة بأن كل منهم يمكن أن يكون معلّقاً ، وسرعان ما طالب الجمع برأسي .! كـان «اورليان» قد منحني الصفح ، ولكن هل قاوم الأمراء يوماً رغبة شعوبهم عندما يتعلق الأمر بالإعدام ؟ فيخلقون الأعذار متسلحين بقانون الدولة ، خشية غضب الطبقة الحاكمة أو بعض المؤامرات المحرضة ربما للتقاليد ، والتي تقضي على الملوك المهزومين ، بالذبح بعد أن زيّنوا انتصار القيصر ، ولسوف يخضع أورليان لهذا التقليد .

إن الرداء الارجواني الروماني يزن أكثر من الضمير القانوني ، ولقد نسي تماماً بأنه في ذات المساء الذي وضعت فيه تدمر السلاح جانباً أقرّ عهداً بالمحافظة على حياتي : أنا ، زنوبيا ، ولقد دفعت بـ«زبّاي و«لونجين» الى القصاص بعد أن كللتهم بالذهب وألقاب الشرف .

ففي الوقت الذي كانوا ينادونني فيه بـ «زبيدة» ، لم أكن أتقبله أما الآن ، فإنني على يقين من ذلك . كنت آنئذ يافعة ، وأكثر جمالاً من البدينات المترهلات اللاتي يبصقن الآن في وجهي . لم أكن راغبة في الموت خنقاً في سجن «ماميرتين» ، لقد كنت أنحدر من سلالة أولئك الذين يحاولون دائماً إعادة البناء بأية طريقة ، انطلاقاً من جزع الآخرين ، أو ابتداء من حلم . إذا بقيت زنوبيا حية ، فيمكن لكل شيء أن يبدأ من جديد .

كنت كمدعوة أكثر من كوني أسيرة ، فلقد قدّم إليّ الامبراطور مكاناً جميلاً للإقامة . كان فيما مضى مكاناً لبعض النبلاء الرومانيين ، ومكاناً لصك العملة التي تحمل صورته . ويقع هذا البناء في محيط روما على الهضاب المشرفة على نهر التيبر ،

وهنا في هذه المنطقة أنشأ العديد من رجال المال قصوراً ، لتشابه تلك التي يمتلكها الامبراطور هادريان . ويشبه مكان إقامتي ڤيلا فخمة ، مبنية من المرمر ، ومزينة بألواح البرونز . وهي في مظهرها العام مبهرة للأنظار ، وأما أعمدتها فمزينة بتماثيل غاية في دقة الصنعة وبهائها . وفي مداخلها ، يشع ضيائها بفضل المشاعل البرونزية وصف من الخدم يلقون التحية عليّ ، ومستعدين للإنصياع لأوامري ، وهؤلاء هم من أحكمهم الآن . لقد دخلت روما في ذات المساء الذي دخل فيه اورليان منتصراً .

كانت قاعات النصر فسيحة ، ومزينة بالعديد من النفائس والأرائك المسلوبة من بلاد العالم من قبل الجنرالات والقناصل . وكانت المكتبة مزدحمة بالمؤلفات القانونية والتاريخية ، وذات المواضيع الفلسفية أو الشعرية .

أما اولئك الذين سبقوني الى هنا ، فهم من اللصوص والأميين بذات الوقت . وتحيط بالمنزل الفخم حديقة عمدت فيها الى أرجحة أحلامي في ممراتها الطويلة المحاطة بكلتا جانبيها بأشجار معتمة ، يسمونها شجر الآس ، ويكمن خلفها عدد من الجنود الذين يخفضون حرابهم لدى مروري بهم ، فالقيصر يصرّ على أن تكون زنوبيا محمية تماماً كسجين ، وأن تلقى كل احترام وشرف كملكة كان خرير المياه المنبعث من السواقي الممتدة خلف أشجار البرتقال يذكرني بطنين حشرات الزيز عندنا ، ولطالما ركض وهب اللات خلفها بأقدامه الحافية . ساعياً الى تخريب أعشاشها الصغيرة . كان ذلك ولدي الصغير ، الذي جعلت منه ملكاً . كان خضاب الدم الأرجواني يشعشع فتوته . لقد أحببته كنوع من الذكورة الصغيرة التي نخشاها ، عندما تعلن سلطويتها . أترى أكان ذلك الرجل الوحيد الذي أحببته .

عند كتابتي لهذه السطور ، كنت مستقلية في غرفة صغيرة ، بيضاء الجدران ورطبة ، حيث أحببت فيها الإنغلاق مع نفسي . أنا ، زنوبيا ، ملكة حلم الصحراء ، حكمت لمدة خمس سنوات ، كنت خلالها أمسك بين يديّ هاتين الوحيدتين فقط زمام قيادة جيوش ، ولقد عرفت حياة المعسكرات ، وجمعت مهندسين وفلاسفة ، وأمليت الكثير من الرسائل الى سفرائنا وحكام مقاطعاتنا . ولقد نظمت العديد من القوافل الهائلة للعبور الى الخليج العربي ، والبحر الأحمر ،

وصككت النقود الذهبية على هيئتي ، وأطلقت وحش المجاعة من عقاله باتجاه روما ، عندما أمسكت بأمر مني في ميناء الاسكندرية القمح المصري ، ولقد دفعت بحدود تدمر الخالدة الى حدود الدلتا المصرية وكانت حدود مملكتي شمالاً حتى مضائق البوسفور . أهل يعقل أن يغلق عليّ اليوم أبواب النعاس والصمت والبطالة ، أيعقل ذلك ؟

إن الوحدة ، هي رفيقي الوحيد ، وعزائي الحسن . وهي التي صلبت قلبي في ساعاته العصيبة . لقد كانت صديقتي منذ الطفولة . وانني غير جاهلة بفضائلها ، وخطرها . فهي تشبه الرمال المطوقة لمجرى الفرات . وسوف تبتلعني بدون رحمة إذا ما أخذت بسحرها الجذّاب ، حيث لا يمكن بعد ذلك الإفلات منها . ولذا يجب عليّ الابتعاد عنها ، وأخذ الحذر من متعتها الكبرى ، وأن أظهر للجميع بأنني لا أزال باقية «زنوبيا» ، أستقبل أعضاء مجلس الشيوخ الذين يزورونني ، وأن أفتح الصناديق المكدسة بمجوهراتي وثيابي ، التي سمح لي «اورليان» بحملها معي ، لكي أجمّل من تزيين موكب نصره .

في أقل من قرن من الزمان ، اغتيل تسعة أباطرة ، دون أن تستطيع الحراسة المكونة من النبلاء حماية أحد منهم من ضربة الخنجر . وأنا المنهكة جداً اليوم في هذه الظروف ، أعلم علم اليقين أن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد . وأنه يكفي القليل من الحرارة الكامنة تحت رماد مدفأة مطفأة ، لإعادة الاشتعال وانتشار النار كما في الهشيم . وعندما كنت لا أزال ابنة التاجر «عمرو» لم يكن هناك من أحد ، يجرؤ على وضع ثقته فيّ ، لم يكن لدي من نصير إلا رغبة عجوز في رميي على سريره . وفعلت المتوجب عليّ ، وحيدة ، ضاربة في مجاهل الطرق الصعبة ، وأنا أرأب ثقوب الشبكة ، معتمدة على شعور العزة والفخار . وتخاذل الرجال ، سواء بأعذارهم ، أم بشجاعتهم .

وفي اليوم الذي سبق عرسي ، كان تحقيق الحلم لا يزال قابعاً بعيداً عن متناول يدي ، كما هو الآن . وبالرغم من كوني سجينة ، فإنني لا أزال ملكة تدمر . وإبقاء «اورليان» على حياتي مصانة لا يفرض عليّ أية واجبات . وعندما يحدثني هذا الدانوبي ذو الشعر الأصهب ، فإنني أدفع له مئة ضعف ، عندما يلبي طلباتي وحاجياتي ، ويحدثني عن الفضائل الرومانية وأعمال زوجته المنزلية .

لـم أكن جاهلة لفترة طويلة بأن المعرفة ، هي عبارة عن شعور مقرف قذر . وهي تحقر وتذل بذات القدر ذلك الذي يسعى اليها ، وذاك الذي يبرهن عليها .

يجب على الامبراطور أن يأتي الى هنا عما قريب . إنه يوم القيصر . فهو مرتب ومنظم وقاس ، ويقوم بتنظيم شؤون الجمهورية ، أما أنا ، زنوبيا ، فلم أكن أبحث عن الرجال ، إلا لحاجة المرأة لذلك . ولأفكر بشكل حر في بقية الأشياء .

وأما اورليان ، فكثيراً ما يلجأ الى تمديد إقامته عندي ، في محاولاته العبثية ، وحركاته الجادة ، للتودد إليّ .. ويعمد الى قصّ أتفه الأشياء عليّ إلى رسم صورة أمه . كان يروي لي حكاية حياته . أما أناة صبري في الاستماع اليه ، فكان طويلاً بقدر ما كان ردي سريعاً في إفهامه بأنه يضيّع وقته ، فإن مشاعري ، ومجمل تفكيري قد تركتهم ورائي هناك خلف البوسفور ، ضمن مملكتي ، وشعبها ، وإن تفكيري لن يكف عن استحضار الصور ، والبحث عن وسيلة ، لإعادة العجلة الى الدوران . فإنني لا أزال أشتم الرائحة التي ولدت بين أثيرها رائحة الجمال ، رائحة عبق الصحراء ، رائحة الخيام السود ، وأطفال شعبي السبي في أنفتهم ، وشعورهم التي تداعبها الريح . إن قلبي جاف كرمل صحرائنا في فصل الصيف ، ولن يعود الى سابق عهده إلا برشفة ماء بارد ، من نهر آبائي وأجدادي الذي شربنا منه ولعبت على ضفافه ، أثناء ترحالي مع أبي في هجيع القوافل الكبرى .

روما ، أيا روما ، مدمرة حلمي ، وحلم شعبي ، ولكن أحلامنا وخيالنا موروث لنا سيبقى ، ما بقي من نفس يلهث فينا . إنني أسيرة ، وإنني لن أكف عن محاولات الانتحار ، أو البحث عن وسيلة للعودة الى وطني ، إن قدرنا ، في الشرق أن نبقى تارة في صراع مسلح ، وتارة في صراع سياسي ، مع قوى البغي والطغيان ، مع قوى التدمير ، لا التعمير ، مع عنجهية الطغيان لا العدل والمساواة . إنني قد أهرب عائدة الى شعبي ، وإنني قد أقتل ، أو أنتحر ، ولكنني أنا زنوبيا ، ملكة تدمر ، وسليلة الآراميين لست وحدي من يجري في دمائه الدم الآرامي بل هناك شعبي بأكمله . وستنبت مئات الزنوبيات ، ومئات من أمثال زباي ولا بد للحلم من أن يتحقق يوماً ، فما عرفنا أبداً إلا حريتنا ، ولا نقبل الا

باستقلال كلمتنا . فما أنا ، إلا واحدة من شعب أبيّ ، عزيز النفس ، عفيفها ، كريم الطبع ، بسيط العيش .

فيا روما ، لقد سرقت ألواح ذهب معابدنا ، والأحجار الكريمة من رموز تماثيلنا ، وهدمت المقدسات ، والبيوت والقصور ، وخربت الحدائق والبساتين ، وأحرقت متاع دنيانا ، وجيشك البربري يرود بين جمالنا ، ودوابنا ، ونسر ظلمك مغروس على قمم جبالنا ، ولكنك ، لن تخمدي الحلم ، لن تستطيعي مسح الفكرة ، فالحلم موروث لنا في دمائنا ، ونورثه لأحفادنا ، وهو الأبقى ، في عالم يصهر فيه الذهب ، ويتشكل بالطريقة التي نريد ، ويحمل الحجر ويقطع كما نريد ، ولكن الحلم لا يمكن صهره ، ولا تقطيعه ، ولا زجّه في أعماق السجون ، أو إصابته بنبلة لإنزالة من عليائه الى الأرض ، فالحلم فكرة ، تسري في دمائنا ، في أرواحنا ، ونحن شعب لا نقبل الضيم ، أو أن يحكمنا أحد غريب في دمائه عن دمائنا . وستثبت الأيام ما خفي عنك يا روما .

وبالرغم من شعوري الدفين بالغضب والحزن والأسى ، فقد شعرت بحاجتي الى إعادة ترتيب أفكاري ، فهدأت عواصف غضبي ، بإطلاق ناقتي الجميلة «البيداء» من عقالها في مجاهل الصحراء . ولدى عودتي وجدت أوراقي لأشكي لها وأسرّ لها بما يعتمل في صدري .

لقد كان هناك زبّاي ، وآخرون . وبعد وقت ، غزوت البلدان والأمصار ، وحكمت ، وأضعت امبراطوريتي . لقد كان بإمكاني ، أنا أيضاً ، الصعود إلى الكابيتول ، منتصرة . ومن المفيد ، أن أحاول أن أعرف ، وأفهم أسباب إخفاقي ، بدون أن أنغمس في ذكرياتي . فما هي الخطيئة الكبرى[٢] القـاتلة ، التي ارتكبتها ؟ هل كانت حساباتي غير مطابقة للواقع والحقيقة ، أم كانت غير منتظمة ؟ أم هل كان مستشاري غير مؤهلين لمهماتهم ؟ أم هل أني لم أقدر القوة الرومانية حق قدرها ؟ بدون شك ، فقد كان أولئك المقيمين في انطاكية غير مخلصين إليّ ، وانتقلت عدة قبائل بدوية من صفوف قواتي الى صفوف أعدائي . ولكن جميع هذه الشروحات والتعليلات أرفضها ، أنا زنوبيا . إن الشعوب الضعيفة هي الوحيدة فقط التي تؤول إخفاقاتها الى الخيانة ، لتبرير هزائمها .

بدأ كل شيء ، عندما هزم أوذينة القوات الفارسية ، وولت الأدبار نحو عاصمتها طيسفون .

ولقد أبادت القوات التدمرية جيش الملك سابور ، وكادت نبّالتنا أن تنهي آخر جندي فارسي من فلول الفارين ، لولا تدخل مستشاري ملك تدمر من الرومان ، لكسر حدة وشدة وعنف الاندفاع التدمري . هؤلاء القادة للفرق الخفيفة التدمرية كانوا يحتقرون استخدام كتل ضخمة من الفرسان ، خشية سوء العواقب ، ويفضلون التمسك باستراتيجيتهم القديمة ، التي أثبتت فعاليتها . فقد كانوا يهاجمون التجمعات الكبرىٰ للجيش ، وبفجائية تامة ، فيجمعون الغنائم ويخلون الجرحى من ساحات المعركة ، ويكفنون موتاهم ، وينفخون الروح في جسد الأحياء منتظرين أثناء ذلك وصول التعزيزات ، وآلات الحرب ، وعربات المؤن ، فهم مُعتَمدين عسكريين ، أكثر منهم قواد حرب ، وهم خلّاقين ومبدعين أكثر من كونهم عبيداً للأنظمة والروتين .

وفي تدمر كانت فتيات العائلات الثرية يقمن دائماً على تدعيم أبواب المدينة والأسوار بينما يتولى آباؤهم حسابات الربح والخسارة في حالة سقوط عاصمة الفرس .

وقد غادر عدد كبير من الشبان قبائلهم بتشجيع من كبار قومهم ، لينخرطوا في صفوف أجنحة القوات التدمرية من الفرسان . ولقد أحببت النظر إليهم في تسكعهم بطرقات تدمر ، فهم نحيلي القامة ، جوعىٰ . فقد اجتازوا أكثر من مئتي ألف عبر الصحراء العربية . وبالقرب من «وورود» ألححت دائماً ، على أن يطعموا بشكل جيد هناك ، وقد كانوا خاضعين لقواعد وأنظمة خفيفة . وليس من الحكمة ، رفض أو كره هؤلاء عابري الرمال . وأعطى «وورود» طواعية موافقته ، وكأنه تنبأ بأن تحقيق مشروعاتي سيحتاج الى جيش تدمري قوي . ولم يكن بمستطاعه أن ينسى غاياتي . ولكنه حكم المدينة ، باحترام الجميع ، فقوله هو الحد الفصل وعيونه بلا معنى . وسهر على تنفيذ القانون الضريبي بحذافيره ، لقد كان متسلطاً ، فأمّن النظام ، ونظّم القوافل ، وزار المدارس ، وفي عودته ، شاهد ، وتجول داخل ثكنات جنود تدمر . وكان غالباً ما يزورني فكانت مباحثاتنا دائماً جدية . وكان يعلم ما يشد اهتمامي كالمشاكل العالقة في إدارات الدولة ، والتجارة

الخارجية . ومسألة الحرب والسلام وكانت رسله تأتيه من الاسكندرية وانطاكية ، وخليج بلاد الرافدين ، لقد كنا نتبادل الأحاديث ما عدا الهام منها . فبدون شك ، إن اللحظة المناسبة لم تأت بعد . وحسب عادات مدينتنا ، فإن المحادثات الهامة تسبق بصمت طويل . وكنت أراقب قواعد اللعبة ، وأنا أتمتع بها . وفي بعض الأحيان ، كان يبدو لي ، بأنني أخمن ما يدور في خلد «وورود» ، وكأنه شيء محسوس بالنسبة إليّ .

زنوبيا

ـ عاد زبّاي إذاً من قبيلة عائلته ، التي غادر إليها منذ ثلاثة أشهر ، وقد شفي ، ولكنه ضعيف الجسم أكثر من طفل مريض . ما الذي يعلمه «وورود» ؟ فهو شبيه بأولئك الذين يجمعون ، ويحتفظون لأنفسهم وحدهم ، بأفضل القطع النادرة ، وهو من الطراز ، الذي يُسر لجمع الأسرار فضلاً عن إذاعتها ونشرها . ويتظاهر باللامبالاة ، ونظرت الى «وورود» مواجهة في عينيه ، وكأني أتهمه بارتكاب ذنب ، حتى اللحظة التي رأيته فيها يخفض الرأس ، وكأنه المذنب وفي مرة أخرى ، نصحني بإستقبال «مايونيوس» إبن أخ «أوذينة» لأساعده على طلب الغفران والمصالحة مع عمه . ولم يزد على ذلك بكلمة . لقد قال كل شيء . ومنذ ذلك الحين ، كانت الروابط غير الخطيرة التي ربطتني مع ذلك الرجل أقوى من تلك التي كانت تشدني الى زبّاي ، أو على الأقل هكذا بدت لي . واليوم ، أعلم بأن «وورود» قد أصبح شريكاً لي .

تسارعت أحداث غير متوقعة . بينما كان «أوذينة» يتابع عمليات الحصار الخائبة لـ : «طيسفون» وأثناءها غمر سيل عصابات القتال «الغوط» : «بيتيني» . هؤلاء الأشقياء الذين لا نعرف لهم أصل ، وكانت مصادرنا ، تنبئنا بأنهم قد إجتاحوا سواحل بحر «إيجه» ، و«بونت» واكتسحوا مدن «نيكوميدي ، ونيسة ، وتريبيزوند ، دون أن تجرؤ القوات الرومانية حتى على انتظارهم فولت الأدبار ، بينما أشعلوا النيران في «أبولوني ، وإفيس ، دون حتى أن تتدخل الآلهة لحماية معابدها . كانوا يغيرون على المدن كفيض هائل ، ويختفون فجأة كما أتوا مع أثقال

غنائمهم . ونفذوا إلى آسيا الصغرىٰ وإتجهوا نحو «**كابادوس**» . فإذا لم يتوقفوا قبل إجتيازهم لمضائق «**طوروس**» ، فإنهم سيصلون الى انطاكية ، ويهددون تدمر بذات الوقت .

أخطر الجنرالات الرومان بالخطر الذي يتفاقم وراء هذه العصابات ، فالتفوا حوله ، وفهم أوذينة سريعاً ، بأنهم يبغون وبدون تأخير غزو وهدم «**طيسفون**» ، ثم توجيه جهودهم نحو «**كابادوس**» حيث سبقتهم إليها فرقة «**فلاڤيا ـ فيرما**» السادسة عشر . وهكذا حثت القوات الرومانية الخطىٰ ، منطلقة نحو «**طيسفون**» ، بينما إتجهت نبّالتنا الأشداء ، متخذين طريق بلاد ما بين النهرين ، الذين يسير بمحاذاة الفرات ، في القسم الشمالي منه . وفي تدمر ، هلل الحزب الروماني لهذه الخطوة ، وأعلن ، أن قوة القيصر ، ستبقى الأقوى لحماية منافعنا وحياة سكاننا ، أما ، أنا ، فإنني على يقين ، من أن أعداد قواتنا من النبّالة ، هم من رفيع المستوى ، وهم وحدهم ، أفضل من يمكنه الدفاع عن شعبنا .

لم تتجاوز حصيلة المعركة من الموتى تنبوءاتي ، حيث سطعت شمس أوذينة بنصر الأبطال ، ولن يتجاهل أحد جهودي المضنية التي عملت عليها بالقرب منه ، لخلق نواة الجيش التدمري العظيم . وغياب صورة الملك ، استعملتها لإعطاء شعبنا صورة عن زنوبيا ، الساهرة على مصالح الشعب ، وبساطة وسهولة محبتها ، وأما قيادته فقد إغتنمتها أيضاً وانتفعت بها بالقرب من جميع الجنود ولكني لم أصبح بعد ملكة تدمر ، ولكني أصبحت قاب قوسين أو أدنى من «**زوجة الملك**» .

وبناءً على دعوة «**وورود**» لبحث غارات الغوط فقد أعلنت بأن خطر هذه العصابات أشد من خطر الفرس ، ولكن عدم خضوع هذه العصابات لقوانين وأنظمة . لا يسمح بعمل سلام أوحرب معهم .

وهذا مما يُسرُّ له القيصر وبذات الوقت الملك سابور . وكنت أجهل بأن حل هذه العقدة سيكون قريباً . وبعد عدة أيام ، وصلتني رسالة من أوذينة يعلمني فيها بنبأ هام : وهو أنه لدىٰ وصول شراذم عصاب الغوط إلى منطقة كابادوس ، وقعوا في الفراغ الكائن بين الجبال ، وهكذا إختفت هذه الشراذم البربرية وكأنها لم تكن . وشرح لي ملك تدمر مدىٰ خيبته لعدم تمكنه من الإحتكاك مع العدو ،

ولهذا فقد أرسل تعزيزات هامة من جيشه الى الإمبراطور لحماية الحدود الدانوبية . ولم يتبق لديه إلا العودة إلى تدمر . وتخيلت مدىٰ غضبه فقد ضاع منه إنتصاران الأول الإحتكاك مع العدو ، والثاني فقدانه لقيادة الجيش المشرقي ، وإضطراره لإرساله للقسم الأعظم من جيشه الى الحدود الدانوبية .

وخلال هذه الفترة ، قررت مقابلة «مايونيوس» . الذي لم أعرفه جيداً ، ومعلوماتي عنه تنحصر في أنه كان يقضي معظم وقته ، ما بين المتعة الجسدية مع فتيات الهوى الذي كان يكرههم ابن عمه «هيروديان» بقدر ما يكرهني والقنص .

ولدى وفاة والدي ، نحي فجأة عن السلطة من قبل أوذينة ، ولكنه كان متخماً بما ورثه من غنى فاحش عن المتوفىٰ . وهكذا عاش منعزلاً عن العائلة ، حتى أنه لم يشارك بأية معركة من معارك عمه أوذينة . وكان جلّ إهتمام الأمير الصغير بترف العيش ، والتمتع بمباهج الحياة .

وهذا ما كان يغضب العم من إبن أخيه السمعة السيئة . وأحاديث المغرضين التي تمس زخم وعنفوان العائلة وميراثها الأخلاقي .

وهكذا ، فكر «وورود» في عقد مصالحة ما بين العم وإبن أخيه ، وهذا الشيء لم يكن ليقلقني في شيء . ولكن لماذا فكر «الحاكم» الذي نصبه أوذينة ، بهذا الفعل المجاني ؟

وطرحت هذا السؤال ، لدى إستقبالي لـ «مايونيوس» ، الذي إنحنى أمامي بدون ريبة أو شك ، وأسرّ لي بمرارته وغضبه ، وكأنه أراد أن يجعل من زنوبيا حليفاً له ، لغزو ميراث تدمر . أما أنا ، فلم يسبق لي أن اختبرت هكذا أحاسيس من الشفقة تجاه رجل فظ ، حيث أن عنفوانه ، ومزاجيته كانت شاهداً على طهارة نفسيته . فمنذ ولادتي ، عرفت مخادعين ، وخونة وجبناء ، فوالدي ، بطموحاته ومباركة بأساطيرها ، وكورنيليوس بمعلوماته التاريخية . وأوذينة بكل هذا العالم ، والقادة بإنتصاراتهم الزائفة ، والكهنة بآلهتهم ، و«وورود» بصمته ، والنساء بأزواجها ، ومرآياهن . وأنا ، بذاتي ، فلم أعد أستشعر بمذاق اللا نهايات التي حمت طفولتي ولهذا ، كان علي ، أن أكذب ، وأوارب الآخرين لحين الضرورة ، وغالب الأحيان للهو واللعب . لكني لم أكذب بتاتاً على زنوبيا ، وكانت هذه هي فضيلتي الجوهرية ، فمن الواجب معرفة مياهنا الجوفية .

كان «مايونيوس» غير قادر على إختطاط طريق المكر والدهاء ، فهو بحق يمثل في كثير من جوانبه الايجابية الشخصية العربية . ولقد بحث مطولاً إليّ ولم يتوقف عن الحديث إلا عندما سمعني أقول له بأن عودة أوذينة القريبة ، ستكون مناسبة جيدة له لعقد المصالحة بينهما ، وإحتبس بعد ذلك الشراب الذي قدمته له ، ثم خيم على كلينا الصمت ، فأنا ، كنت محاذرة لإرتكاب هفوات في الحديث ، بينما هو فكان غير قادر على تهدئة روعه ، وغضبه الذي يسري في دمائه .

ووقع النهار بهدوء ، وإخترق شعاع المغيب النافذة المقابلة ، ليحط على أصابع يديه الضخمة . وقلت له ان عرش تدمر سيؤول اليه بعد عمر مديد «لأوذينة وهيروديان» . وكانت هذه العبارة كوردة رميتها في الهواء ، كما يرمي عمال الحدائق الفرس ، بصلة التوليب من فوق أكتافهم دون الأخذ بعين الاعتبار لمكان وقوعها .

وكنت أعلم أن عدد الأساطير المختلفة لشرح حادثة إغتيال ملك تدمر كثيرة . وما قد وصلنا ، أن أوذينة كان مقيماً في معسكره الذي أقامه في حمص لكي يستريح لبضعة أيام ، وريثما تستعد تدمر للتحضيرات في إقامة الحفل على شرف أمير تدمر ، كناية عن المحبة والتقدير له ولعودته المظفرة المكللة بالإنتصار ، وأثناء ذلك قرر «مايونيوس» الإلتحاق بالأمير للتعبير له عن تقديره ، والعودة معه بعد ذلك .

وإستقبل العم ، ابن أخيه ، متناسياً الخلافات والجفاء الذي كان بينهما واستقبله بضمة إلى صدره . وإذا كان علينا ، تصديق أقوال الشهود ، فإن حدة الخلافات بينهما قد انخفضت الى أبعد الحدود ، ولم يكن أي منهما جاهلاً . بأن حدة الخلافات والشقاق الكبير الذي بينهما . يجب على أقل تقدير ، أن لا يحول بين مصالحتهما ولو بحركة ممسرحة أمام العامة . وكان أوذينة ، منكباً دائماً على بإهتمام شديد ، لحماية أعضاء عائلة «سبتيما» بشرط أن يعترفوا به رئيساً بدون منازع . وكان وصول «مايونيوس» إلى حُمص ، قد وضع حداً نهائياً ، للمنافسة بينهما . وبدى لأوذينة أن الإحتفال بإبن أخيه والمصالحة التي تمت بينهما ، تفرض عليه ، دعوته إلى رحلة صيد .

وأكدَّ بعض الفرسان أن معركة عنيفة قد نشبت بين أبناء العمومة الإثنين كهبوب الريح فجأة ، وحسب الآخرين . فقد شوهد أوذينة وهو يقوم بقطع الطريق بعدة مواقع على ابن أخيه ، وأمر بعد ذلك بمصادرة جواده ، وإستبد الحنق والغضب بـ «مايونيوس» فإستل خنجره ، وطعنه عدة طعنات كانت القاضية لملك تدمر ، ثم إستدار نحو إبن الملك «هيروديان» الذي شلته المفاجأة ، فأرداه يتخبط في دمه بجانب والده .

ولكن تدخل الحراس الشخصيين كان بعد فوات الأوان ، ومع ذلك فقد أنفذوا سيوفهم في جسده وكان الضحية الثالثة ، فإستقر بلا حراك بجانب الإثنين جثة هامدة .

إن الآلهة وحدها التي تعرف حقيقة ما جرىٰ ، ولكن القدر يتحرك بدفعة إبهام خفية .

عندما وصل نبأ إغتيال أوذينة ، الى تدمر ، اهتز الوجدان الشعبي لهذه الجريمة ، التي تختفي وراءها أصابع خفية ، فالملك أصبح بفضل عنايتي ، أميراً مدهشاً مثيراً للإعجاب . ولقد ألقيت كلمة من شرفة قصري ، طالبت فيها الأخذ بالثأر ، وكانت مباركة قد ألقت على شعري وشاحاً جنائزياً . وبغض النظر عن محبتي لأوذينة أو كراهيتي له ، فإنني لن أنسى ، بأنني أصبحت شريكته أكثر من كوني زوجة له . ولقد غفوت على كتفيه وشيّدنا سوية مشاريع عديدة ، بالرغم من تبادلنا في بعض الأحيان للكراهية ، أو للهمسات الرقيقة ، أو المداعبات ، وكثيراً من الأحيان النظرات ، التي قاربت بيننا ، وباعدت حيناً آخر . ولكن رؤيتي لجثمانه المسجىٰ كان لا يطاق ، ولعله آلمني في الصميم . فحياة الزوجين ، ليست بالشيء البسيط .

وبناءً على طلب الحاكم «وورود» ، إجتمع مجلس الشيوخ ، ليعلن «**وهب ـ اللات**» ملكاً على تدمر . فبالنسبة للمحلفين المستشارين ، كان موت هيروديان ، هو الذي أفسح المجال لإعلان ولدي الوريث الشرعي الأوحد لأوذينة ، أما بالنسبة للشعب ، فإن «**وهب ـ اللات**» كان قبل كل شيء ولد زنوبيا لأن أوذينة ، لم يكن لديه الوقت الكافي للتفرغ لتربيته ، أما أنا ، فبعد أن كنت لمدة طويلة زوجة الملك ، أصبحت الآن ملكة تدمر . ولن يجرؤ أحد على قول

عكس ذلك أو كما أعلنت «تيليماك» في أحد الأيام لـ : «بينيلوب» : «إهتمي فقط ، بخيطانك، وثيابك ، وأقمشتك ، فالصمت هو قانون النساء ، والكلام هو من إختصاص الرجال» . وكانت أولى إهتماماتي ، تكريس الكثير من الوقت ، لإحياء ذكرى زوجي الملك . حيث كنت المشرفة المباشرة على نظام حفل التأبين ، مع الكهنة ، وقادة الجند ، والمهندسين ، وقادة القوافل ، ورؤساء عشائر البدو ، والتجار .

ولم ألقي عظيم إهتمام لتكلفة برجه الجنائزي ، أوحجم تمثاله ، فتعظيم الراحل زوجي ، هو تعظيم لـ «زنوبيا» .

أثقل حجم مسؤولية الحكم ، كاهل زوجي ووالدي وكأنهما يحكمان الإمبراطورية الرومانية . ولقد لاحظت منذ حداثتي ، بأن الرجال الذين يمسكون بحبل المسؤولية ، سواء أكانت مدنية أم عسكرية فإنهم يعمدون إلى تضخيم حملهم ويتشدقون بعظم مسؤولياتهم ، بغية نفخ أهمية وظيفتهم .

وفي هذه الحقبة ، تراجعت مسؤولية حكومة تدمر فإقتصرت على أعمال الشرطة في الشوارع والأزقة ونظافة المدينة ، وجباية الضرائب ، ومراقبة ثروة البلاد ، حيث حاول الكثيرين التهرّب من تنظيم القوافل الكبرىٰ . وكانت القبائل الرُّحل في محيط المدينة ، هي الوحيدة التي اعترفت بأوذينة كعاهل ، بينما بقيت القبائل الأخرى ، مستقلة عن حكومة تدمر ، فأحياناً هي صديقة ، وأحيان أخرىٰ ، تعمد الى التسعير لنشوب القتال . وكانت الأعمال الكبرىٰ ، لا تزال تحرر باسم القيصر ، من قبل الوكيل والجمهوريين الذين يتفاوضون فيما بينهم حول سلطتهم ، بكتب مسطرة باللغة الأغريقية ، والسريانية . والفارسية أو الرومانية . وجميعهم كانوا يمثلون النظام الذي أود تدميره . فتحت مظهر السلام الروماني ، لم تعد قوات هذا النسر قادرة على تأمينه لنا . فالإدارة التي تدار بيد غير ظاهرة ، وتثنينا تحت قوانين لهي أكثر خطورة مما يبدو ظاهرياً على أنها خفيفة بالنسبة للجماهير .

لقد عرفت روما بتحالفها مع أوذينة ، أفضل المدافعين عن مصالحها . وبمهارته أصبح «غاليان» الامبراطور الحليف والصديق ، بعد أن فتح زوجي رداءً أرجوانياً من الوهم . وبعد أن تقبل أن يكون الذراع الطويلة للقيصر في الدفاع

عن المقاطعات الشرقية ، فإنه قاد النسر الروماني حتى حدود الفرات .

ولكنه أخطأ بإختيار العدو : فتحالفه مع «سابور» ، أدى إلى هزيمة الإمبراطورية الرومانية . والآن عليّ أن أعيد حياكة ما قد مزقناه سوية بالأمس .

لم أكن من مؤيدي الحرب ضد الفرس ، حتى يتم جمع أعداد كبيرة من الفرسان العرب ، الذين سيقاتلون يوماً ما تحت أمرتي عوضاً عن ذهابهم الى الشمال على حدود الدانوب ليموتوا هناك ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل مجد إمبراطورية أصبح وجودها مهدداً بالزوال . وبالنسبة لأولئك الذين أعطوني ثقتهم ، ووثقوا بحكمتي فإنني لم أتقدم إليهم إلا ببضعة اقتراحات ، آخذة بعين الإعتبار أن أجعلهم يعتقدون بأنهم آتون من ذواتهم ، استناداً إلى أمجاد قبائلهم ، وتقاليدهم القائمة على رفض تواجد الأجنبي على أرضنا العربية مهما يكن مكان مولده ، شرقاً أم غرباً . واتبعت إضافة لكل ما ذكر ، منهج الأميرات السوريات ، فقد كان عليّ أن أقرر ، وأصدر الأوامر ، وليس فقط الانكفاء بحدود إسداء النصح . فضياع برهة واحدة ، معنه المخاطرة في رؤية مجلس الشيوخ وقد عاد عن قراره في إعطائي حق حضانة إرث الملك «وهب ـ اللات» كانت تدار تدمر كمدينة ، ولكني عزمت على حكمها كدولة . ولقد أجبت ضمن هذا النهج على رسالة كان قد وجهها حاكم إنطاكية الى إبني وهب اللات ، أعلنت فيها : «أن ملكة تدمر تأمل في الحفاظ على علاقات طيبة مع الإمبراطور ، وهذه العلاقات هي التي وحدت في السابق شعبينا» : وقد عنيت بقولي بأنه إذا كان القيصر يحكم روما ، فإن زنوبيا هي سيدة تدمر . وقمت أيضاً بإرسال رسالة الى الملك «سابور» لأعلن له فيها وفاة أوذينة ، وليقوم هو بالتالي بتهنئتي على مغادرة الجيوش الرومانية أراضي تدمر ، والتي حاصرت عاصمته في الماضي . وكنت أعني برسالتي الى الساسانيين ، بأن الماضي قد توفي بوفاة أوذينة وأن عهداً جديداً سيطرأ على العلاقات معهم .

أما «لونجان» الموهوب ، فهو أكثر مهارة في وزن الكلمات ، وقد أنهى الرسالتين اللتين أمليتهما عليه ، وقام بتعديل طفيف على كلمات مخطوطتي الأولى ، وهو أستاذ القواعد ، والعارف ، بالطباق ، . . الخ . ولونجان هذا التعس ، فإنه كان يستأهل مصيراً أقل مأساوية ! وخلال سنيه الخمسة الأخيرات فقد كان وزيراً

ممتازاً . ترى ، هل أخطأت بعدم الأخذ بنصائحه في الأوقات الصعبة لقد كانت ريشة كتابتي أكثر حدة ومضاءً من ريشته ، لقد كان يملك حبراً رخواً لسفير مثقف .

* تنحىٰ «وورود» عن القيام بمسؤولياته كحاكم مدعياً ، بأن سلطته قد أخذها من أوذينة وطالما أن أوذينة قد توفي ، فقد إنتفى معه سبب إستمراره .

كنت بحاجة لهذا الرجل ، فمعرفته بالعالم المشرقي والصرامة التي أدار بها تدمر ، أثارت إعجابي إضافة لعلاقاته برجال المال والرومان ، وسلطته بجانب التجار ، كُل هذا دفعني للتمسك به من أجل الأعمال . أترى أكان يتخيل منصباً أعلى من ذلك ؟ وهل أخذ مقالتي له يوماً كلهو عندما قلت له أنه بإمكاننا نحن الاثنين إنشاء إمبراطورية مالية أكثر قوة من الإمبراطورية الرومانية ؟ وتوجهت بعد ذلك الى الشعب ، فأعلنت سحب جميع الصلاحيات الممنوحة لـ «وورود» من الملك المتوفىٰ ، وكنت أعني ، أنني ، أنا ، زنوبيا ، أعلن من الآن فصاعداً عزمي على إستلام زمام السلطة ومباشرة حكمي .

ـ علمتني الكتب الكثيرة التي طالعتها ، بأن على الأمير أن يمتلك مخزوناً كبيراً من الأسلحة والذهب وهذا الأمر بالنسبة لي ، لا ينقصني منه شيئاً . فعندي الكثير ، من الرماح ، والحراب ، والسيوف ، والدروع التي جمعت من ساحات القتال بعد هروب الجيش الفارسي الساساني ، أمام فرسان تدمر فإمتلأت بها مستودعات تدمر ، او كنوز الحرب التي خلفها وراءه الملك سابور ، قام أوذينة بإستثمارها ، فتعاظم حجمها . وقررت تنظيم عرض عسكري كبير ، طالما حلمت به منذ وقت طويل ولأقنع الشعب ، بجيش يراه أمام ناظريه ، فيستطيع التصفيق له دون تصاغر ، أو تواضع .

★ أكثر من ثلاثين ألف فارس أقاموا ثكنات حول تدمر ، واجتمع عشرة آلاف آخرين في معسكرات التدريب . وسأذهب لزيارة أولئك الذين خاضوا غمار الحرب . فأغلبهم يعرفني وكلهم يعرف بأنني أرجعت قوافل من الجرحى . فهتفوا لي . وكوني أصبحت ملكة ، فقد بقيت كواحدة منهم . وحرصت في ذلك النهار على ركوب دابة صعبة المراس . وهي «**فرس سورية**»ذات أفخاذ قاسية فالخطر ،

كثيراً ما أنعشني ، بل بأكثر من صراخ الجمهرة . وكما كان يفعل أوذينة عند مروره من أمام المقاتلين ، أرتأيت فعل ذات الشيء ولكنني سرعان ما عدلت عن فكرتي بسبب فرساني الذين لم يستطيعوا البقاء مسمرين وأرادوا إظهار فرصهم وبهجتهم أمامي فهيجوا خيولهم وجعلوها تدور حول نفسها . رافضين بذلك الخضوع لأبسط الأنظمة والقوانين أو القواعد العسكرية ، فاجتمعوا كل مع قبيلته حتى لم أعد أميز رؤوساء العشائر منهم وأكثرهم جسارة ، أصعبهم مراساً . وكان من بينهم عدد كبير من أولئك البدو القاطنين في الخيام السود المحيطة بتدمر ، وهذا ما سبب قشعريرة سرت في جسدي وتعالى قرع الدربكة ، فانشددت إليها وكأني مربوطة اليها بحبل لا فكاك منه .

★ أمضيت نهاراً طويلاً وشاقاً وسط قوات النبّالة وكنت أنتقل من مجموعة الى أخرى ، أقاسمهم طعامهم ، وأراقب توزيع الدخول العالية لهم ، وأضع الميداليات على أشجعهم ، فهي مكافأة عرق جبين الرجال والجياد ، وأثناءها عاد زبّاي الى تدمر ، لينال نصيبه من كل ذلك . ولقد توقفت أمام القبيلة التي يقودها ، ونظرت إليه مطولاً ، معبرة له عن اهتمام خاص له ، وللعدد الصغير من البدو الذين اصطفوا خلفه ، لأن غالبيتهم قد قتل في معارك المقدمة ، وكان لهم الفضل ، في بث الرعب في قلوب الفرس ، ودفع بالبقية الى النجاة بأرواحهم .

كان فرسان قبيلة زبّاي على ظهور النوق في مستوى من النظام والإنضباط ، والعنفوان ولابد أن رؤيتهم كانت ستسر أياً يكن من ضباط قادة الفرق الرومانية ، وأما لباسهم الموحد ، فيؤكد سلطة ذلك الذي بالكاد قد برء من مرض شديد ألم به وعاد ليقود زمام الأحياء فهم بعد أن فقد معظمهم في ساحات الوغى/ أمرت بمضاعفة حصصهم من الذهب والفضة وقدمت الى قائدهم زبّاي خنجراً دمشقياً بيد منقوشة من الذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة ، فأضاءت وجهه ابتسامة طفولية ، لم أرها من قبل .

وقام بدوره ، برمي سلاحه الذي يحمله على حزامه أرضاً ، ووضع مكانه ذاك الذي قدمته له . وعاد فاستقام على فرسه السورية ، بكل عنفوان ، فصفق له الجميع وفي تلك اللحظة ، اجتاحتني رغبة ملحّة لضمه الى صدري . . . .

وقبل مغادرتي لمعسكرهم ، قمت بتوجيه خطاب الى رؤوساء القبائل ، لأقول لهم ، أنه بعد اختراقهم المدينة ، عليهم المغادرة الى الصحراء ، حيث تنتظرهم نسائهم ، وأطفالهم ، وقطعان مواشيهم ، وأضفت أن هناك جائزة ضخمة من الذهب ، ستعطى لكل من يقرر الإنخراط في الجيش التدمري الدائم ، والذي قررت إنشاءه لإستبداله بمجموعات القتال المؤقتة التي شكّلها أوذينة البارحة لأجل العمليات الحربية التي هي بدون غد .

★ لطالما ، أحب سكان تدمر ، الزي الرسمي ، وعندما كانوا يسمعون صداح أبواق فرقة فلاڤيا يهرعون جماعات الى شارع الأعمدة الكبيرة لإبداء أعجابهم بزي العسكر . أما ، أنا ، زنوبيا فكنت أعتبر هذه المشاهدة من السخف بمكان . رؤية رجال يضربون الأرض بإيقاع رتيب ، ويقومون بحركات كبرى بالسيوف .

كنت أراقب بمتعة خجلة فاتحي الطريق ، حاملي الفؤوس ، ومحامي الشعب ، ممتطياً صهوة حصانة يتبعه حراسه الشخصيون . والنسر الذهبي ممسوحاً بحامل الراية ، والموسيقيون بوجناتهم المنفوخة متبوعين بستة آلاف رجل ، يدوسون على ذات القدم ضمن قافلة طويلة وبدون أن يخمن أحد مواقع الضعف ، فإن تدمر لطالما ، شعشعت بهذا النوع من الاحتفالات . وفي هذه المرة ، أصابتها الخيبة بالكتلة غير المنتظمة والصاخبة لفرساني الفوضويين والمتدافعين للظهور أكثر من كونهم محجوبين بنظام المسير الروماني العسكري . كان ينقصهم الدروع والتروس والخوذ ، والرماح ، وصداح الأبواق ، وإيضاحات القيادة ، والوجه الاحتفالي للجنرال والنظرة الحمقاء لقواد العشرة الرومانيين ، وكل ما يوحي بالإعتقاد أمام الشعب بأنه جيش لا يقهر . وبدون أن أجهل الشعائر العسكرية ، فلقد كنت بحاجة إلى مقاتلين . وكنت عالمة بحال فرساني البداوة ، من أنهم لا يمكنهم تقبّل قوانين الأنظمة المفروضة على القوات الرومانية .

★ عندما علم من أعضاء مجلس الشيوخ بأن أكثر من عشرة آلاف فارس قد قرروا الإنضواء آنياً في جيش تدمر ، فقد أسرّوا لي بقلقهم لرؤيتهم لهذا العدد الكبير المهتاج المقيم في محيط مدينتهم ، والقادرين عند أية ذريعة أن ينهبوا المحال

والمستودعات ، فالتجار يحبون جنودي «الساراسيين« بدون شك ، ولكنهم يعتقدون أن الماكينة الرومانية أكثر ضماناً لهم ، وأشد أماناً على متاعهم . ولتهدئة مخاوفهم فقد كان لزاماً على أن ألقي محاضرة تتلخص بأن :

«جنود الفرقة السادسة عشرة الرومانية ، لن يعودوا إلى ثكناتهم في تدمر ، فالقلاع المتقدمة للانذار المبكر ، المقامة على ضفاف الفرات قد تم نزعّها من سورية وأن ثلثي هذه القوات قد أرسل الى الحدود الدانوبية ، وأن الإمبراطور قد أعلمني بأنه يعترف بـ«وهب اللات» الوريث الشرعي الوحيد لأوذينة ، وأن الشعب ومجلس الشيوخ الروماني قد اعترفوا ووثقوا بنا ، لنشر النظام في المقاطعات الشرقية الرومانية . فبأي قوة يمكننا ملء هذا الفراغ الروماني ، وإتمام المهمة الملقاة على عاتقنا ، إلا بجيشنا الخاص بنا ؟ فالنظام . لا يتضائل الى حدود الحفاظ على أمن الأزمة والشوارع وضمان سلامة المواطنين ، وجمع الضرائب ونزع فتيل الفوضى ، وحماية المحال التجارية وفرض احترام أعضاء مجلس الشيوخ ، بل ، حماية حدود المملكة ، وتواجد القوات في جميع المناطق والبقاع التي يحاول فيها الفرس ، الإستفادة من غياب قوة رادعة أمامهم ، وهذا ما سيغريهم لاحقاً لتهديد روما .

★ إن أميراً ، يثير موضوع حماية الحدود يجد دائماً أذناً صاغية ، من أولئك الذين لديهم ممتلكات يخافون عليها ، ولذلك فهم على استعداد لتشجسع المدافعين عن الوطن .

ولقد قلت بأن الترتيبات التي اعتمدت اتخاذها تتوضح في أن تبقى قوات من المليشيا المحلية لحماية المدينة ، بينما تتوضع أجنحة القوات من الفرسان على طول الفرات ضمن المعسكرات التي غادرها الرومان . بينما يتولى قيادة القوات زعماء شباب ، أكثرهم ممن خاض غمار الحروب تحت لواء أوذينة ، وسيكون رئيسهم المباشر والأوحد «زبّاي» ، كقائد عام .

أما زنوبيا ، فإنني سأشارك في قيادة الجيش العليا للجيش التدمري ، وبموافقة القيصر . ولقد عزمت على طلب الكثير من النصائح من أعضاء مجلس الشيوخ كي لا أضطر لإتباع آراء الجميع ، ولقد أنهيت حديثي بالطلب إليهم أن ينجدوا والدة ملكهم ، كما ساعدوا في السابق والده ، ووالدي ، فإن في سعة

حلمهم وحكمتهم خير معين لي في قِصَرِ خبرتي وسنيِّ الفتية . ولكن قولي لم يسحرهم لشدة إعتزازهم بأنفسهم ، وقوة ذكائهم ، فمنعهم من السقوط في شراكي ، ولهذا ابتسموا ، عندما لفظت جملتي الأخيرة . ولكنهم . انسحبوا راضين ، وبذات الوقت مطمئنين ، وواثقين ، عندما أوكلت إليهم العناية بالسلطة على التسّلح وتجهيز الجنود .

ـ ولأن لساني لم يتلعثم عندما أعلنت حول اعتزامي استلامي السلطة وقيادة الجيش باسم القيصر ؟ فقد كان ذلك يعني السير على خطى أوذينة والقبول بأكثر الأمور التي نفرت منها ، وخيانة الكراهية التي جعلت مني ما كنت عليه ومن أجل أن تبقىٰ ملكة تدمر مخلصة لزنوبيا كان عليّ أن أكسب الوقت الضروري لتشكيل جيش في الظل ، لأعلن من خلاله بعد ذلك استقلالنا . أما موت ملكي العجوز فلم أتوقعه بهذه السرعة ، وفجائيته ، قادتني الى غش لا مفر منه ، كانت تدعوني للثورة بالأمس . ولقد فهمت رسالة القيصر ، على أثر وفاة زوجي بأن الدفاع عن إراضي ومقاطعات الامبراطورية في المشرق ، معناه تدميرها في الوقت المناسب ولسوف ينتقم فرساني من جميع الإهانات التي لحقت بنا . «بالأمس كنا محميّين ، وأصبحنا اليوم من المدافعين والحماة عن الامبراطورية .»

● تركت مهمة اختيار قادة الجيش لـزبّاي ، وسيتقدمون الى القصر في اليوم التالي للموكب الذي طالما أقضَّ مضاجع تجار تدمر .

وحانت اللحظة ، فخرجت الى الجموع بثوب أبيض مطرز بزهور حمراء ، ومزينة بالجواهر الكريمة وكنت أمسك بيدي اليمنى ولدي وهب ـ اللات الذي بدا مضطرباً . وكان أول من تقدم نحو ولدي زبّاي ، الذي قبَّل كتفه الأيمن ، فأستحسن البقية عمله . وفهمت حركتهم ، فهم يعترفون بسلطتي المؤقته ، ريثما ، يبلغ وهب ـ اللات أشده ، ليعترفوا به ملكاًأوحد لتدمر . كـان الخنجر يلمع في خاصرة زبّاي ، بينما احتقر الآخرون الأساور التي قدمتها لهم كهدايا . فلم يرتدوها . ولقد فهموا هديتي كرمز للقيادة لا للخنوع ، والكسب ، لا الخسارة ، والحرب ، لا الشغل ، والجرأة لا الروتين ، انهم سيكونون حرّاس قوانين تدمر .

● كانت الشهور الأولى لحكمي مليئة بالعمل والمشقة فكل يوم ، كان **«وورود»**يزورني لحل الأمور الإدارية . أما الملك سابور فقد أعلمني برسالة منه ، بأن طريق القوافل الى الخليج مفتوح وآمن ، وأنني لست مسؤولة عن الاهانات التي وجهها أوذينة إليه وبالرغم من دفع الغوط والسيت نحو الحدود الدانوبية ، فإن سماسرتنا كانوا يجدون ما يكفي من المعدن في روما ، ويبيعوا الحرير بسعر مناسب ، والبورسلين والبهار ، وفي الصباح الباكر . قفزت على حصاني متبوعة ببعض النبّالة ، وذهبت للإستماع الى الدروس الملقاة في معهد التعليم . كانت آمالي معلقة بـ لونجان ، لإعطائه إدارة المعهد حيث كانت واجهته مزينة باسم **«أوليموس»** . وسرعان ، ما يكون بمقدور الأينع شباباً الدخول بخدمة الدولة ، ومساعدة أهلهم في إدارة الأعمال ، أو أن يصبحوا ضباطاً ، ومن المعهد ، كنت أتوجه غالباً الى معسكر تدريب الميليشيا . وكنت أستقبل بحماس ، يروق لي ، وكان هناك دائماً رئيس ، يقوم بالتفتيش على تدريب الضباط بشكل فجائي ، هذا الجيش الذي كثيراً ما حلمت به من أجل تدمر ، كان الجميع يدعونه بـ «جيش زنوبيا» .

هذا الايم الذي كان يدغدغ في داخلي مشاعر الغبطة والفرح ، ولكنه بنفس الوقت كان يتصاحب بقلق غامض ، وسرعان ما تخرجت الدفعة الأولى كانت مؤلفة من عشرة سرايا ، تحت قيادة زبّاي ، وطلبت من الأخير ، سد النقص في عدد مساعدي الضباط ، وتطبيق بعضٍ من الطرق العسكرية الرومانية في التدريب، التي أثبتت فاعليتها في المعارك وخلال ذلك ، اختفى الهمس من خلال صفوف القوات وأدركت بأن الخشية إنعدمت والفضل بذلك للقائد زبّاي الذي يستحق أن يخشى جانبه .

* وخلال فترة حكمي الأولى ، ترددت شائعات بأن الإمبراطور **«ڤاليريان»** السجين في **«إديس»**قد قتله الملك **«سابور»** وصبغ جثته باللون الأحمر قبل أن يعلقه بالمسامير في سقف إحدى غرف قصره في **طيسفون** .

وسواء أكان الخبر ، حقيقة أم كذباً . فإن ذلك قد وضعني في حالة إضطراب شديد ، وكان الأمر المعطى من قبل زبّاي بقطع قدمي من يبقى حياً من الأعداء

بعد المعركة أقل عنفاً من أوامر سابور بتقشير جثث الموتى : فأنا لا أحب تشويه الموتى . وعبر النبأ أراضي الإمبراطورية فأثار الغضب الشديد في روما ، ما عدا المسيحيين الذين رأوا في سابور الأداة المختارة من لدن الله لمعاقبة القيصر ، على أفعاله في تقديم أعداد من المؤمنين كطعام للحيوانات الشرسة ورأى غاليان بذلك عودة الى الحروب ضد فارس ، بعد توقف الحرب ضد الغوط ، ووفاة أوذينة . وتلقى القائد هيراقليان رسالة من الحاكم . يأمره فيها بالرحيل الى المشرق ، وتشكيل جيش جديد برئاسته . وكانت المراسلات السرية منها والعلنية المتبادلة بين تدمر وطيسفون ، قد وضعت المقدمات لمعاهدة تحالف ، كنت قد حكمت على ضرورتها لأجل سلامة تجارة قوافلنا ، ولكنها تتعارض مع نوعية صداقتي وتحالفي للشعب الروماني .

وكان «وورود» يعتقد وهو الرجل الحريص المحترم ، بأن منفعة تدمر تكمن في الحفاظ على توازن عادل ما بين القيصر «وسابور» وذلك لأن الجغرافية قد وضعتنا ما بين خليج بلاد الرافدين والبحر الداخلي . بينما كانت سعادة «زبّاي»غامرة ، للرحيل الى ساحات الوغى مع فرسانه الذين نفذ صبرهم . وكان يرفض أن يخضع لأوامر القيادة العليا الرومانية .

* وبدون أن أدخل الشك الى قلب الجنرال هيراقليان ، فقد سحبني من ارتباكي ، عندما أعلن عن اعجابه بالمنحوتات الرسمية ، لابسي الدروع ، والخوذة فوق الرأس المعبرة عن النبل ، والثقة بالنفس . ومنذ لقائنا الأول ، بدى لي مهموماً ، وأنه ، لم يجازف بمهنته في عمل أخرق . ولم أتوانى عن إعلامه بأن سابور قد شّكل جيشاً قادراً على هزيمته عشرة جيوش ، بينما لا يزال سكان تدمر ، يضمدون جراح أبنائهم ، ولا يزالون يبكون وفاة ملكهم ، وأضفت بأن فرساننا غير متعلمين ، وثقتهم قليلة بأنفسهم ، ومن الصعب قيادتهم ، ولذلك لا يمكن استخدامهم إلا لملاحقة فلول الهاربين ، وعمليات قطع الطرق . وكان دور «هيراقليان» في الفرق ضمن برهان ذو حدين ، حيث يكره الخصم فيه على اختيار واحد من بديلين كلاهما في مصلحته فجعل الأجنحة تعاني من كارثة جديدة يعني وضع حد لسباقه إلى ألقاب الشرف ، ومخالفة أوامر الإمبراطور ، يعني الخطر على حياته المهنية وحياته الخاصة ، والجنرال لا يريد هذا ولا ذاك .

فبدأت ، وقطعت ، وعادت بحضور «وورود» و«زبّاي» ، وقد استمرت لقاءاتنا لمدة شهرين . وأخيراً اقتنع ، بأن الفرقة «فيرتا السادسة» ستستقر في سورية ، وستقوم بالإغارة من الطرف الآخر للفرات ، ضمن منطقة لم يشاهد فيها جندي فارسي واحد ، واتفقنا على أن تساند الفرقة ، جناح واحد من فرساننا ، مدعم بألفين من نبّالتنا . وغادرنا «هيراقليان»بعد ذلك . وعمد «وورود»الى ارسال مبعوث الى «سابور»يعلمه فيها بالإتفاق الذي تم بيننا . وأعطيت شخصياً الأمر إلى قواتي بالإبتعاد عن أية معركة قد تنشب مستقبلاً بين الطرفين وبعد عدة أسابيع علمت بإغتيال «غاليان» .

وعندما علمت باسم ذلك الذي سلّح يد القاتل ، لم أدهش للأمر . وأقامت فرقة «فيرتا السادسة»في انطاكية وعاد هيراقليان الى روما ، وأعلن نبأ اعتلاء عرش الامبراطورية «الامبراطور كلود» ، وتقرر حل جيش المشرق ، الذي خشية كثيراً «وورود»وبقي في انطاكية بعض القوات الإحتياطية الـتي يقودها عدد من قواد العشرة وكانوا جميعهم من العجائز ، فاقاموا في بعض الثكنات في ضواحي انطاكية ، لتبقى اسمياً لا فعلياً بقاء سورية كمقاطعة من المقاطعات الامبراطورية .

سارعت لإرسال زبّاي الى انطاكية عندما طلب مني بعض الأهالي الإسراع جدتهم لإنقاذ حياتهم وأموالهم . وكنت في عملي هذا أملىء فراغاً أمنياً وعسكرياً سلفه انسحاب القوات الرومانية ، وأقطع دابر القوى الأخرى ، للحلول محل قواتي . فسابور يعرف جيداً الطرق الواصلة ما بين الفرات والعاصي ، كان استقبال السكان لقواتي والتي دعوها بـ«قوات الملكة زنوبيا»استقبالاً حافلاً ، فهم العارفون بجشع وخطورة القوى الاخرى ، بينما كان حكمهم على قواتي بأنها أقل خطراً عليهم وأقرب اليهم لعلاقات القربى واللغة الواحدة . ولم ألحق بزبّاي إلا عشرين يوماً من دخوله انطاكية ، حتى أفسح المجال أمامه للقيام بالتنظيفات الأمنية في الشوارع وأزقة انطاكية ، ولقد أثبت زبّاي أنه قائد ذكي ، وعبقرى فذ .

وعندما دخلت الى شوارع انطاكية ، كنت أرتدي ثوباً أرجوانياً وقد كشف عن ساعدي الأعين لأستطيع استخدامه في الرد على تحيات الجماهير ، وكان فراش جوادي مزيناً بقطع من العاج المنحوت ، والذهب وقد علقت على كتفي الأيسر

قطعة من الجواهر الكريمة لربط قطع ثوبي ، ووضعت على رأسي تاجاً من الغار .
وكنت أمسك بيد ولدي وهو على ظهر جواده «وهب ـ اللات»وكنَت قد منحته لقب «حاكم الشرق بأكمله» كانت يده معرورقة وباردة . وكان زبّاي يسير خلفي وهو يلوح للجماهير التي اصطفت على جانبي الشارع الكبير ، وهو شارع الأعمدة وقد بلغ ارتفاعها أربعة أمثال ارتفاع أعمدة تدمر ، بينما أحاطتني كوكبة من فرساني الذين كانوا مستعدين لدرء أي خطر طارىء علي وعلى ولدي بنظراتهم أكثر من حسامهم . وكان في مؤخرة الجميع رتل طويل من النبّالة على جيادهم السورية القوية .

لم أدخل لانطاكية لألعب دور كوميديا جنرال يتنزه داخل مدينة غزاها بجيشه . أما الدور الذي أنوي أن ألعبه فكان أكثر ذكاءً . فزبّاي وجنوده ، كانوا يتخيلّون بدون شك أن حضور ملكة تدمر ، وتواجد قواتها ، سبب كافٍ لجمع سكان انطاكية حولنا ، ولكني ، أنا كنت أعرف بأن وزن ، وبريق قوتي ، لا أزال أستمده من روما . ومن الحكمة أن ألعب دور الحامي والمدافع قبل أن ألعب دور المنتصر .

وأسرع القنصل بالسفر إلى روما بناءً على أوامر مجلس الشيوخ . وفي يوم وصولي سارع كبار الموظفين ، وجباة الضرائب ، للإحتفاء بي ، وتقديم تهانيهم الحارة وهؤلاء المعتادين على أساليب المكر والخديعة جراء السياسة الإمبراطورية يعلمون طرق الإنحناء دون الإبتسام أمام الأمراء وهم الذين عاشوا ووافقوا على وهم الاستقلال المؤقت ، ولقد أعطوني ولائهم . هؤلاء الذين تعرضوا لغزوات كثيرة ، لم يترددوا في التظاهر لتحيتي ورؤيتي كوريث شرعي لكبار الأميرات السوريات .

لم أستطيع النوم في ليلتي الأولى التي أمضيها في انطاكية ، داخل القصر الامبراطوري المزيّن في جهته بنسر ذهبي باسطاً جناحيه .

ولم أغفو إلا عندما أشرق الصباح ، وكنت كولدي الذي أصابه الرعب لصرخات الجماهير ، فلقد أحسست بالضيق في هذه المدينة ، التي تختلط فيها أشكال الوجوه ، وتحبك في خبايا جنباتها المؤامرات السرية ، وأوذينة المعلم في فن الخديعة ، لا تقارن شراكة إلا بلعب الأطفال ، اذا ما قيست بما يحاك في ممرات

انطاكية تحت الأرضية ولا أدري أية بدوية جِذْره ، نصحتني في لحظة ما ، بترك بعض الأولوية هنا والمغادرة إلى تدمر ، الى بلدي ، حيث أستطيع وضع اسم على عدد من الوجوه ، كانت مصنفة على أنها تحب زنوبيا وأنا أيضاً ، كانت لدي نقاط ضعف ، ولكنها استمرت لبعض الوقت . واستقر تفكيري أخيراً على متابعة تنفيذ خطتي وهي احتلال كل الاراضي وبسرعة ، ونشر الرعب في الجيوش الرومانية بواسطة نبّالتي ، وأما السجون التي ملأها زبّاي ، فلن أفتحها إلا بعد مدة طويلة ، ليعرف الجميع أن عفو زنوبيا يفوق عفو القيصر بعد ذلك هدأت ، وغفوت أخيراً .

● حول سريري ، كانت عشرة فتيان ينظرن إلى منتظرين صحوتي ، وكن يرتدين غلالة بيضاء شفافة ، لقد كن ذات الفتيات اللاتي ساعدن زوجة القنصل الروماني ، وبعد ذلك ساعدوني في الجلوس على السرير ، وألبسنني ثيابي ، وقدنني إلى صالة ذات أرضية من الموزائيك الأخضر والذهبي ، حيث كانت تفوح من حماماتها الفضية المليئة بالماء المعطر ، أبخرة الماء الدافئة . ولقد أحببت دائماً التأخر في تزيين نفسي ، وجسدي الذي أعلم جيداً ، بأنه رائع ، ولم أسمح لأحد مطلقاً بالاعتناء ببدني ما عدا ذاتي . إلا أنني كنت أسمح للعجوز مباركة من آونة إلى أخرى في مساعدة «زبيدة» بحمامها .

وهذا الصباح كانت مفاجئتي عندما أرادت الفتيات السوريات ، خلع ملالتي . شعرت بالإحمرار ، يسّخن وجهي ، وأجبن على ذلك بضحكات ولم أرد أن أظهر كبدوية مغلقة داخل خيمتها ، فلقد تركت الأمر لهن . وعندما أصبحت في بركة الماء ، خلعن ملابسهن وغطسن معي ، وشكلن حولي دائرة وهن يضحكن ، ثم بدأن في الغناء لي . لم أتذمر ، فإني لم أكن الملكة زنوبيا ملكة تدمر ، فقد إكتشفت متعة الشباب في الرقص والضحك لأجل لا شيء .

ـ بقيت في إنطاكية لعدة أشهر . ومن القصر الإمبراطوري كنت أطل على معالم المدينة ، حيث أن سطح القصر كان يكشف عن جبل «سيلبيوس» حتى ضفاف نهر العاصي . وكنت استمتع بالنظر إلى الحدائق المعلقة ، بأحجارها الرخامية التي بدت وكأنها نضجت تحت أشعة الشمس . وفي داخل الأسوار ، كان

الرسم يظهر تاجاً عظيماً مزخرفاً ، يعيش في داخله ما يقرب من المليون من البشر الأغنياء أو التعساء المثقفين أو الجهلة . وبإمكاني أن أثنيهم بدوري تحت قانوني . وفي كل مساء ، كنت أسمع همسات المدينة المتدحرجة ، ممزوجة بأنّات النواعير وأزيزها . كـان الهواء المنعش الذي رفع ثوبي ، قد هبط إلى وادي العاصي وكان آتياً من البحر الداخلي . هذه الصحراء المائية التي إنتصر فيها الأبطال «الميسينيين» على المخلوقات العجائبية . كان منظره رائعاً ، فشعرت بعدم الأمان على سطحه الغامض عكس الأرض القاسية الصلبة ، ولقد فضلت أن أوكل مصيري لأقدام ناقتي «البيداء» عن ألواح الخشب المثبتة بمسامير . هذه الخشية من البحر ، مرتبطة بقصة كنت قد سمعتها وأنا لا أزال صغيرة في منزلي بتدمر عندما سمعت بغرق سفن البضائع . آنذاك صعدت إلى سطح منزلنا ، ونظرت إلى تدمر فرأيتها مدينة صغيرة معزولة ، تقاوم ملوك الشر ، فمرة سابور ، وأخرى القيصر ، وإستفقت من ذكرياتي على هبة نسيم قلبت أوراق كتاب دراستي القديم ، لأسمع وورود يعلن لي عن قدوم مسافر سوري من الإسكندرية ومقيم في مصر ، ويدعى «فيرموس» .

هذا الـ «فيرموس» كنت قد سمعت باسمه يتردد على لسان والدي ، وأوذينة ، فكيف وصل إلى هذه القوة المالية ؟ لقـد ولد فيرموس في إنطاكية ، ويرتبط مع «وورود» بأواصر صداقة وعلاقة تجارة وأعمال . ولقد بدأ حياته المهنية من تسهيل بيع البضائع ، كـان يقبض لقاء ذلك أجراً ، فجمع ثروة من هذه الأعمال الحقيرة حتى إنتهى به الأمر الى الدخول في مشاريع تجارية كبيرة ، يتخللها الكثير من الفساد الإداري والمالي . وتعرف بعد ذلك على تاجر إغريقي ، أقنعة بالسفر معه إلى مصر وأن يصبحا شريكين في الأعمال التجارية . وبعد عدة سنوات ، أستطاع «فيرموس» أن يوجّه نحو «أوستي» زورقة الأول المليء بالقمح . ولقد كان أكثر شباباً من «وورود» وبدون شك أغنى منه مالاً ، ورسائله الممهورة بخاتمه معترف بها في جميع المدن التجارية . وأما سفنه ، فإنها تمخر عباب البحار . وهو لا يجيد الكتابة إلا أنه يجيد حساب الأرقام . وصديق للحكام والضباط ، حيث يزودهم بالقمح لتزويد حاجات جنودهم منه ، وبإختصار فهو يتاجر بكل شيء ، وقد أتى إنطاكية للقاء «وورود» .

● لقد شدتني قصة هذه المغامر السوري : وحملتني على رسم صورة كاملة لمواطني الامبراطورية الرومانية وأكدت يقيني بأننا نحن فقط المسؤولون عن قدرنا . لقـد كان مقتنعاً بأنه لن يفوت هذه المناسبة دون لقاء ملكة تدمر ، ولهذا طلبت مقابلته للتعرف عليه .

وفاجئني شكله . فلقد كبرت وسط التجار وأعضاء مجلس الشيوخ ، ورجال المال ، وهم متشابهون جميعهم إن لم يكن بالوجه فعلى أقل تقدير بالحركة ، وبساطة الثياب ، وبطء المسير ، وطريقة التعابير بلحن خطير بما يتناسب مع رجال المال ، ولكن هذا الشخص لم يكن يشبه إلا نفسه . كثيف الشعر ، أسمر البشرة ، وعيناه الواسعتان مليئتان بالضحك ، ثخين الشفاه ، ويداه الكبيرتان ممتلئتان بأصابع مغطاة بالخواتم ، كان هناك شيئاً ما فيه ، يدفعني ، وبدون شك فإنها خساسته ودنائته ، ومما شدّني إليه توحشه . كان فيرموس يرشح بالذهب ، ولكن لا أكثر أو أقل من بقية الرجال الجدد ، الذين لم يسعفهم الوقت بالتأقلم مع المعدن اليومي . ولقد تذكرت العجوز أوذينة ، فما الفرق بين الإثنين ؟

لقد قبلت الزواج بأوذينة ، من أجل هدف واحد ألا وهو السعي لاستقلال تدمر .

● بدأت مباحثاتنا بعد ظهيرة أحد الأيام ، واستمرت حتى هبوط الليل . وعادت لتستمر في صبيحة اليوم التالي . وعلمت أن **«وورود» و فيرموس»** شريكان منذ أكثر من عشر سنوات ، وتوصل الاثنان الى تأسيس شبكة مراسلات ما بين تدمر ، والاسكندرية وانطاكية لتأمين أعمالهم وسرعة إنجازها ، وانتظامها . وعندما يكون طريق الفرات حراً ، فإن البضائع تفرغ في داخل الخليج الرافدي . وتنقل بعد ذلك بالقوافل الى تدمر . ولأجل حفنة من رجال سابور ، قاموا باجتياز النهر ، فقد هددوا أمن وسلامة الصحراء وكانت بضائع الشريكين هي الوحيدة التي نجحت فقد أعاد الشريكان تحميلها على ظهر السفن وعادت السفن عن طريق البحر الأحمر الى ميناء الاسكندرية حيث بيعت هناك ، بينما بقيت بضائع تجار تدمر محجوزة في الخليج بانتظار اليوم المناسب ، أو ربما الاختفاء .

● وكثيراً ما سمعت ملامة والدي ، نتيجة إغلاق الطريق الذي يربط

ما بين الخليج الرافدي والبحر الداخلي بسبب الحروب التي لم تتوقف بين روما وفارس .

● وطرح الجانبين عليّ المشاكل الناشئة عن هكذا وضع مضطرب وانعكاساته السلبية على المواطنين السوريين ، أما الآن وقد تبدل الوضع السياسي برحيل الجيوش الرومانية والصلح المنعقد مع سابور وتشكيل جيش عربي الهوى والهدف ، ترى الى ماذا يرميان هذان الشريكان ؟

كانا يزنان بعض الكلمات ، ويؤكدان على كلمات اخرى ، ويقطعان جملهما بصمت طؤيل ، وبابتسامة غامضة ، كان كل منهما يلعب دوره بإحكام . وكنت أستمتع بترددهما وأُخيراً نطقّ «وورود» :

«فيما لو أقامت ملكة تدمر غداً في الاسكندرية كما فعلت في احتلالها لإنطاكية ، فإنها ستصبح ليس فقط سيدة أكبر تجارة مع الهند والأبيسيني ، ولكنها ستضع يدها على أهم مخزن غلال لروما ، وسيصبح القيصر تحت رحمتها» .

كان لحن صوته متماسكاً ، وبدون أن يظهر في عينيه أي بريق . فقد إستمعت لهما دون أن أبدي مفاجئتي . فأنا أعرف كيف ألعب دوري جيداً أيضاً وهي المهنة الأولىٰ لرئيس الدولة . وكنت أعرف جيداً هشاشة القوة السياسية إذا ما قورنت بثبات ورسوخ القدرة المالية . ولكني لم أشك مطلقاً بأن أفكار وورود قد لقحت أفكاري .

● وامتلاك مصر ، لهي عمل رئيسي وهام لضمان طرق التجارة مع الشرق الأقصى ، أما هذه الأفكار فلم تهزني يوماً . بل كانت تبدو لي منطقية جداً . وأنا أعلم أن البضائع المنقولة بقوافلنا ما بين انطاكية والاسكندرية ، تخضع لضرائب ثابتة يوفرها جباة الضرائب الرومان وحدهم .

وكان يكفيني ان ألقي ببعض منهم في غياهب السجون ، ولكن ما الذي سيحدث بعد ذلك ؟ خاصة وأن روما لها جيوش هامة في الاسكندرية . أما فيرموس التاجر السوري وأعوانه ، فكان جزء من عملهم يتعلق بجمع المعلومات التجارية الهامة لهم . وبالتالي الهامة للجميع . ولهذا فقد وضع خطة :

أولاً : ان هناك فرقة واحدة ترابض في مصر وهي فرقة «تراجانا الثانية» . وأضيف إليها ، لوائين اضافيين ، ولكن فيرموس أكد بحكم معلوماته ومدة إقامته

الطويلة في مصر أن هذه الألوية لن تصمد أبداً إذا ما هوجمت مباغتة ، من قبل الخيّالة التدمريين .

وقبل أن تلتحق عناصر اخرى بالمعركة ، فإن شعب الاسكندرية سيساند قوة النبّالة الزنوبية . وسينتهي الأمر بالحاكم الى الهروب على متن أية سفينة تنتظره ، وسيكون فيرموس بسفينته هناك بانتظاره .

ولقد أرضتني حنكة ودراية هذا المواطن السوري فالحروب تكتسب بالأفكار البسيطة ورؤساء القوات الشجعان .

وأضاف فيرموس توقعاته عن عدد ونوع أسلحة الخيّالة الممكن دخولها في المعركة ، وتوضّع أمكنة عيون المياه ، ومقاييس المسافات والأدلاّء ، حيث سيوكل أمر التعرف الى الطرق الى أحد المصريين الذي خدم في إحدى الفرق العشرة الرومانيين .

وبدىٰ لي كل شيء ممكناً ، إذا ما أسندت قيادة عشرين ألفاً من خياليتي الى قيادة زبّاي ، وبقوا مخلصين لكلمتين فقط : «العنف والسرعة» .

لم أنم في تلك الليلة ، كان يبدو لي أن هناك إحتمالين لا ثالث لهما إما النجاح وإما الفشل وسأكون أنا وحدي المسؤولة عن النتائج ، ومصر ، التي أعرف جيداً ما تمثله للرومان ، لست بغافلة عن ذلك ، فهي المقاطعة المفضلة والخاصة والممنوعة على أعضاء مجلس الشيوخ ، وأما حاكمها فلا يستقي أوامره إلا من القيصر مباشرة . والحصاد فيها يتم ثلاث مرات في السنة ، ويتوجه القمح منها الى مخازن الامبراطورية مباشرة ، ويقال بأن هناك سفناً ضخمة لنقل الحبوب ، تصل إلى «أويستي» في أقل من عشرة أيام .

ولكن اذا قبلت روما ، وجودي في إنطاكية ، تحسباً لعودة الفرس الذي لا يؤمن جانبهم ، فما الذي ستفعله إزاء إحتلالي للإسكندرية ؟ إنها إهانة لعرش الإمبراطورية ، وستقع الحرب .

وعندما محصت بخطه فيرموس و«وورود» ، رأيت أن خطتهم ضيقة ، ولكني عزمت في تلك الليلة على توسيع حدود تدمر لتكون إمبراطوية منافسة للإمبراطوريتين الرومانية والفارسية . وسأزرع رايتي في «بيتيني» على حدود

البوسفور ، حيث تأتي إلى هناك من «شيروزين ومن القفقاس» سفن ثقيلة محملة بالقمح ، والسمك المدخّن والعبيد ، وتصل الى طريق القوافل الحريري . فإذا ما وسعت خطتي الحربية فستقع جميع طرق الإتصال مع الشرق البعيد وكل المنابع التي تستقي منها روما غذائها ، في يدي القوية .

لمدة بضعة أشهر أمضيتها في إنطاكية ، كنت جاهلة بالفلسفة ، ولكن المسيحيين وعلى رأسهم بولص ، جعلني أتعرف إليه . ولتمييزه دعي بـ «بولص الساموسات» ولقد مرّ بعدة مراحل ، فإخوته في الدين قد ذبحوا ، وكان يبشر بدين جديد ، وبآله واحد أحد . ولم يكن ينتقل من مكان إلى آخر إلاّ وهو مصحوب بحارس يحمل فأساً ، وممدّد على محفة ، تحيط به فتاتين جميلتين ، يدعون بأختيه بالتبني . وعند مروره بين الجماهير كانوا يحتفلون به ، ويصفقون للحيته الشقراء ولأريحيته التي كانت تخجل أعدائه . وبالنسبة لي ، لم تشكل المسائل الدينية عندي أية عقبات ، فقد كنت أجمع حولي الكهنة من مختلف الأديان والعادات التي تمارس في تدمر ، وكان إعتقادي أن لكل امرىء الحق في تقديس الآلهة التي يختارها بنفسه . ولقد أتى عدد من الرهبان والنساك الى دورا ـ أوروبوس على ضفاف الفرات وأقاموا هناك معبداً لهم بجانب المعابد الأخرى السورية ، لـم يؤثر هذا الشيء علينا أو يقلقنا . وإنني أكن إعجاباً خاصا لأولئك المسيحيين الذين دفعوا حياتهم ثمناً لرفضهم الإعتراف بالقيصر كإله ، وكانوا يرددون بأن الآله الواحد الأحد محتجب غير مرئي . وكانوا يحتقرون التوسل للإبقاء على حياتهم فكانوا يهبون أنفسهم للموت طواعية ، متبعين خطى نبيهم المصلوب ظلماً وعدواناً .

وكنت أشعر وأعتقد ، بفلسفتهم ، بأن الجسد الفاني ، لا بد أن يعود يوماً إلى روحه ، وعندما أتذكر لحظة وفاة والدي ، وجثمان أوليموس ترىٰ أين هم الآن ؟

كان بولص يوزع على الفقراء القسم الأعظم من عائداته التي يحصل عليها من كبار الأغنياء وكان يقول بأن أهم طريقة لحب الرجال والنساء هي السير على خطى المسيح بإعطاء الفقراء الخبز أو بتحطيم تمثال إحدى الآلهة الوثنية كتمثال فينوس على سبيل المثال . وكنت أقارن ما بين أشعار «هومير» وهو شاعر العذوبة

بتلك المدينة الصغيرة في جبال الجليل حيث ولد المسيح في بيت لحم يرعاه نجار هو «يوسف» ومحاطاً بأمه «ماري العذراء» حيث كان يمتلك ولدها القدرة على الشفاء . .

كنت أستمع إلى صوت بولص الصخري الذي كان يذكرني بسكان سورية الجبلية ، ورأيت ولحقت بالمسيح في مسيرته الطويلة عبر القرىٰ والحقول ، وهو يشفي المصابين بالبرص ويمسح ظلمة الليل من عيون العميان ويعيد قدرة السير إلى المشلولين ويبدل الماء إلى نبيذ ، وكنت أسمعه وهو يلعن الثروات ويدافع عن الفتيات اليافعات وعاش فقيراً بين الفقراء وتبعته في مسيرته التي كان شعارها الصفح والحب والخير والعطاء . كانت هذه القصص تشعرني بالنشوة وتسكب العسل المجهول في قلبي ، ألم يؤله الناس «أدونيس» و«أوزيرس» و«هرقل» ؟ ألم يكونوا في نظرهم آلهة ماتت وعادت إلى الحياة بعد إقامة قصيرة في الجحيم ؟ ألم ينادي «**أخناتون**» بحب الأقرباء ؟ ولكن لماذا أحببت المسيح أكثر من «أبولونيوس» الذي بشّر بالعدل والمحبة ، وأقام الصيام ، وعاش مع الفقراء ، وأوقف زحف الطاعون ، والهزات الأرضية ، وشفىٰ المرضىٰ ، وأحيا الموتى ، وادعى بأنه مرسل من العلي القدير الواحد ، الأحد . وعندما سألت بولص عن ذلك أجابني : بأن لا شيء يمنع من التفكير في الرب ، كقدرة صافية بدون بداية وبدون نهاية ، وان الاله الواحد الاحد قد أرسل في فترات مختلفة أنبياء تحمل رسالة الأمل والعفو ، والمحبة ، وأضاف بولص بأن المسيح «ع» «هو رجل ، استقرت فيه الروح الآلهية فهو لم يأت من السماء ، بل خرج من بين البشر كما خرج غيره من الرسل ، ولكنه كان أكبر منهم بفضائله ، متوجهاً نحو العلي القدير بأفعاله ، وطالباً من الجميع السير على خطاه ، ليتجردوا عن أخطائهم الدنيوية» .

وكثيراً ما استمعت إلى مطران انطاكية ، وهو يروي لي حياة السيد المسيح ، ولكني لم أكن أهتم لتلك المعارك الكلامية التي كانت تنشب بينه وبين الآخرين . وهكذا كنت قريبة من مطران إنطاكية وبولص والآخرين ، ولكني سرعان ما استدعتني مشاغل أخرى . فقد قررت مغادرة إنطاكية والعودة إلى تدمر .

إن المشاريع الهامة لمصير الوطن ، يجب أن لا يكشف النقاب عنها أمام أحد ، طالما أن نجاحها يكمن في سرّيتها . وهكذا كنت أنتظر عبور جيش بقيادة

زبّاي للحدود المصرية ، قبل أن أعلن هذا الخبر أمام مجلس شيوخ تدمر . ودهشوا لعدم استشارتهم بالأمر ، ولكنهم لم يستطيعوا ملامتي أمام الجماهير ، بل كانوا مسرورين بفتح آذانهم وإغلاق وجوههم . وكانت تعليلاتي بأن تأمين طريق بضائعنا يكمن في إستعمال طريق البحر الأحمر وقناة «تراجان» . ولكن القلق الذي كان يساورهم من القيصر ، لم يجرؤوا على البوح به . وكنت بالطبع على علم بذلك ، وعندما أعلنت أمامهم بأن جيش تدمر ، لم يدخل مصر إلاّ لإعادة النظام الروماني الذي سقط بين يدي زمرة قليلة من الأفراد . ولكن الحقيقة كان يعرفها ثلاثة فقط هم «**أنا زنوبيا**» ، و«**وورود**» ، و«**فيرموس**» . وكان هذا الأخير بفضل حنكته قد هيء لي مكيدة جعلتها ذريعة للدخول بفرساني الى الدلتا المصرية . ولم يبق عليّ إلا انتظار الخلاصة السعيدة لعمل لم أشك أبداً بنجاحه .

وكاد المشروع أن يفشل . فقد أرسل العسكري العجوز الذي لا يخضع إلا للقيصر وحده ، ويطبق أوامره بحذافيرها ، لوائه وكتيبتيه لمجابهة الجيش التدمري ، والذي اعتبر عدواً للقيصر والإمبراطورية وللشعب الروماني ، منذ أن انتهك حرمة الحدود المصرية ، واشتدت المعركة ، مما دعى زبّاي الى زج كامل قواته في المعركة . وأخيراً دخل الإسكندرية ، تحت تصفيق الجماهير ، السريعة في الإنقلاب على المهزوم ، والتصفيق للمنتصر .

وعندما وصلني النبأ إلى تدمر ، إنتظرت حتى إستلام رسالة ثانية لتؤكد الإنتصار . فقدرة فرساني كما تنبأت لها ، وإيماني بشجاعتها ، لم يؤرجح ثقتي في مصيرها الحتمي بالإنتصار . وجاءني «**وورود**» بالنبأ التأكيدي ، فأسرعت إليه وتمنيت أن يأخذني بين ذراعيه كأب حنون ، ولكنه طبع بشفتيه قبلة على كتفي الأيمن مهنأً بالانتصار . نعم ، لقد ولت فترة المراهقة ، وأصبحت ملكة ، تخضع لقوانين وأعراف لا يمكن تجاهلها أوتنحيتها ، فأنا الآن ملكة تدمر . وبالإنتصار على فرقة تراجانا الثانية ، بقي زبّاي مخلصاً لأوامري ، فقد ترك لواءً صغيراً في الإسكندرية آملاً بعودة قواته الى سورية ، ولكن الصدفة لعبت دورها ، فقد كانت السفن الرومانية راسية في المياه المصرية ، وعندما علم الحاكم الروماني بإحتلال قواتي للإسكندرية سارع الى الهرب على متن سفينة رومانية متجهاً إلى روما . وكادت قواتي أن تتجه إلى فلسطين . ولكن زبّاي أقفل عائداً الى

الاسكندرية ، ليخوض معركة ثانية قاسية ضد بقية القوات الرومانية وانتصر عليها ، وقتل قائدهم «بروباتوس» وأصبح بذلك سيد البلاد .

وعندما أنهى الرسول التدمري قصته ، وضع يده على كتف أحد الحراس وسقط مغشياً عليه من التعب والإرهاق ، وبدا لي أنني أعيش أسطورة حقيقية كما حدث لبعض الأبطال الحقيقيين . فمتسابقي «الماراتون» ، لا يقارنون بقواتي الساراسيين ، لأن الفارس منهم ، قد أنجز مسافة ثلاثين ضعفاً ما ينجزه المتسابق الاغريقي في سباق «الماراتون» ، فالطريق الواصل بين دلتا النيل والصحراء السورية ، قد قطعها الرسول التدمري على حصانه ، وكان يبدله عند كل مسافة معينة قام بتنظيمها «فيرموس» ، وجاب البلاد والعباد آناء الليل وأطراف النهار دون توقف أي انه قطع مسافة ألف ألف .

وسرعان ما تزينت تدمر بحلتها البهية ، فالسجاد والأقمشة وسعف النخيل ، قد زين المنازل وتوجه الشعب بأكمله الى المعابد ، وكأن قوة خفية تدفعه في الأحداث السعيدة أو التعيسة للتوجه اليها . وتلقيت عدة زيارات من أعضاء مجلس الشيوخ ، ليعبروا لي عن فرحهم بما قمت به من أعمال . وجعل تدمر سيدة على الاسكندرية ، وشكرتهم بالمقابل على إخلاصهم وولائهم . وفي ذات الليلة كان حولي ، لونجان الحكيم وورود ، حيث أعلنا تنصيب «فيرموس» حاكماً على مصر . وأسرعت بإرسال رسالة الى زبّاي آمره فيها بالعودة الى انطاكية بدون تأخر مع قواته ، على أن يبقى في الاسكندرية خمسة آلاف فارس . وأرسلت رسالة بذات الوقت الى الملك سابور أعلن له فيها النبأ العظيم ، وأعده بتجديد التحالف معه ، بينما لونجان فكان مؤرقاً من نتائج غضب القيصر . ونزولاً عند طلبه حررت رسالة الى الامبراطور مفادها : «قامت فتنة في مصر ، وكاد أن يستفحل أمرها ، فارتأيت ، أنا الملكة زنوبيا ، إرسال قواتي العسكرية التدمرية اليها ، لإعادة النظام إليها» .

ووافق وورورد على ذلك ، متطلعاً الى ملء خزانته كنتيجة لهذا الإنتصار وحكمتي في الحكم .

وأصابتنا الدهشة ، فمجلس الشيوخ الروماني لم يتأثر بالأحداث إلا في اليوم التالي لوصولي إلى انطاكية .

وجاء دوري لقيادة إمبراطورية ، فقد امتدت من حدود ليبيا ، حتى الفرات . وكنت الحاكمة على أهم مدينتين آهلتين بالسكان بعد روما . ملكة تدمر في أقل من سنتين ، فقد طردت القوات الرومانية بأجمعها من المقاطعات الشرقية ، وأقمت معاهدة حسن جوار مع الفرس . وكنت أردد دائماً بأن إرادة النجاح تساوي قوة الرمح المقذوف في الهواء من يد واثقة نحو هدف محدد . وعما قريب سأوجه ضربتي القاسمة إلى روما .

إذا كان غزو الاسكندرية وانطاكية ، والذي كان يؤرق لونجان ، لم يثر أية قلاقل في مجلس الشيوخ الروماني ، وأثار إعجاب الممالك المجاورة فقد تسلمت عدة رسائل تهنئة من أمراء وهدايا ، يطلبون فيها مني أن يقاتلوا تحت لوائي . وأرسلوا لذلك عدداً من المقاتلين المسلحين ليكونوا بأمرتي . وجاءني عدد من الأمراء الأغنياء والقادة الذين قاتلوا فيما مضى النسر الروماني ، وكشفوا لي عن جراحهم القديمة ، واضعين أرواحهم وثرواتهم تحت تصرفي ، ومنهم من أبدى إستعداده للتبرع بالمال والبنين . ولهذا لم أتأخر عن قبول عروض بعض المئات منهم لأنه كان علي أن أعيد تنظيم ألوية أخرى بدون تأخر .

وعادت قواتي الى أنطاكية ، ولم تبق هناك إلا لفترة إستراحة الجنود والخيل ، ولتعويض من سقط في ساحات المعارك . وأوكلت إعداد اللباس العسكري الخاص لأحد التجار السوريين من حمص . وكنت أتحرك بأقصى سرعة ممكنة . لقد كنت أخاف انطاكية المدينة ذات العشرة آلاف ماخور ، والتي من الممكن أن تبتلع نبّالتي في حاناتها الماجنة . كما ابتلعت من قبل الجيوش القيصرية ، وكنت أفكر بالجيوش الرومانية المنسحبة الى آسيا الصغرى وهي بحكم روتينها بطيئة الحركة ولهذا كان علي الإسراع بالهجوم عليهم كالصاعقة ، قبل أن يعيدوا تنظيم أنفسهم وأسوارهم ، ولذلك كان علي إحتلال «**كابادوس**» و «**بيتيني**» ويمكنني القيام بذلك بواسطة عشرين ألف فارس فقط . بينما يبقى في المؤخرة الجسم الرئيسي للجيش ، الذي كانت ترتعد له فرائص القيصر . ولذلك لم يجرؤ على التفكير بمحاولة إعادة المقاطعات الضائعة منه . وبالنسبة لآسيا الصغرى ، ليس بها جيوش إحتياطية لروما ، بل كل ما هنالك قوة من الشرطة لحماية المدن فقط .

فالحكمة تتطلب مني أن أغادر إليها . ولم يكد مجلس الشيوخ الروماني ينتهي من سماعه للشهود عما جرىٰ ، حتى كانت قوة المقدمة التدمرية ترابض على شواطىء البوسفور .

وفي انطاكية ، عدت إلى زيارة المعسكرات ، للإطلاع على حالها ، وبدا لي الوقت مناسباً لإغتنام فرصة إحتلال مصر والإنتصار الذي تحقق ضد الفرقة الرومانية الثانية ، فقمت بتوزيع الهدايا الذهبية ، والميداليات للجنود والضباط وخصصت بالثناء على الجناح الأول الذي دخل إلى الاسكندرية ، ووزعت عليهم خواتم ذهبية . فكانت القوات تصفق لي ، وتنادي بإسمي . وكنت أجد دائماً متعة خاصة في زيارتي للمعسكرات فرائحة الرجال تختلط برائحة الجياد والدواب ، وامتطيت صهوة جوادي ، وأعلنت أمام الجميع بأنني سأرافقهم إلى ما وراء جبال طوروس ، حتى «**تيان**» الواقعة في قلب «**كابادوس**» .

إن القائد لا يكون في قمة سعادته إلا وسط جيشه وقواته . واجتزت الأراضي الوعرة ، وفتحت المدن أبوابها ، وكنت أردد على مسامع السكان بأننا أتينا لنحررهم من النير الكريه للرومان . وبعد كل مسافة نقطعها ، نتوقف للإستراحة ، كانوا ينصبون خيمتي وسط المعسكر المقسم الى عدة أجنحة ، وإحداها يؤثث بالحرير الدمشقي الأحمر والذهبي ، وتزين بالسجاد وبالأرائك الفاخرة . ودعوت زبّاي ، وأركان جيشه لمشاركتي طعامي ، فضحكنا وأكلنا ، وكان كل شيء يسير كما أريد وكما خططت له .

كان هناك عشرين ألف رجل يسهرون على نومي ، وغفوت في الأمكنة التي حط فيها الاسكندر رأسه الخرافي ، وقبل الإنطلاق الى معسكر «**داريوس**» . وفي الصباح صحوت على أصوات الأبواق ، واستقبلت رسول «**وورود**» حاملاً رسالة مفادها :

«إن مجلس الشيوخ الروماني ، بقي صامتاً . وغادرت قافلة الى الخليج الرافدي ، جباية الضرائب على أكمل وجه . والقوات تتابع تدريباتها . «**ووهب - اللات**» في أحسن حال . والنظام يخيم في تدمر . وأعطيت بعد ذلك أوامري الى وزيري الخاص ، وأنهى لونجان رسالتي الى القيصر بجملة :

«إن الملكة والجيش في أحسن حال» .

وعند وصولي الى «تيان» تركت جيشي يتابع طريقه نحو أنقرة على منحدرات «غالاتي» . وما كدت أدخل تدمر ، حتى عزمت على الرحيل . لقد أردت أخيراً التعّرف على الإسكندرية ، بالرغم من قراءتي عنها في الكتب . وذلك لهدف تأكيد وتوطيد سلطتي عليها ، وترسيخ الهزيمة التي ألحقتها بفرقة تراجانا الثانية . ألم يعمد جميع من احتل مصر ، بغسل قوائم دابته بالنيل ؟ وأنا ، أيضاً ، ملكة تدمر سأغسل قوائم حصاني في مياه النيل .

حاول فيرموس أن يطلب مني تمديد إقامتي في مصر فقد كان غير منظم ، فالحكم بحاجة الى موهبة ودراية قوية ، وأمليت عليه نصائحي ، بأن يوهم المصريين ، بأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، بينما تكمن القوة الحقيقية في يد حاكمي ، وهذا بالتالي يسهل عليه كثير من الأمور . وطلبت منه أن يكون السوريون في المناصب الكبرىٰ والحساسة في الدولة ، وأن يستبق الأغريق والفرس والصقليين ، ومحاولة تسليم بقية المناصب الى العرب .

كان فيرموس ، حسب معلوماتي التي استيقتها من عيوني واتباعي في مصر ، يخلط مصالحه مع مصالح الدولة ويملأ بالتالي خزائنه بالذهب . ولكن نجاحاته التي حققها أرضتني كثيراً . وكان فيرموس يقيم في قصر الحاكم الإمبراطوري الروماني الفار .

الحرب ؟ إنها كلمة محجوزة للعسكريين فقط ، لـم تذكر في المراسلات الرسمية ولم تلفظ في الكلمات الملقاة أمام الجماهير . وبدىٰ وكأن العالم كله أراد أن يعتقد بأن ما جرىٰ في مصر ، ما هي إلا عملية للشرطة . حتى الإمبراطور «كلود» بذاته ، هنأني على وجود جيشي في مصر والمقاطعات الشرقية ، للحفاظ على النظام هناك . وعندما دخل زبّاي أنقرة ، أعلن بأنه سيستقر في المدينة التي تحمل اسم ملكته زنوبيا ، وكنت أنا بعرف الجميع ممثلة القيصر . ففي هذه المظاهر الخادعة ، يجد كل امرىء طريقاً لتصفية حساباته . وعندما بدأت الأمور تتضح ، بدا وكأن الأوضاع السياسية ستنقلب الى مرحلة الخطر .

عرفت تدمر ، في هذه الحقبة ، ازدهاراً شديداً وغنىً فاحشاً . أما فيرموس ، فقد عزز مواقعه في مصر وزبّاي لا يزال يتابع معاركه ، ونزهاته العسكرية في آسيا الصغرىٰ ، واعترفت روما ، بالنقود الذهبية التي طبعتها في انطاكية وهي تحمل

صورة ولدي وهب ـ اللات بشرط أن تحمل القطعة الذهبية على وجهها الآخر صورة القيصر . ولقد أعلمني «وورود» بهذا القرار الصادر عن مجلس شيوخ روما ، وبنفس الوقت ، وصلني نبأ وفاة الامبراطور «كلود» بعد أن أصابه الطاعون الذي ضرب بعنف منطقة «بانوني» بأكملها . وفي هذا اليوم أردت أن أعلن ، سلطتي المطلقة والكاملة على تدمر وعلى جميع الأراضي التي غزوتها . ولكن وزيري الأول أشار علي بأن قراري هذا ، سيغزو العالم بأكمله ومن الأفضل قبل الإعلان عنه ، إعلام الملك سابور به . وأشار علي أيضاً بحكمة عودة زبّاي الى انطاكية مع جيوشه لتعزيز استحكاماتها ، وإستحكامات الاسكندرية ، أما «وورود» فلم يخفي مطلقاً . بالرغم من علمي بأن قسماً كبيراً من ثروته يقطن في أقبية روما .

● عمل «السيت والغوط والطاعون»لصالح تدمر وكانت الاقمشة الحريرية ، والياقوت ، واللؤلؤ ، والاحجار الكريمة الاخرى ، والبورسلين ، والعاج ، والبهار ، وكل مدهشات الشرق تمر بين يدي تجارنا .

وهذا لم يساعدنا كثيراً في تحطيم الإمبراطورية الرومانية . ولم يسبق لتدمر ، أن أعطت ملجأ ، لهذا العدد الكبير من المهندسين ، والنحاتين ، والرسامين ، والكتبة . . . الخ وقد وصلوا من اليونان ، وساحل بحر إيجة ، والشواطىء الأسيوية وكاد أن يسبب هذا الخضم الكبير من البشر مشكلة لتدمر ، لولا أن بنيت لهم على شاطىء الفرات مدينة تحمل اسمي ، وأشرفت بنفسي على مخططاتها ، وترأست فيها الشعراء والنحاتين وأقمت مدرسة للفلسفة .

وجاء الراهب بولص ، ليستقر إلى جانبي ، فكانت صداقة بينه وبين لونجان ، وكانت النقاشات بينهم تستمر الى ما بعد منتصف الليل ، وكنت كثيراً ما أحضر الجانب الأعظم منها .

أما في قصري ، فكان الشعر ، والشعراء وموسيقى الناي ذو الثلاث ثقوب ، ولكني بقيت بداخلي زنوبيا ربيبة الصحراء وابنة التاجر التدمري عمرو .

● اجتاز الجيش التدمري حدود «بيتيني» ، ودخل مدينة «نيكوميديا» . وبقي عليه احتلال «شالسي ـ دوان» والتي حددتها لزبّاي كهدف رئيسي لإتمام مهمته في آسيا الصغرى فهي المدينة المشرفة على مضائق البوسفور ، وفيها حامية رومانية قوية ، فبإحتلالها يمكن قطع الطريق البحري لسفن القمح المحملة من

«سهول القفقاس وشيرزونيز» . ويتأمن لقوافلنا طريق الحرير ، وفتحت مدن آسيا الصغرى أبوابها أمام زبّاي ، ما عدا «شالسي ـ دوان» التي احتمى داخل أسوارها المنيعة الحراس والسكان وأقفلوا أبوابها ، نتيجة سوء تفاهم حدث بين رجالي وحراس المدينة ، وخطأ في التجهيزات العسكرية التي يتمتع بها جيشي .

وعبثاً حاول زبّاي التقدم الى الأسوار . فكانت السهام تجبره على العودة ، وبحث عن الثغور داخل الأسوار ، ولكن لم يكن بإمكانه إلا ضرب الحصار حول المدينة .

فأرسلت إليه أمراً بفك الحصار الذي لا طائل من وراءه إلا هدر الوقت والعودة بالجيش إلى انطاكية .

وجاء دوري في تحديد الأسباب وراء هذا الإخفاق العسكري .

إن الجيش الذي وجهته إلى مصر وأسيا الصغرى ، هو ذات الجيش الذي وجهه أمير تدمر ضد قوات وحشود الملك سابور ، التي انتظمت الآن في قوات نظامية . وبدون شك فإن الشجاعة والجسارة والمخاطرة العربية ، قد دبت خوف لا يحتمل في الصفوف الفارسية ، وبعد ذلك في معركة الاسكندرية ، عمد زبّاي الى نشر عشرين ألفاً من خيّالته ، مقابل ستة آلاف رجل من فرقة تراجانا الثانية وهؤلاء أقاموا أمام قواتنا جداراً من الدروع المضادة للرماح والنبال . وكانت التصفيقات التي شهدوها جنودي في آسيا الصغرى قد أقنعتهم بأنهم جيش لا يهزم .

ولكن سكان مدينة صغيرة لـ «بيتيني» قد ألحقوا الإهانة من أعلى أسوارهم بجنودي .

ولقد استخلصت النتائج فشجاعة فرساني ومهارتهم ومقاومتهم للتعب لهي من الأيجابيات ولكن حركة الخصم كانت أكثر بطءً تحت دروعهم الثقيلة ويجرون خلفهم معدات ثقيلة . فهم أقل حرية في الحركة من أتباعي ولكنهم بدون شك أقل جرأة وجسارة وهكذا بقي الرومان أفضل تسليحاً وأفضل حماية وأكثر انتظاماً . ووصلت إلى هذه الخلاصة . بالرغم من سرعتهم ومواقعهم الطبيعية في المعركة فإن خيالتي لم يعد بإمكانهم تشكيل الجيش التدمري بأنفسهم . ويجب عليّ أن أفهم وأعترف لزبّاي وضباطه بأن الضرورة تقتضي بتعليم بعض الأشخاص في الجيش

على طريقة الجيوش النظامية وتشكيل خيالة ثقيلة كتلك التي للجيش الفارسي .
وهو مشروع صعب لإنه يتطلب تغيير في الأفضليات أو الروتين العسكري المتبع .
ـ إن القوة الرومانية تتعاظم بتعاظم أعداد الجيوش . وتكمن خلف المؤسسات التعليمية والأبنية الفخمة وأعمال الكتّاب وشبكة الطرق العظيمة فسلاح الروماني يكمن بشكل أساسي في التنظيم العسكري ، وفي الفترة التي كانت تعسكر فيها فرقة فلاڤيا ـ فيرما السادسة عشر تحت أسوارنا لم يستطع أحد أفضل مني من أن يلاحظ دقة نظام قتال الفرق : وإنني أعلم بأن فرقة مينرڤا الأولى قد استقرت في ألمانية وأن فرقة جيمينا السادسة عشر الموجودة في «داسي» وفرقة فول ـ ميناتا الثانية عشر في كابا دوس وفيرتا السادسة في فلسطين وأوغوستا الثالثة في افريقيا وڤيتركس السادسة في بريطانيا . فأنا أعلم قيمتهم العسكرية ونقاط ضعفهم ولكني لا أستطيع أن أعدّ القوات العسكرية الذين ذبحوا من قبل الطموحين بعد عدة أيام فقط من ارتدائهم للباس الأرجواني . وإن استدعاء الفرق العشرى للجيش المشرقي على جناح السرعة ليزج على حدود الدانوب يمكن لها أن تعود للظهور يوماً ما في سورية ومصر ولكن بدى لي هذا الاحتمال مستحيلاً . وكان يحدث لي أن أقلق من سابور أكثر من القيصر ولكن هذا الأخير أصاب جنوده الطاعون وذَبَحهم الغوط لهذا لن يكون مستعداً للعودة إلى الاسكندرية أو إنطاكية أما ذلك الذي وقعت معه معاهدة تحالف فأنه لن يسامحني لوضع يدي على أكبر مقاطعتين رومانيتين بالرغم من كبر سنه .

إعتلىٰ عرش روما امبراطور آخر يدعى «أورليان» وجاءني «وورود» ليبوح بقلقه . فهذا الإمبراطور قد خرج من صفوف الجيش وينحدر من جبال «إليري» وقد صعد سلم الحكم بمؤهلاته وحده ، أما الجيش الذي يخشاه ويحبه بذات الوقت فقد دعاه «الحديد في اليد» وكان قريباً من الشعب أكثر ممن سبقوه ، وأعلن أنه يعتقد أن غزو المقاطعات الشرقية من قبل الجيوش التدمرية قد عزز قوة الامبراطورية الرومانية ؟

ولكن وورود كان يشك بهذا القول ، واقترح علي إرسال سفارة الى روما لإقناع الإمبراطورية ومجلس الشيوخ بقانونية فعلنا . فكيف يمكن لهذا الإمبراطور أن يرتكب خطأ جسيماً بهذا الشكل ؟

وأضاف وورود ، «إن انقضاض البربر ، لا يثقل كاهل روما فقط ، بل يشكل خطراً على مناطقنا المهددة أيضاً . فشواطىء بيتيني وبونت ، ألم تجتاحها عصابات شعب الغوط ؟ وزمر أخرى هاجمت «الدانوب» ، واكتسحت «تراس» .

ووقعت معركة حامية ، مع القوات الرومانية في «بانوني» . وهناك «الماركومان»الذين يهددوا شمال ايطاليا . فإذا دخل البربر روما فإنهم لن يكتفو بالسلب واشعال الحرائق وعصابات أخرى ستصبح سيدة بلاد الدانوب واليونان ، وستغزوا آسيا الصغرى ، وبعد ذلك سيأتي دور سورية . ولن يكون هناك من يستطيع مقاومتهم . والحكمة تقتضي ، قبل فوات الأوان من الملكة زنوبيا . إرسال أفضل فرقها للقتال الى جانب جيوش أورليان مقابل اعتراف مجلس الشيوخ الروماني بحق تدمر في احتلال انطاكية ، والاسكندرية ، ومقاطعات آسية الصغرى .

ـ واجتاحني الغضب ، فرميت وجه وورود بما وصلت إليه يدي . إنه يطلب مني أن أطوي حقدي ، وغضبي ، وصبري ، وليالي العمل والتعب ، واغتيال زوجي وهيروديان وموت مايونيوس . انه رجل مفاوضات ومال ، لقد كان يخشى وصول الغوط الى روما ، فتذهب أمواله وزبائنه أدراج الرياح ، لقد كان يرتجف خوفاً على ذهبه . ترى ، هل بإمكانه أن يدعي وجوب الدفاع عن المدينة ذات السبعة تلال ، دفاعاً عن الحضارة ؟

إن اورليان سيكون مسروراً للاسراع بدفع قواتي الى المناطق الأكثر خطراً لتذبح هناك وتتفسخ جثث فرساني على هضاب «بانوني» .

وأجبته بما يأمل ، كوني عالمة بنقاط ضعفه بأنه كلما تقدم في السن ، زادت ثروت ، وأصبح أكثر جبناً للركض حتى النهاية ، لقد خان ثقتي . ترى هل أصبح أحمقاً ، عندما تجاهل ، معاهدة التحالف مع سابور ، فعندما يعلم هذا الأخير ، بإرسال قواتي لمساعدة أورليان فسيعتبر عملي هذا تمزيقاً للمعاهدة ، وسيغزو سورية بأكملها ، وأضفت أن جنودي لا يقاتلون لحماية ذهب وورود ، الذي يكدسه في أقبية روما . بل إنني سأقودهم لمساعدة الغوط للدخول الى روما وهدمها .

ـ وفي اليوم التالي ، أعطيت الأمر ، بمسح صورة القيصر عن النقود المضروبة ، وحفر رسمي بدلاً منه . وبعث لي فيرموس من ورشات الاسكندرية ،

أول اسطوانة ذهبية جاهزة للتداول . وكانت هي المرة الأولى التي أقرأ فيها على قطعة ذهبية : «سبتيها زنوبيا ملكة» وأخيراً فإنني أمسك بيدي القدرة المطلقة ، الصلبة المشرقة .

ـ كانت هذه الإهانة الجديدة لمجلس الشيوخ الروماني التي لم يكترث لها ، وتقبلها على مضض . ولكن تسارع الاحداث في آسيا الصغرى ، جعلني أسرع في تطبيق القواعد العسكرية الرومانية والفارسية في جيشي . فمن الجيش الروماني استقيت نظام قتال الفرق وآلات الحرب ومن الجيش الفارسي ، الدور الموكل الى الخيّالة الثقيلة . وبدأت ورشات الحدادين ، والحذائين ، والجلود ، بإرسال منتجاتهم لتجهيز أولى فرقي من الخيّالة . وأرسلت بطلب انتاج وجمع الرماح والتروس وأرسل الملك سابور أعداداً من الدروع ، وواقيات الساق ، وجلوداً لحماية الخيل . إلا أن جنودي رفضوا ارتدائها بحجة أنهم يفضلون القتال والوجه عار مع الصدر ، لأن الدروع تعيق سرعة حركتهم . ولكني أقنعتهم بذلك واحداً فواحداً حتى بلغ عددهم خمسة آلاف خيّال ثقيل وبعد ذلك تضاعف العدد .

● وصل عدد جيشي الآن الى خمسين ألفاً من الرجال وقدمت انطاكية العدد الأكبر . بدفع المال . وقرر زبّاي تشكيل فرقة مقاتلين على الأقدام حيث بلغ تعدادهم ألف رجل ، كانوا يلبسون الدروع الدائرية ، ومنهم من يحمل السيف وآخرون القوس ، وكان هناك حملة الرماح ، أما معسكرهم فكان بعيداً عن تدمر ، حيث خضعوا لتدريبات قاسية في الليل والنهار . وكثيراً ما ذهبت لزيارتهم . حيث كانت خططي ، لهذه الفرقة الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه ، لاعاقة تقدم الخصم وتثبيته في نقطة معينة من ساحة المعركة ، حيث تحيط بهم بعد ذلك خيّالتي الرهيبة لإنهاء المعركة .

ـ وفي صبيحة اليوم التالي ، جاءني وورود مع لونجان لوضع خاتمي على الرسائل التي حررها في الأمس بينما أخبرني وورود بأن عصابات من «الماركومان» هبطت من جبال الألب واكتسحت سهل «بو» . واشتعل قلبي شغفاً فاللحظة المؤاتية قد دنت ، خاصة وأن سابور قد توفي ، وفي بلاد الغال ظهرت زنوبيا أخرى ضد روما هي «ڤيكتوريا» وفي موريتانيا ثارت ثائرة القبائل ضد الجند الرومان ، ولهذا سأغادر عما قريب الى «شالسي ـ دوان» وسأطلق جيشي على شواطىء

البوسفور وتراس . ولكن جنودي لم يسرعوا بما فيه الكفاية لانشاء آلات القتال الثقيلة من منجنيقات ، ودروع متحركة ، وأعمدة رأس الماعز ، وآلات أخرى ، يصعب بدونها انتزاع مدينة محصنة تطل على المضائق .

ولهذا علي الاسراع لمساعدة الغوط الماركومانيين ولكن كيف ؟ بالسلاح . سيأخذ هذا وقتاً طويلاً . إذن بالجوع وسرعان ماأرسلت أمراً الى حاكمي في مصر «فيرموس» بإيقاف جميع السفن المحملة بالقمح والمتجهة الى روما .

كان قراري الحرب المفتوحة والمعلنة على القيصر ، في لحظة حصاره من كافة الجوانب والحدود .

● إلا أن جواسيس روما في الاسكندرية قد أثارت لغطاً وهرجاً ، وقامت في المدينة جماهير غفيرة هاجمت المحال التجارية والمستودعات ، حتى تم اعتقال «فيرموس» ، الذي شنق على الفور وبدأ جيش أورليان في الزحف على آسية الصغرى ، حتى وصوله الى انطاكية ، ودارت معركة رهيبة هناك ، لمدة أيام ذهب ضحيتها الكثير من المقاتلين التدمورين فأمرت زبّاي بالإنسحاب من انطاكية والاتجاه الى حمص .

ـ كانت الاستعدادات من قبلي قد تمت على أكمل وجه ، فقلب الجيش هو الذي سيتلقي الصدمة الأولى ، وبعدها تهاجم الأجنحة من ذات اليمين واليسار لحصار الرومان ودفنهم في أرض المعركة .

وأشرق الصباح على سهول حمص ، ووقف الجيش الروماني مقابل جيشي ، حتى بدء اشارة الهجوم وكانت معركة طاحنة إستبسل فيها الجيش التدمري ، وكادت كفة المعركة أن تميل الى مصلحته ، وأنا ، الملكة زنوبيا ، أراقب ساحة المعركة من احدى التلال المطلة على صدام المقاتلين وبدأت الشمس تنتصف في كبد السماء والرجال بين كرّ وفرّ وبدأ قلب الجيش التدمري يتزعزع وحانت لحظة وصول الجناح الايمن لنجدة القلب ، إلا أنه لم يظهر إلا بعدما بدأت كفة المعركة تميل لصالح الرومان ، وكان ظهور الأجنحة مدعاة للخجل فبعد أن أبادت الاجنحة التدمرية جنبات الجيش الروماني ، هالها النصر ، علىٰ أرض المعركة وبدأت بجمع الغنائم ، الى أن فوجئت بألوية الاحتياط الرومانية التي ذبحت أكثرها ، وحاولت بيأس جمع صفوفها والاسراع نلالتحاق بالقلب وعندما أيقنت

بفضل الانسحاب ، نزعت الراية الحمراء ، لأضع بدلاً منها الراية الخضراء علامة على الانسحاب لآمر فيها زبّاي وضباطي بالانسحاب الى تدمر المحصنة .

● كان خبر الهزيمة قد سبقنا الى تدمر ، وعندما كنت على مشارف تدمر ، بدت لي مدينة مهجورة ، فلا أحد على شرفات المنازل ولم أجد أحداً في الشوارع التي بدأت وكأنها هجرت من قاطنيها ، كانت المحال مقفلة ولا صوت الا صوت الخيول ، فلا قرع الدربكة ولا الناي كان له وجود في ذلك النهار الحزين .

● استقبلني «وورود» الذي كان مخلصاً في تنفيذ أوامري ، فآلات الحرب إستكملت وجمعت ووضعت على الأسوار ، أما مستودعات القمح واللحم المدخن ، فكانت ممتلئة وعيون الماء تصب في البرك الكبيرة .

وأخترت أحد الأبراج الجنائزية الحجرية العالية التابعة لعائلتي ، كمكان لاستكشاف قدوم العدو ، ومراقبة تحركاته وسكناته .

وبعد يومين وصلت طلائع جيش أورليان ، اذن لقد قرر حصار تدمر ، ولكنه لن يستطيع فأسوارنا حصينة وحصاره سيقتل جنده من العطش وندرة الأخشاب للتدفئة ، وانعدام الماء ، الذي حوّله وورود حسب تعليماتي ليصب فقط في مدينة تدمر المحصنة .

ـ مضى على حصار تدمر اسبوعين ، والجيش الروماني بدأ ينفذ صبره من إنعدام الماء ، وندرة الحطب ، والأسوار المنيعة وعند الظهيرة وصلني نبأ بأن أورليان قد أرسل رسولاً يقف عند اسوارنا ومعه رسالة ، فأمرت بالسماح له بالدخول وكانت رسالة أورليان :

«إن استسلام الملكة زنوبيا ، سيؤمن لشعبها ومدينتها بقاء العيش وسنبقي على حياتها وحياة ولدها ، على أن تغادر تدمر في الوجهة التي نعينها لها . . .»

وطلبت لونجان بسرعة ليحرر جواباً الى أورليان وكان على الشكل التالي :

«الى أورليان ، إنني أنا الملكة زنوبيا ، ملكة الشرق ، أنصح أورليان وجيشه بالعودة سالمين الى وطنهم ، لأن ابن الملك سابور سيرسل جيشاً لمساعدتي ، وسينهك جيشك من ندرة الماء ، والاخشاب ، واللحم وسيكون مكانك ان أطلت البقاء فيه مقبرة لك ولنسركم الذهبي . . .» .

إلا أن جيش ابن الملك سابور أبيد عن بكرة أبيه بفخ نصبه له أورليان ، وهكذا استمر الحصار ولكن بدون طائل ، فالسكان كانوا يمارسون حياتهم الاعتيادية ، غير عابئين بالكلاب المحيطة بأسوارهم واثقين بجيشهم وملكتهم .

وفي احدى الامسيات دعوت زبّاي ولونجان وورود لمتابعة ما استجد من أمر ، واستقر رأيي على الذهاب بنفسي الى ابن الملك سابور لإقناعه بإرسال جيش ثان الى إنطاكية واحتلالها ، وهكذا سيجد أورليان نفسه مضطراً الى الاسراع بإتجاه انطاكية وبهذه الطريقة نحكم الطوق عليه ففي الشمال الجيش الفارسي ، وفي الجنوب الجيش التدمري ، وعلى هذا استقر الرأي .

وفي احدى الليالي المقمرة ، خرجت من إحدى أبواب المدينة السرية ومعي خمسة حراس من النبّالة الأشداء ، وانطلقت بإتجاه الفرات حيث تنتظرني هناك سفينة لتنقلني الى بلاد الفرس ، وفي طيسفون سيكون ابن سابور بإنتظاري للتداول في الأمر .

أوكلت أمر ولدي وهب اللات الى «وورود» وطلبت من مباركة التزام الصمت المطلق إزاء غيابي ريثما أعود ، وطبعت قبلة على جبين ولدي الغافي في أحلام الطفولة .

انطلقت ناقتي البيداء بسرعة كبيرة ، وقدرت المدة اللازمة للوصول الى الفرات نحو يومين لا أكثر كان حراسي من النبّالة الأشاوس ، فكانوا يرعونني كطفلة ، ويحترمونني كملكة ، كانوا يسهرون على غفوتي ، ويجمعون الحطب عند استراحتي للدفء ويصطادون لي لحم الطير لأقيم به أود جوعي وكان قد بقي على وصولنا الى الفرات نصف يوم عندما توقفنا لعرج ألم بساق ناقتي البيداء .

وانتشر النبّالة الخمسة بعيدين عني كلٌ يبحث عن الهدف الذي حددته له ، وفجأة صرخ أحدهم ، بأنه يسمع صوت حوافر جياد تعدو بإتجاهنا ! ترى ، هل يكونوا من الرومان . ولكن لا أحد يدري بمغادرتي إلا أربعة أشخاص هم : مباركة ، وورود ، وزبّاي ، ولونجان ، وأعطيت الأمر بالاسراع الى الدواب للانطلاق ولكن البيداء وقعت ، وتدحرجت على الارض بعيداً عنها فإنتشلني أحد حراسي ، ووضعني خلفه وإنطلقنا ونظرت ورائي فرأيت سحابة من الغبار في الافق وخوذ جند رومان تعكس أشعة المغيب ، وعند وصولنا الى الفرات ، كان

الجند قد طوقونا ، ودارت معركة رهيبة استبسل فيها حرسي الخاص حتى قتلوا عن آخرهم وأخذت أسيرة الى الامبراطور أورليان .

● من تدمر إلى البوسفور ، الطريق طويلة . كان «أورليان» يحث جنوده على الإسراع في الممرات والطرقات الصعبة . وكان الجنود يحتمون من حروق الشمس بواسطة دروعهم ، ويجرون أقدامهم في الرمال . ومنذ اليوم الذي أسرني فيه لم يتوجه إلي بكلمة واحدة . ترى هل كان هذا «الدانوبي» يخشى من محادثتي ، أم أنه كان يخشى جنوده ؟ وفي مرحلة «تيان» إستدعاني الى خيمته :

كان يعتمر تاجاً . للتذكير بإنتصاراته في المعارك كقائد حربي . وأمام ضباطه المحيطين به . قال لي أورليان ، وهو يمجّ غضبه ، بأنه قد غادر تدمر للسبب الوحيد الذي جعله يعطي الأمر بإنشاء معسكر حربي واسع . ومن هذا المعسكر الضخم ، ستنطلق الحملات العسكرية ضد فارس .

وفي الوقت الحاضر أراد معرفة مبادىء ونظم قوافلنا وأهمية المستودعات الموجودة في ڤولوجيزياد وشاراكس ، وحجم نقلياتنا إلى خليج بلاد النهرين ومواقع الإستراحات ، الممتدة على طول نهر الفرات . لقد فاجأتني هذه الاسئلة الدقيقة والشاملة ، وخاصة لأنها أتت من فوه رجل جاهل بتجارة الشرق . وفكرت بأن هذا العمل يفرض على روما جهازاً ضخماً من المستشارين . وإنبريت لألقي جوابي بأنه لا يوجد شخص أفضل معرفة بهذه الأمور ، من زنوبيا . وكان دور أورليان في المفاجأة .

وفي اليوم التالي ، كنت في حضرة جلالة الإمبراطور ، الذي سألني عن السر في كيفية خلقي خلال مدة زمنية قصيرة لجيش قوي إستطاع أن يقوم بالمعجزات ، وأن يقهر جيش روما الذي لا يقهر .

ونظرت حواليّ من رخاء ونعماء الإمبراطور ووحشية وجهالة جنوده ، وبلاء شعبه في فقدانهم لقيم جليلة . تحيط بنا نحن سكان المشرق العربي ، وسرت مقارنة آنية إستقيتها من معارفي لتأريخ وعادات ، وثقافات الشعوب فشتان ما بين الثرى والثريا . أنا ، زنوبيا ملكة تدمر ، سليلة الآراميين .

عاشقة الصحراء ، التي هي مستبت لنا في المحافظة على تطور شخصيتنا العربية فلا رياء ، ولا إزدراء ، بل عنفوان وأنفة وكبرياء ، لم يسجل التاريخ *

عرقاً عربياً في خانات العبيد نحن المبتدأ والخبر ، والبداية والنهاية فأجدادي كانوا من أوائل السلالات البشرية التي إحتفت بطلوع الشمس للمرة الأولى ، والقمر للمرة الأولى . أنا زنوبيا ملكة تدمر العربية ، كيف أفهم هذا الحمار المتعجرف بمميزات شخصيتنا وتاريخ دمائنا ، المشبعة بشمس الصحارى وعقب أحد مستشارية «أورليان» بأن قيادة الفرق المدرعة ، يتطلب تقاليد وأنظمة شديدة لا يمكن مقارنتها مع فوضى العرب . وأضاف بأن إله الشمس قد تجلّ له في حمص ، مرسلاً أشعته وسط القوات ، ليعيد ضبط خطوط قواته المخلخلة ، التي صدمته أوائل خطوط قواتي . ودهشت . فقد كانت العبارات الأخيرة ، تتتابع من ملاحظات واضحة جداً ، ولقد نطقهم بصوت ينذر بالخطر كعرّاف مخلص .

ونظرت إليه بشموخ صحراء بلادي وإزدراء لعقم عقولهم ، فوضع نهاية لحديثنا بعد أن أضاف :

«ليس من المعيب أبداً ، الإنتصار بمساعدة الخالدين ، وهكذا خاضت قواتنا ، وأنتهت الكثير من الحروب» .

كان كورنيليوس بلباسه الرسمي ، بينما كان أورليان يصدر أحكامه حول جميع المسائل ، بذات الرنة ، وهو الصوت الخطير : فالحرب ، والآلهة والحب ، والنقود ، والغذاء ، وأنظمةالثكنات كانت عيونه الحزينة غير قابلة للضحك بتاتاً . أما البربرية ، فهي التسمية اللائقة له ، ولجميع قياصرهم .

● بعد ستة أسابيع من مغادرة الجيش الروماني لتدمر ، إجتاز هؤلاء الهمجمين حدود بيتيني : وإستقر الإمبراطور في «نيقوميديا» ، بينما أبحرت قوات المقدمة على السفن بإتجاه «شالسي ـ دوان» لقد بقيت في ذاكرتي ، صور شتى . فخلفي ، كانت آسيا الصغرى تبتعد . بينما أصرَّ «أورليان» على أن أزيّن إنتصاره العظيم ، فجرّني خلف عربته ، ليطيل في إفتخار رجل جديد ألقى القيود على يدي إبنه أمير . وبقي قائداً عسكرياً قروياً ، خبيثاً . ولكنه كان يخدمني كعبد ، لكنه أبى إطلاق سراحي .

فما الذي سيصبح عليه وهب إللات ؟

لقد أشرفت على تعليمه بنفسي ، وكان عالماً بتعاستي ، والقدر غير المتوقع ،

كنت أحذره من وقوعه في الأخطاء ، إنه ولد أوذينة وزنوبيا ، ترى هل سيعود يوماً إلى تدمر ؟

فإذا ذبحت روما ، «سيزاريون» وعدة أطفال ، لملوك العصيان . الذين ترعرعوا على ضفاف نهر التيبر ، برعاية مجلس الشيوخ ، فإنهم على أقل تقدير لن يجدوا ميراثهم . وولدي لم يبلغ العاشرة من العمر . وعذاباته ، وآلامه . لم تستطع أن تقاوم يفاعته ، هذه الرحلة الطويلة عبر «كوماجين ، وكابادوس وغلاطية» كانت بالنسبة له نوعاً من النزهة العسكرية .

وفي إحدى مراحل المسير ، كان يلهو مع الجنود في لعب الحجارة : كان أكثر مهارة من كسلهم ، وقد ربح بعض النقود البرونزية منهم . ووصلنا الى مرحلة إنتقالنا بطريق البحر ، وتلقيت الأمر بالصعود إلى سفينة القائد «**أورليان**» ، بينما كانت تابعتي «**مباركة**» تحرس أمتعتي .

وأجبر «**وهب ـ اللات**» على الإنتقال إلى سفينة أخرى . وعندما تلقيت خبر غرق السفينة التي كانت تقل ولدي . نظر إليّ الجميع ، ليعرفوا وقع الخبر علي . وأردت التأكيد لكل من كان ينظر إلي أن أثبت لهم بأنه من غير الضروري بل من المستحيل أن أكون رومانية لأرفض نشر حنيني فبكيت . ولكن إذا ما حملت الأمواج جثمانه الطاهر البريء إلى أحد شواطىء بحر «**بروبونتيد**» . فإن منظره سيرعبي ، وستظل صورته تلاحقني حتى في أحلامي . ولكن ما حدث له لأفضل ما يمكن حدوثه ، وإلا لأصبح مخبولاً رومانياً ، وأسيراً دون أن يعلم . وولدي بقيَ ذلك الطفل الصلب ، جميل الطلعة والمحيا ذكياً ، أديباً ، فارساً ، عربياً ، صغيراً ، ذلك طفلي الجزء مني ، جزء من حجارة وأعمدة تدمر الباقية سأذكره ما حييت ، سأذكر عطر شعره ، ورائحة أقدامه ، وإبتلعت دمعة حّرى في داخلي ، لعلها دم قرمزي حار .

وإنطلق ، الجيش ، في جبال «**التراس**» . كان الثلج يهطل . ومسافرين قادمين من ڤينيسيا ، حدثوني عن هامات جبال اللبن المكللة بالثلج الأبيض . وشعرت بقشعريرة البرد . في حين كان الهواء الثلجي يلفح وجهي ، وأعماقي وحمل إليّ «**أورليان**» عدة أغطية من الصوف فكنت أغفو في حضن مباركة ، والأغطية فوقنا ، كقطة وحيدة . كانت الليالي طويلة ، وعندما يسحبنا صوت

الأبواق من غفونا ، كنت أشاهد عدداً من الجنود الضاحكين وهم يقومون بتعزيل سطح خيمتنا من ثلوج اللبن . ويشعلون ناراً للتدفئة ، ثم يعودون إلى حبالهم فرحى .

وفي إحدى الصباحات الباكرة ، بدأ المعسكر ، يصحو فقد إستقبل الإمبراطور فارساً . وسمعت صراخاً وصليل سيوف ، وخطوات مسرعة . وجاء إلي أحد الجنود مسرعاً ، ليخطرني ، بأن الإمبراطور ، يود رؤيتي على جناح السرعة .

ووصلت أمامه ، كان عدد من قادة فرقة يحيط به . وكان في سورة غضب ، والعنف الملتهب يشتعل في عينيه . فقد وصل ، رسول ، يحمل إليه نبأ ، الثورة المشعلة في تدمر ، ضد روما ، وقد عمد الشعب التدمري الى الهجوم على ثكنات الجيش الروماني ، فذبحوا كل من وجدوه فيها ، وأحرقوها بعد ذلك بما فيها ، ولم ينج حي ، أو أي أثر روماني من هذه الإنتفاضة التدمرية . وكنت أسمع صوت أورليان وهو يصرخ في وجه قادته في الخيمة المجاورة : «إن هؤلاء العرب التدموريين أشد خداعاً من جميع الأعداء الذين قاتلناهم . ولقد نكث العرب بعهدهم . ولسوف نعود إلى ضربهم بإنتقام شديد . هو ، أورليان ، إمبراطور العالم الروماني ، وسيد المشرق ، سيعود حالاً إلى سورية مع ثلاث فرق . وسيعطي الأمر ، بإبادة سكان تدمر . وبيع من يبقى حياً منهم عبيداً من أطفال ، وشيوخ ، ونساء . وستدمر كل المنشآت ، وتحرق ، بينما ستتابع زنوبيا طريقها إلى روما . حيث ستنتظر عودة الإمبراطور في سجنها .

كان «**أورليان**» ينظر إلى ووجهة محتقناً وكان حديثة ، مشوشاً ، وبلحن حاد وخطير غيّر الغضب هيئتة ، وجعل من القيصر كلباً ينبح بالأوامر . وإشار الي بالخروج فأحاطني عدد من الضباط القادة خارجاً .

وبعد ساعتين ، إنطلقت الكتائب الاولى عائدة الى سورية ، والحقد يأكل أكبادها ورفعت نظري الى السماء ، فكانت مليدة بالغيوم ، وتراءت لي عقول هؤلاء الحيوانات ملبدة بغيوم بلادهم السوداء . كانت أكتافهم مثنية تحت ثقل أسلحتهم . وأكياس طعامهم ، كان الرجال منهكين من آخر حملة عسكرية

خاضوها ، وكلهم في سورة غضب ، لفقدانهم أصدقاء لهم وسمعتهم ينشدون في الغابة :

«ألف ، ألف ، وألف ، لقد قتل عشرة آلاف . . .» .

كانت كتل الثلج الضخمة ، تتساقط على الأشجار ، وعلى الطريق المتوقف دون حراك .

● كتم «**أورليان**» عني ، أحداث تدمر ، لمدة عدة شهور . لقد أسلمها للنيران . ولقد إستقيت معلوماتي من أحد قواد المئة الذي كان في الماضي ، حارساً على باب قصر والدي . . لقد سحق جيشي ، وذبح أصدقائي ، وأنا أسيرة القيصر ، فقد حدث لي أن تخيلّت عودة الأقدار : نحن ، المولودين في الطرف الآخر للأرض ، حيث تولد الشمس كل صباح نستلقي في آناء الليل ، على أمل عودة الضياء .

وغداً ، سيعود «**الغوط**» الى الهجوم على الدانوب بينما سيشن الفرس ، بقواتهم التي لا يحصى عددها ، مراكز الرومان على الفرات . لقد بدأت المؤامرة بوزنها ، تثقل كاهل الإمبراطور .

وإنني غير جاهلة لهذه الأشياء . وحمل بعضهم إلى ، بعض الملاحظات ، التي ساعدتني على الإنخراط في طريق الصبر . وكانت صور تدمر والأصحاب تعود من آونة لأخرى ، لتهزَّ كياني ، وتحرق كبدي ، كانت أذناي تسمع ضجيج أسواق تدمر ، ونداءات باعتها كنت أسمع صوت ولدي ، يناديني ، فألتفت ، ولا أرى شيئاً ، كنت أشتم روائح أحجار ورمال بلادي . .

اليوم ، أنا ، على علم ، بأن حياتي ، قد سلبت وتفرق شمل شعبي ، ولكنه لم ولن يموت . حتى قبور تدمر . قد هدمها البرابرة . ولن تعود مطرقة النخاس ترن . داخل الدكاكين والمستودعات المحترقة وإذا كان رماد تدمر ، من الآن فصاعداً سيكون بارداً . بإنتظار أن تعيد زنوبيا الحرارة إليه ، فهذا عصي على التنفيذ ، ولن أبقى على قيد الحياة وحيده ، بينما الآخرون قد سبقوني الى السماء ولا بد لي من اللحاق بهم . أما «**أورليان**» ممثل آلهة الجحيم ، فسيرحل قريباً إلى بلاد النهرين : وقبل أن يصل إلى شواطىء الدانوب ، سيقع صريع الخيانة ، التي تسري في دماء هؤلاء ، باهتي الألوان ، وسيكون الخنجر . بيد أقرب المقربين

إليه . وأخلصهم له . فهذه الأشياء أعلمها أيضاً . فهمسات أعضاء مجلس الشيوخ . الذين كانوا يزورونني في قصري بـ «**تيبور**» لم أبح بها للقيصر .

ولن يعلم أي شخص ، بخطة إغتيال «**أورليان**» التي دبرت بوجودي ، وتحت مشورتي . ولكل إنتقامة . أما إنتقامي ، فسأتجرعه بصمت حتى يتم تنفيذه .

أبلغ الآن الثلاثين من العمر . ويقول الرجال بأنني لا أزال فاتنة شرقية . «**وأورليان**» قتل ، أنا ، زنوبيا ، ملكة تدمر ، قد غزوت ، وأقمت ، وأضعت إمبراطورية ، إمتدت من نهر النيل غرباً ، حتى الفرات والخليج شرقاً ومن آسيا الصغرى شمالاً ، حتى الصحارى العربية جنوباً . وسيقلل المؤرخون من شأني ، والرجال من قدري ، لأنها أقيمت بيد إمرأة ، هزّت العالم وأهوت تيجان وعروش ، وبعثت الرعب في قلوب أباطرة وجنرالات روما ، الذين إعتادوا على النظر الى أجسادهم على ألواح دروعهم .

وسينسون سفني المثقلة ، في خليج بلاد النهرين ، التي سيقت إلى البحر الداخلي عبر البحر الأحمر ، والأقنية المصرية . وسيرفضون الإعتراف بخطط القتال التي نظمتها في حمص ، تحت وصايتي ومشورتي وحيدة والتي استعملت فيها بذات الوقت قوات المشاة الراجلة ، وأجنحة من الفرسان الخيالة . فبعضهم سيلعن ذكرى أميرة ، جشعة ، ضاعت بسبب طموحها والبعض الآخر ، قد يحتفظ ، ربما ، بأسطورة الملكة ذات الفضائل والمزايا الخلاّقة .

● هبط الليل ، عبرالنافذة المفتوحة ، ورأيت عبرها الحديقة المسّورة ، بالآجر الوردي ، والجص رأيت الريف الروماني ، وبودرة النجوم في السماء كانت أشجار الزيتون ، تنتفخ بثمارها الفضية وسط الحقول ، وكان يقال ، أن من يزرعها هم من الجغرافيين .

وعلى اليمين ، وعند أسفل التلة ، إرتفعت أجنحة ڤيلا ، «**هادريانا ـ زنوبيا**» . وإستمعت إلى صرير الحشرات ، المختلط ، بصوت الآلات الآتِ من البعيد ، تقطع الرخام في محيط منطقة «**تيبور**» . ولفت غيمة حرّ ، الأشجار والجدران ، كتلك الأقمشة الشفافة والنفاذة ، التي تحملها السفن القادمة من الشرق الأقصى ، والمحمولة حتى موانىء خليج بلاد النهرين . هذه هي الساعة

التي تستطيل فيها خيالات الشعب ففي إحدى الأمسيات الشبيهة بهذه الأمسية الساكنة ، والعذبة ، أفهمت إبن أخ زوجي ، بأنه اذا ما ضرب القدر السيء أوذينة وهيروديان فإن ميراث تدمر سيؤول إليه وحده هو : «**مايونيوس**» .

● لقد حانت لحظة نزع الثوب الحريري ، وعقودي المزينة بالمجوهرات ، وحذائي الذهبي ، وكل ما يشير الى زنوبيا الأسيرة عند القيصر . وسأرتدي ثوباً تدمرياً من الصوف بني اللون . محزوماً عند الخصر وأنتعل واقية الساق الجلدية ، وأعتمر بالقبعة المدببة .

وأضع على جانبي حزامي المسماري ، خنجران طويلان . كان هذا الرداء . رداء فرساني بصرخاتهم المجلجلة في الصحارى ، وكان كذلك للقائد الفذ زبّاي ، الذي ظهر فيه أمام ناظري للمرة الأولى ، فيا آلهة الموت ، إستعدي لإستقبالي لأكون بجانب ولدي ، وزوجي ، وشعبي .

وأحتسيت الزجاجة الصغيرة ، التي طالما حافظت وإحتفظت بها منذ أيامي الأولى في تدمر . ولم يتبق لي إلا لحظات عدة ، لأنادي تابعتي العجوز «**مباركة**» .

وجلجلت القاعة بصرخاتها المجنونة ، وأخذتني بين ذراعيها ، وأجلستني على ركبتيها . لقد كان لدي الوقت الكافي لأطلب اليها آخر طلب ، قبل الالتحاق بركبي الذي سبقني فيا تدمر الأزلية ، سأحميك بروحي الهائمة التي لن تجد مستقراً لها ، وراحة الا بين أفياء أعمدتها ، وساحاتها وطرقاتها ودكاكين تجارها وثنايا معابدها أيا أرام الخالدة ها أنا عائدة إليك بروحي ، لا بجسدي ، ويا عجوزي : مباركة أنتِ غنِ لي لحن طفولتي في تدمر ، غنِ لأرضنا الطيبة الباقية ، ودمائنا التي لن تجف غنِ لي يا تدمر ، ها آنا أطير برفق ، وبكل رقة على أجنحة صقور صحرائي التدمرية وعلى شفافية بساطة أغنيتي :

«تعال ، تعال ، تعال ، أيها النعاس الصغير ، وسيأتي النعاس الصغير وستغفو زنوبيا زينب ملكة الصحراء .

الفهرس